نخب الملح

جمعها الأب يوحنا لو والأب أوغسطينوس روده
من الرهبنة اليسوعية

وهو يشتمل على حكايات أدبية
ونوادر حكمية وحوادث تاريخية

٢

طبع في مطبعة المرسلين اليسوعيين
في بيروت



نُخَبُ المُلَح

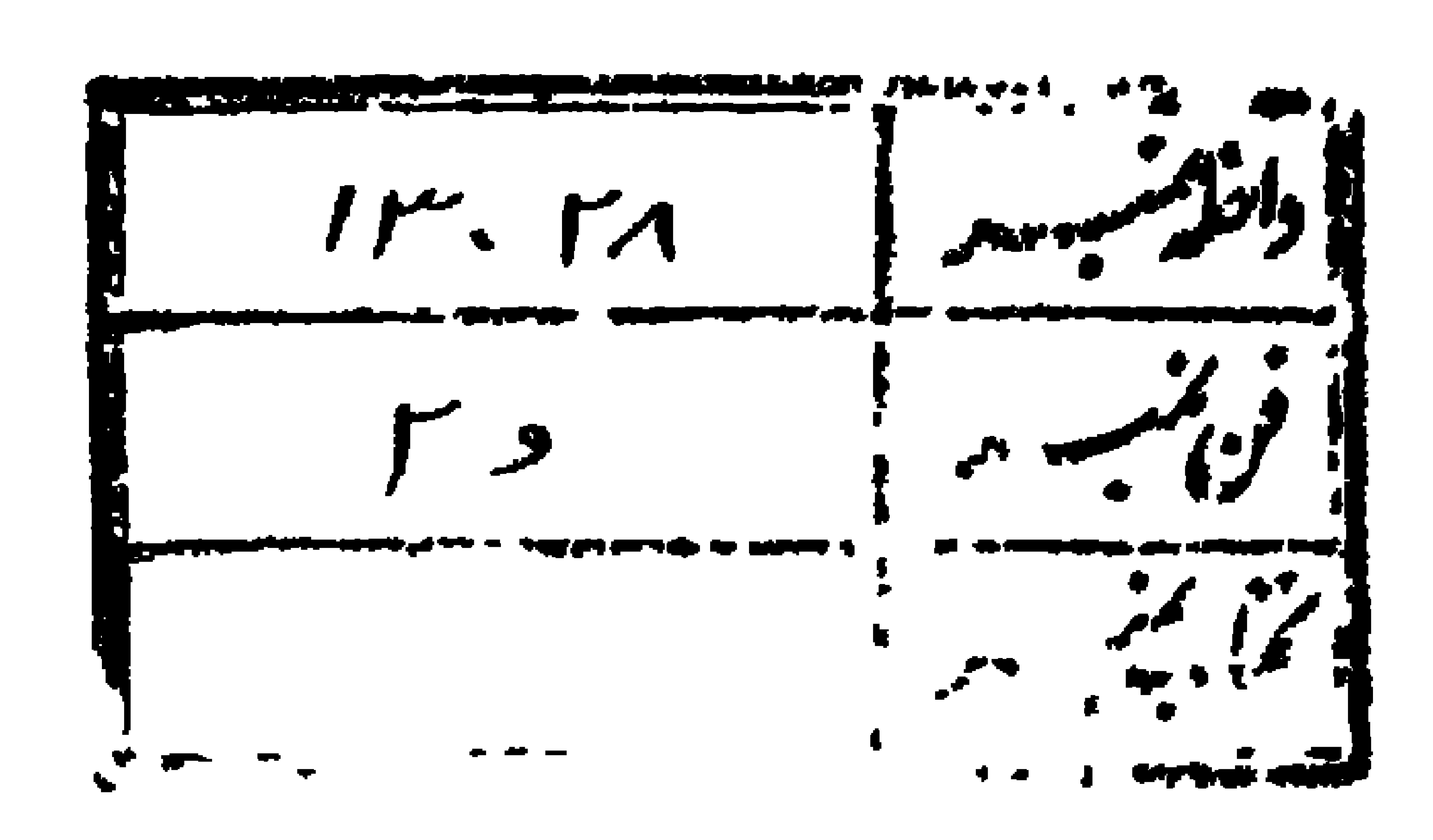
جمعها الاب يوحنا بلو والاب اغوستينوس روده
من الرهبنة اليسوعية

الجزء الاول

القسم الثاني

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى حِكَايَاتٍ أَدَبِيَّةٍ
وَنَوَادِرَ حِكَمِيَّةٍ وَحَوَادِثَ تَارِيخِيَّةٍ

طبعة ثالثة في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين



نُخْبَةٌ

مِنْ مُقَدِّمَةِ بَهْنُودَ بْنِ سَحْوَانَ وَيُعْرَفُ بِعَلِيِّ

ذكر فيها السبب الذي من اجله

عمل بيدبا الفيلسوف الهندي راس البراهمة

لدبشليم ملك الهند كتابه الذي سماه

كليله ودمنه

قَالَ عَلِيُّ بْنُ ٱلشَّاهِ ٱلْفَارِسِيُّ: كَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ ٱلْهِنْدِ كِتَابَ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ أَنَّ ٱلْإِسْكَنْدَرَ ذَا ٱلْقَرْنَيْنِ ٱلرُّومِيَّ لَمَّا فَرَغَ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُلُوكِ ٱلَّذِينَ كَانُوا بِنَاحِيَةِ ٱلْمَغْرِبِ سَارَ يُرِيدُ مُلُوكَ ٱلْمَشْرِقِ مِنَ ٱلْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ. فَلَمْ يَزَلْ يُحَارِبُ مَنْ نَازَعَهُ وَيُوَاقِعُ مَنْ وَاقَعَهُ وَيُسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ مِنْ مُلُوكِ ٱلْفُرْسِ وَهُمُ ٱلطَّبَقَةُ ٱلْأُولَى حَتَّى ظَفِرَ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَ مَنْ نَاوَاهُ وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ. فَتَفَرَّقُوا طَرَائِقَ وَتَمَزَّقُوا خَرَائِقَ. فَتَوَجَّهَ بِٱلْجُنُودِ نَحْوَ بِلَادِ ٱلصِّينِ فَبَدَأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ ٱلْهِنْدِ لِيَدْعُوَهُ إِلَى طَاعَتِهِ وَٱلدُّخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلَايَتِهِ. وَكَانَ عَلَى ٱلْهِنْدِ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبَأْسٍ وَقُوَّةٍ وَمِرَاسٍ يُقَالُ لَهُ فُورٌ. فَلَمَّا بَلَغَهُ إِقْبَالُ ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِمُحَارَبَتِهِ وَٱسْتَعَدَّ لِمُجَاذَبَتِهِ وَضَمَّ إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ وَجَدَّ ٱلتَّأَلُّبَ عَلَيْهِمْ وَجَمَعَ لَهُ ٱلْعُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ مِنَ ٱلْفِيَلَةِ ٱلْمُعَدَّةِ لِلْحُرُوبِ وَٱلسِّبَاعِ ٱلْمُضَرَّاةِ لِلْوُثُوبِ مَعَ ٱلْخُيُولِ ٱلْمُسْرَجَةِ وَٱلسُّيُوفِ ٱلْقَوَاطِعِ وَٱلْحِرَابِ ٱللَّوَامِعِ.

فَلَمَّا قَرُبَ ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ مِنْ فُورٍ ٱلْهِنْدِيِّ وَبَلَغَهُ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ مِنَ ٱلْخَيْلِ ٱلَّتِي كَأَنَّهَا قِطَعُ ٱللَّيْلِ مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ ٱلَّذِينَ

كَانُوا فِي ٱلْأَقَالِيمِ. فَتَخَوَّفَ ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ مِنْ تَقْصِيرٍ يَقَعُ بِهِ إِنْ عَجَّلَ ٱلْمُبَارَزَةَ. وَكَانَ ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ رَجُلًا ذَا حِيَلٍ وَمَكَايِدَ مَعَ حُسْنِ تَدْبِيرٍ وَتَجْرِبَةٍ فَرَأَى أَعْمَالَ ٱلْحِيلَةِ وَٱلتَّمَهُّلِ وَٱحْتَفَرَ خَنْدَقًا عَلَى عَسْكَرِهِ وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ لِٱسْتِنْبَاطِ ٱلْحِيلَةِ وَٱلتَّدْبِيرِ فِي أَمْرِهِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْدِمَ عَلَى ٱلْإِيقَاعِ بِهِ. فَٱسْتَدْعَى بِٱلْمُنَجِّمِينَ وَأَمَرَهُمْ بِٱلِٱخْتِيَارِ لِيَوْمٍ مُوَافِقٍ تَكُونُ فِيهِ لَهُ سَعَادَةٌ لِمُحَارَبَةِ مَلِكِ ٱلْهِنْدِ وَٱلنُّصْرَةِ عَلَيْهِ. فَٱشْتَغَلُوا بِذٰلِكَ وَكَانَ ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ لَا يَمُرُّ بِمَدِينَةٍ إِلَّا أَخَذَ ٱلصُّنَّاعَ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنْ صُنَّاعِهَا بِٱلْحِذْقِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ. فَأَنْتَجَتْ لَهُ هِمَّتُهُ وَدَلَّتْهُ فِطْنَتُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى ٱلصُّنَّاعِ ٱلَّذِينَ مَعَهُ أَنْ يَصْنَعُوا خَيْلًا مِنْ نُحَاسٍ مُجَوَّفَةً عَلَيْهَا تَمَاثِيلُ مِنَ ٱلرِّجَالِ عَلَى بَكَرٍ تَجْرِي إِذَا دُفِعَتْ مَرَّتْ سِرَاعًا. وَأَمَرَ إِذَا فَرَغُوا مِنْهَا أَنْ تُحْشَى أَجْوَافُهَا بِٱلنِّفْطِ وَٱلْكِبْرِيتِ وَتُلْبَسَ وَتُقَدَّمَ أَمَامَ ٱلصَّفِّ فِي ٱلْقَلْبِ. وَوَقْتَ مَا يَلْتَقِي ٱلْجَمْعَانِ تُضْرَمُ فِيهَا ٱلنِّيرَانُ. فَإِنَّ ٱلْفِيَلَةَ إِذَا لَفَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَى ٱلْفُرْسَانِ وَهِيَ حَامِيَةٌ وَلَّتْ هَارِبَةً. وَأَوْعَزَ إِلَى ٱلصُّنَّاعِ بِٱلتَّشْمِيرِ وَٱلِٱنْكِمَاشِ وَٱلْفَرَاغِ مِنْهَا. فَجَدُّوا فِي ذٰلِكَ وَعَجَّلُوا وَقَرُبَ أَيْضًا وَقْتُ ٱخْتِيَارِ ٱلْمُنَجِّمِينَ. فَأَعَادَ ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ رُسُلَهُ إِلَى فُورٍ بِمَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَٱلْإِذْعَانِ لِدَوْلَتِهِ. فَأَجَابَ جَوَابَ مُصِرٍّ عَلَى مُخَالَفَتِهِ مُقِيمٍ عَلَى مُحَارَبَتِهِ. فَلَمَّا رَأَى ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ عَزِيمَتَهُ سَارَ إِلَيْهِ بِأُهْبَتِهِ وَقَدَّمَ فُورٌ ٱلْفِيَلَةَ أَمَامَهُ وَدَفَعَتِ ٱلرِّجَالُ تِلْكَ ٱلْخَيْلَ وَتَمَاثِيلَ ٱلْفُرْسَانِ فَأَقْبَلَتِ ٱلْفِيَلَةُ نَحْوَهَا وَلَفَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَيْهَا. فَلَمَّا أَحَسَّتْ بِٱلْحَرَارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا وَمَضَتْ مَهْزُومَةً هَارِبَةً لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ وَلَا تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا وَطِئَتْهُ. وَتَقَطَّعَ فُورٌ وَجَمْعُهُ وَتَبِعَهُمْ

• • •

أَصْحَابُ ٱلْإِسْكَنْدَرِ وَأَثْخَنُوا فِيهِمُ ٱلْجِرَاحَ

وَصَاحَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ: يَا مَلِكَ ٱلْهِنْدِ ٱبْرُزْ إِلَيْنَا وَٱبْقِ عَلَى عُدَّتِكَ وَعِيَالِكَ وَلَا تَحْمِلْهُمْ إِلَى ٱلْفَنَاءِ. فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ ٱلْمُرُوءَةِ أَنْ يَرْمِيَ ٱلْمَلِكُ بِعُدَّتِهِ فِي ٱلْمَهَالِكِ ٱلْمُتْلِفَةِ وَٱلْمَوَاضِعِ ٱلْمُجْحِفَةِ بَلْ يَقِيهِمْ بِمَالِهِ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ. فَٱبْرُزْ إِلَيَّ وَدَعِ ٱلْجُنْدَ فَأَيُّنَا قَهَرَ صَاحِبَهُ فَهُوَ ٱلْأَسْعَدُ: فَلَمَّا سَمِعَ فُورُ مِنْ ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامَ دَعَتْهُ نَفْسُهُ لِمُلَاقَاتِهِ طَمَعًا فِيهِ وَظَنَّ ذٰلِكَ فُرْصَةً. فَبَرَزَ إِلَيْهِ ٱلْإِسْكَنْدَرُ فَتَجَادَلَا عَلَى ظَهْرِ فَرَسَيْهِمَا سَاعَاتٍ مِنَ ٱلنَّهَارِ لَيْسَ يَلْقَى أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فُرْصَةً وَلَا حِيلَةً وَلَمْ يَزَالَا يَتَعَارَكَانِ. فَلَمَّا أَعْيَا ٱلْإِسْكَنْدَرَ أَمْرُهُ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فُرْصَةً أَوْقَعَ ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ بِعَسْكَرِهِ صَيْحَةً عَظِيمَةً ٱرْتَجَّتْ لَهَا ٱلْأَرْضُ وَٱلْعَسَاكِرُ. فَٱلْتَفَتَ فُورُ عِنْدَمَا سَمِعَ ٱلزَّعْقَةَ وَظَنَّهَا مَكِيدَةً فِي عَسَاكِرِهِ فَعَاجَلَهُ ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَالَتْهُ عَنْ سَرْجِهِ فَوَقَعَ إِلَى ٱلْأَرْضِ. فَلَمَّا رَأَتِ ٱلْهِنْدُ مَا نَزَلَ بِهِمْ وَمَا صَارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ حَمَلُوا عَلَى ٱلْإِسْكَنْدَرِ فَقَاتَلُوهُ قِتَالًا أَحَبُّوا مَعَهُ ٱلْمَوْتَ فَوَعَدَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ ٱلْإِحْسَانَ وَمَنَحَهُ ٱللهُ أَكْتَافَهُمْ. فَٱسْتَوْلَى عَلَى بِلَادِهِمْ وَمَلَّكَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ ثِقَاتِهِ وَأَقَامَ بِٱلْهِنْدِ حَتَّى ٱسْتَوْثَقَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَٱتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ. ثُمَّ ٱنْصَرَفَ عَنِ ٱلْهِنْدِ وَخَلَّفَ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَا قَصَدَ

فَلَمَّا بَعُدَ ذُو ٱلْقَرْنَيْنِ عَنِ ٱلْهِنْدِ بِجُيُوشِهِ تَغَيَّرَتِ ٱلْهِنْدُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي خَلَّفَهُ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: لَا يَصْلُحُ لِلسِّيَاسَةِ وَلَا تَرْضَى ٱلْخَاصَّةُ وَلَا ٱلْعَامَّةُ أَنْ يُمَلِّكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ أَهْلِ بُيُوتَاتِهِمْ. فَإِنَّهُ

لَا يَزَالُ يَسْتَذِلُّهُمْ وَيَسْتَقِلُّهُمْ. وَٱجْتَمَعُوا يُمَلِّكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِهِمْ فَمَلَّكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا يُقَالُ لَهُ دَبْشَلِيمُ وَخَلَعُوا ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي كَانَ خَلَّفَهُ عَلَيْهِمِ ٱلْإِسْكَنْدَرُ. فَلَمَّا ٱسْتَوْثَقَ لَهُ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَقَرَّ لَهُ ٱلْمُلْكُ طَغَى وَبَغَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ وَجَعَلَ يَغْزُو مَنْ حَوْلَهُ مِنَ ٱلْمُلُوكِ. وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ مُؤَيَّدًا مُظَفَّرًا مَنْصُورًا فَهَابَتْهُ ٱلرَّعِيَّةُ. فَلَمَّا رَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُلْكِ وَٱلسَّطْوَةِ عَبِثَ بِٱلرَّعِيَّةِ وَٱسْتَصْغَرَ أَمْرَهُمْ وَأَسَاءَ ٱلسِّيرَةَ فِيهِمْ وَكَانَ لَا يَرْتَقِي حَالُهُ إِلَّا ٱزْدَادَ عُتُوًّا

فَمَكَثَ عَلَى ذٰلِكَ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ. وَكَانَ فِي زَمَانِهِ رَجُلٌ فَيْلَسُوفٌ مِنَ ٱلْبَرَاهِمَةِ فَاضِلٌ حَكِيمٌ يُعْرَفُ بِفَضْلِهِ وَيُرْجَعُ فِي ٱلْأُمُورِ إِلَى قَوْلِهِ. يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا. فَلَمَّا رَأَى ٱلْمَلِكَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلظُّلْمِ لِلرَّعِيَّةِ فَكَّرَ فِي وَجْهِ ٱلْحِيلَةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ وَرَدِّهِ إِلَى ٱلْحَقِّ وَٱلْعَدْلِ وَٱلْإِنْصَافِ. فَجَمَعَ لِذٰلِكَ تَلَامِذَتَهُ وَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُشَاوِرَكُمْ فِيهِ. إِعْلَمُوا أَنِّي أَطَلْتُ ٱلْفِكْرَةَ فِي دَبْشَلِيمَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْخُرُوجِ عَنِ ٱلْعَدْلِ وَلُزُومِ ٱلشَّرِّ وَرَدَاءَةِ ٱلسِّيرَةِ وَسُوءِ ٱلْعِشْرَةِ مَعَ ٱلرَّعِيَّةِ. وَنَحْنُ مَا نَرُوضُ أَنْفُسَنَا بِمِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ ٱلْمُلُوكِ إِلَّا لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ ٱلْخَيْرِ وَلُزُومِ ٱلْعَدْلِ. وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذٰلِكَ وَأَهْمَلْنَاهُ لَزِمَنَا مِنْ وُقُوعِ ٱلْمَكْرُوهِ بِنَا وَبُلُوغِ ٱلْمَحْذُورَاتِ إِلَيْنَا إِذَا كُنَّا فِي أَنْفُسِ ٱلْجُهَّالِ أَجْهَلَ مِنْهُمْ وَفِي ٱلْعُيُونِ عِنْدَهُمْ أَقَلَّ مِنْهُمْ. وَلَيْسَ ٱلرَّأْيُ عِنْدِي ٱلْجَلَاءَ عَنِ ٱلْوَطَنِ وَلَا يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ ٱلسِّيرَةِ وَقُبْحِ ٱلطَّرِيقَةِ. وَلَا يُمْكِنُنَا مُجَاهَدَتُهُ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِنَا لَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَتَهَيَّأْ لَنَا مُعَانَدَتُهُ وَإِنْ أَحَسَّ مِنَّا

بِمُخَالَفَةٍ وَإِنْكَارِنَا سُوءَ سِيرَتِهِ كَانَ فِي ذَٰلِكَ بَوَارُنَا. وَقَدْ تَعْلَمُونَ إِنَّ مُجَاوَرَةَ ٱلسَّبُعِ وَٱلْكَلْبِ وَٱلْحَيَّةِ وَٱلثَّوْرِ عَلَى طِيبِ ٱلْوَطَنِ وَنَضَارَةِ ٱلْعَيْشِ لَغَدْرٌ بِٱلنَّفْسِ. وَإِنَّ ٱلْفَيْلَسُوفَ لَحَقِيقٌ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ مَصْرُوفَةً إِلَى مَا يُحَصِّنُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نَوَازِلِ ٱلْمَكْرُوهِ وَلَوَاحِقِ ٱلْمَحْذُورِ وَيَدْفَعُ ٱلْخَوْفَ لِٱسْتِجْلَابِ ٱلْمَحْبُوبِ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ فَيْلَسُوفًا كَتَبَ لِتِلْمِيذِهِ يَقُولُ: إِنَّ مُجَاوَرَةَ رِجَالِ ٱلسُّوءِ وَٱلْمُصَاحَبَةَ لَهُمْ كَرَاكِبِ ٱلْبَحْرِ هُوَ إِنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْغَرَقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ ٱلْمَخَاوِفِ: فَإِذَا أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ ٱلْمَهْلَكَاتِ وَمَصَادِرَ ٱلْمَخُوفَاتِ عُدَّ مِنَ ٱلْحَمِيرِ ٱلَّتِي لَا نَفْسَ لَهَا. لِأَنَّ ٱلْحَيَوَانَاتِ ٱلْبَهِيمِيَّةَ قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ ٱلنَّفْعَ وَتَتَوَقَّى ٱلْمَكْرُوهَ لِذَٰلِكَ لَمْ نَرَهَا تُورِدُ أَنْفُسَهَا مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكَتُهَا. وَإِنَّهَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ مُهْلِكٍ لَهَا مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا ٱلَّتِي رُكِّبَتْ فِيهَا شُحًّا بِأَنْفُسِهَا وَصِيَانَةً لَهَا إِلَى ٱلنُّفُورِ وَٱلتَّبَاعُدِ عَنْهُ

وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَٰذَا ٱلْأَمْرِ لِأَنَّكُمْ أُسْرَتِي وَمَكَانُ سِرِّي وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي وَبِكُمْ أَعْتَضِدُ وَعَلَيْكُمْ أَعْتَمِدُ. فَإِنَّ ٱلْوَحِيدَ بِنَفْسِهِ وَٱلْمُنْفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ وَلَا نَاصِرَ لَهُ. عَلَى أَنَّ ٱلْعَاقِلَ قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ مَا لَا يَبْلُغُ بِٱلْخَيْلِ وَٱلْجُنُودِ وَٱلْمَثَلُ فِي ذَٰلِكَ. أَنَّ قُنْبَرَةً ٱتَّخَذَتْ أُدْحِيَّةً وَبَاضَتْ فِيهَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفِيلِ وَكَانَ لِلْفِيلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ. فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فَوَطِئَ عُشَّ ٱلْقُنْبَرَةِ وَهَشَّمَ بَيْضَهَا وَقَتَلَ فِرَاخَهَا. فَلَمَّا نَظَرَتْ مَا سَاءَهَا عَلِمَتْ أَنَّ ٱلَّذِي نَالَهَا مِنَ ٱلْفِيلِ لَا مِنْ غَيْرِهِ. فَطَارَتْ فَوَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ بَاكِيَةً. ثُمَّ قَالَتْ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ. لِمَ هَشَّمْتَ بَيْضِي وَقَتَلْتَ فِرَاخِي وَأَنَا فِي جِوَارِكَ أَفَعَلْتَ هَٰذَا ٱسْتِصْغَارًا مِنْكَ لِأَمْرِي وَٱحْتِقَارًا لِشَأْنِي قَالَ هُوَ

الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذٰلِكَ: فَتَرَكْتُهُ وَٱنْصَرَفْتُ إِلَى جَمَاعَةِ ٱلطَّيْرِ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ ٱلْفِيلِ. فَقَالَتْ لَهَا: وَمَا عَسَى أَنْ نَبْلُغَ مِنْهُ وَنَحْنُ طُيُورٌ: فَقَالَتْ لِلْعَقَاعِقِ وَٱلْغِرْبَانِ: أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِي فَتَفْقَأْنَ عَيْنَيْهِ فَإِنِّي أَحْتَالُ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى: فَأَجَابُوهَا إِلَى ذٰلِكَ وَذَهَبُوا إِلَى ٱلْفِيلِ فَلَمْ يَزَالُوا يَنْقُرُونَ عَيْنَيْهِ حَتَّى ذَهَبُوا بِهِمَا وَبَقِيَ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ. فَلَمَّا عَلِمَتْ ذٰلِكَ مِنْهُ جَاءَتْ إِلَى غَدِيرٍ فِيهِ ضَفَادِعُ كَثِيرَةٌ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ ٱلْفِيلِ. قَالَتِ ٱلضَّفَادِعُ: مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فِي عِظَمِ ٱلْفِيلِ وَأَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ: قَالَتْ: أُحِبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَسِيرُوا مَعِي إِلَى وَهْدَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ فَتَنِقُّوا[1] فِيهَا وَتَضِجُّوا فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُمْ لَمْ يَشُكَّ فِي ٱلْمَاءِ فَيَهْوِي فِيهَا: فَأَجَابُوهَا إِلَى ذٰلِكَ وَٱجْتَمَعُوا فِي ٱلْهَاوِيَةِ. فَسَمِعَ ٱلْفِيلُ نَقِيقَ ٱلضَّفَادِعِ وَقَدْ جَهَدَهُ ٱلْعَطَشُ فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ فِي ٱلْوَهْدَةِ فَٱرْتَطَمَ فِيهَا وَجَاءَتِ ٱلْقُنْبَرَةُ تُرَفْرِفُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَتْ: أَيُّهَا ٱلطَّاغِي ٱلْمُغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ ٱلْمُحْتَقِرُ لِأَمْرِي كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ

فَلْيُشِرْ كُلٌّ مِنْكُمْ بِمَا يَسْنَحُ لَهُ مِنَ ٱلرَّأْيِ: قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ: أَيُّهَا ٱلْفَيْلَسُوفُ ٱلْفَاضِلُ وَٱلْحَكِيمُ ٱلْعَادِلُ أَنْتَ ٱلْمُقَدَّمُ فِينَا وَٱلْفَاضِلُ عَلَيْنَا وَمَا عَسَى أَنْ

---

[1] يقال للضفدع والعقرب والدجاجة والجرذ نقّ اسم صات وللافعى فحّ والارنب ضغب والسنور مأى والكلب نبح والخنزير قبع والليث زأر والسبع زمجر والذئب عوى والثعلب ضبح والظبي بغم والغراب نعب والبازي صرصر والنسر صفر والحمام هدر والبط بطبط والصقر قنقن والذباب طنّ والعصفور شقشق والجمل هدر والفيل صأى والمعز يعر والشاة ثغت والعجل خار والفرس صهل والبغل شحج والعفو نهق

يكون مبلغ رأينا عند رأيك وفهمنا عند فهمك. غير أنّنا نعلم أنّ السباحة في الماء مع التمساح تغرير والذنب فيه لمن دخل عليه في موضعه. والذي يستخرج السّمّ من ناب الحيّة فيبتلعه فليس الذنب للحيّة. ومن دخل على الأسد في غابته لم يأمن وثبته. وهذا الملك لم تفزعه النوائب ولم تؤدّبه التجارب ولسنا نأمن عليك وعلى أنفسنا سطوته. وإنّا نخاف عليك من سورته ومبادرته بسوء إذا لقيته بغير ما يحبّ: فقال الحكيم بيدبا: لعمري لقد قلتم فأحسنتم لكنّ ذا الرأي الحازم لا يدع أن يشاور من هو دونه وفوقه في المنزلة. والرأي الفرد لا يكتفى به في الخاصّة ولا ينتفع به في العامّة. وقد صحّت عزيمتي على لقاء دبشليم وقد سمعت مقالتكم وتبيّن لي نصيحتكم والإشفاق عليّ وعليكم. غير أنّي قد رأيت رأيا وعزمت عزما وستعرفون حديثي عند الملك ومجاوبتي إيّاه. فإذا اتّصل خروجي من عنده فاجتمعوا إليّ: وصرفهم وهم يدعون له بالسّلامة

ثمّ إنّ بيدبا اختار يوما للدخول على الملك حتّى إذا كان ذلك الوقت ألقى عليه مسوحه وهي لباس البراهمة وقصد باب الملك وسأل صاحب إذنه وأرشد إليه وسلّم وأعلمه وقال: إنّي رجل قصدت الملك في نصيحة. فدخل الآذن على الملك في وقته وقال: بالباب رجل من البراهمة يقال له بيدبا ذكر أنّ معه للملك نصيحة: فأذن له فدخل ووقف بين يديه وكفّر وسجد له واستوى قائما وسكت ففكّر دبشليم في سكوته وقال: إنّ هذا لم يقصدنا إلّا لأمرين. إمّا أن يلتمس منّا شيئا يصلح به حاله. أو لأمر لحقه فلم يكن له به طاقة: ثمّ قال: إن كان للملوك فضل

فِي مَمْلَكَتِهَا فَإِنَّ لِلْحُكَمَاءِ فَضْلًا فِي حِكْمَتِهَا أَعْظَمَ. لِأَنَّ الْحُكَمَاءَ أَغْنِيَاءُ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْعِلْمِ وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ الْحُكَمَاءِ بِالْمَالِ. وَقَدْ وَجَدْتُ الْعِلْمَ وَالْحَيَاءَ إِلْفَيْنِ مُتَآلِفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ مَتَى فُقِدَ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوجَدِ الْآخَرُ كَالْمُتَصَافِيَيْنِ إِنْ عُدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطِبْ صَاحِبُهُ نَفْسًا بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأَسُّفًا عَلَيْهِ. وَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ الْحُكَمَاءِ وَيُكْرِمْهُمْ وَيَعْرِفْ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ وَيَصُنْهُمْ عَنْ مَوَاقِفِ الْوَهْنِ وَيُنَزِّهْهُمْ عَنِ الْمَوَاطِنِ الرَّذْلَةِ كَانَ مِمَّنْ حُرِمَ عَقْلَهُ وَخَسِرَ دُنْيَاهُ وَظَلَمَ الْحُكَمَاءَ حُقُوقَهُمْ وَعُدَّ مِنَ الْجُهَّالِ: ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى بَيْدَبَا وَقَالَ لَهُ: نَظَرْتُ إِلَيْكَ يَا بَيْدَبَا سَاكِتًا لَا تَعْرِضُ حَاجَتَكَ وَلَا تَذْكُرُ بُغْيَتَكَ فَقُلْتُ: إِنَّ الَّذِي أَسْكَتَهُ هَيْبَةٌ سَاوَرَتْهُ أَوْ حَيْرَةٌ أَدْرَكَتْهُ وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ طُولِ وُقُوفِكَ وَقُلْتُ: لَمْ يَكُنْ لِبَيْدَبَا أَنْ يَطْرُقَنَا عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ إِلَّا لِأَمْرٍ حَرَّكَهُ لِذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ فَهَلَّا نَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِ فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَيْمٍ نَالَهُ كُنْتُ أَوْلَى مَنْ أَخَذَ بِيَدِهِ وَسَارَعَ فِي تَشْرِيفِهِ وَتَقَدَّمَ فِي الْبُلُوغِ إِلَى مُرَادِهِ وَإِعْزَازِهِ. وَإِنْ كَانَتْ بُغْيَتُهُ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا أَمَرْتُ بِإِرْضَائِهِ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا أَحَبَّ وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ الْمُلْكِ وَمِمَّا يَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَبْذُلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَنْقَادُوا إِلَيْهِ نَظَرْتُ فِي قَدْرِ عُقُوبَتِهِ. عَلَى أَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَى إِدْخَالِ نَفْسِهِ فِي بَابِ مَسْأَلَةِ الْمُلُوكِ. وَإِنْ كَانَ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِ الرَّعِيَّةِ يَقْصِدُ فِيهِ إِلَى صَرْفِ عِنَايَتِي إِلَيْهِمْ نَظَرْتُ مَا هُوَ. فَإِنَّ الْحُكَمَاءَ لَا يُشِيرُونَ إِلَّا بِالْخَيْرِ وَالْجُهَّالُ يُشِيرُونَ بِضِدِّهِ وَأَنَا قَدْ فَسَحْتُ لَكَ بِالْكَلَامِ.

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ بَيْدَبَا مِنَ الْمَلِكِ أَفْرَخَ عَنْهُ رَوْعُهُ وَسُرِّيَ مَا كَانَ وَقَعَ فِي

نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ وَكَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ . ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ : أَوَّلُ مَا أَقُولُ أَسْأَلُ ٱللهَ تَعَالَى بَقَاءَ ٱلْمَلِكِ عَلَى ٱلْأَبَدِ وَدَوَامَ مُلْكِهِ عَلَى ٱلْأَمَدِ . لِأَنَّهُ قَدْ مَنَحَنِي ٱلْمَلِكُ فِي مَقَامِي هٰذَا مَحَلًّا جَعَلَهُ شَرَفًا لِي عَلَى جَمِيعِ مَنْ بَعْدِي مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ . وَذِكْرًا بَاقِيًا عَلَى ٱلدَّهْرِ عِنْدَ ٱلْحُكَمَاءِ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ٱلْمَلِكِ بِوَجْهِهِ مُسْتَبْشِرًا بِهِ فَرِحًا بِمَا بَدَا لَهُ مِنْهُ وَقَالَ : قَدْ عَطَفَ ٱلْمَلِكُ عَلَيَّ بِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ وَٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي دَعَانِي إِلَى ٱلدُّخُولِ عَلَى ٱلْمَلِكِ وَحَمَلَنِي عَلَى ٱلْمُخَاطَرَةِ لِكَلَامِهِ وَٱلْإِقْدَامِ إِلَى ٱلْمَلِكِ نَصِيحَةٌ ٱخْتَصَصْتُهُ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ وَسَيَعْلَمُ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ ذٰلِكَ أَنِّي لَمْ أُقَصِّرْ عَنْ غَايَةٍ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى ٱلْحُكَمَاءِ . فَإِنْ فَسَحَ فِي كَلَامِي وَوَعَاهُ عَنِّي فَهُوَ حَقِيقٌ بِذٰلِكَ وَمَا يَرَاهُ . وَإِنْ هُوَ أَلْقَاهُ فَقَدْ بَلَغْتُ مَا يَلْزَمُنِي وَخَرَجْتُ مِنْ لَوْمٍ يَلْحَقُنِي : قَالَ ٱلْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا تَكَلَّمْ مَهْمَا شِئْتَ فَإِنَّنِي مُصْغٍ إِلَيْكَ وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ وَسَامِعٌ مِنْكَ حَتَّى أَسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَكَ إِلَى آخِرِهِ وَأُجَازِيَكَ عَلَى ذٰلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ

قَالَ بَيْدَبَا : إِنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي ٱخْتَصَّ بِهَا ٱلْإِنْسَانُ مِنْ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ وَهِيَ جِمَاعُ مَا فِي ٱلْعَالَمِ وَهِيَ : ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْعِفَّةُ وَٱلْعَقْلُ وَٱلْعَدْلُ . وَٱلْعِلْمُ وَٱلْأَدَبُ وَٱلرَّوِيَّةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ ٱلْحِكْمَةِ . وَٱلْحِلْمُ وَٱلصَّبْرُ وَٱلْوَقَارُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ ٱلْعَقْلِ . وَٱلْحَيَاءُ وَٱلْكَرَمُ وَٱلصِّيَانَةُ وَٱلْأَنَفَةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ ٱلْعِفَّةِ . وَٱلصِّدْقُ وَٱلْإِحْسَانُ وَٱلْمُرَاقَبَةُ وَحُسْنُ ٱلْخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ ٱلْعَدْلِ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَحَاسِنُ وَأَضْدَادُهَا هِيَ ٱلْمَسَاوِي . فَمَتَى كَمُلَتْ هٰذِهِ فِي وَاحِدٍ لَمْ تُخْرِجْهُ ٱلزِّيَادَةُ فِي نِعْمَةٍ إِلَى سُوءِ ٱلْحَظِّ مِنْ دُنْيَاهُ وَلَا إِلَى نَقْصٍ وَلَمْ يَتَأَسَّفْ عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ ٱلتَّوْفِيقُ بِبَقَائِهِ وَلَمْ يُحْزِنْهُ مَا تَجْرِي بِهِ ٱلْمَقَادِيرُ فِي مُلْكِهِ وَلَمْ

يَدْهَشْ عِنْدَ مَكْرُوهٍ. فَالْحِكْمَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى عَلَى إِنْفَاقٍ، وَذَخِيرَةٌ لَا يُضْرَبُ لَهَا بِالْإِمْلَاقِ وَحُلَّةٌ لَا تَخْلَقُ جِدَّتُهَا وَلَذَّةٌ لَا تُصْرَمُ مُدَّتُهَا وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ أَمْسَكْتُ عَنْ ابْتِدَائِهِ بِالْكَلَامِ. فَإِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلَّا لِهَيْبَتِهِ وَالْإِجْلَالِ لَهُ. وَلَعَمْرِي إِنَّ الْمُلُوكَ لَأَهْلٌ أَنْ يُهَابُوا لَا سِيَّمَا مَنْ هُوَ فِي الْمَنْزِلَةِ الَّتِي حَلَّ فِيهَا الْمَلِكُ عَنْ مَنَازِلِ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: الْزَمِ السُّكُوتَ فَإِنَّ فِيهِ سَلَامَةً وَتَجَنَّبِ الْكَلَامَ الْفَارِغَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ النَّدَامَةُ.

وَحُكِيَ أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ ضَمَّهُمْ مَجْلِسُ مَلِكٍ فَقَالَ لَهُمْ: لِيَتَكَلَّمْ كُلُّ وَاحِدٍ بِكَلَامٍ يَكُونُ أَصْلًا لِلْأَدَبِ: فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَفْضَلُ خَلَّةِ الْعِلْمِ السُّكُوتُ: وَقَالَ الثَّانِي: إِنَّ مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِهِ: وَقَالَ الثَّالِثُ: أَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ: قَالَ الرَّابِعُ: أَرْوَحُ الْأُمُورِ عَلَى الْإِنْسَانِ التَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ: وَاجْتَمَعَ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ مُلُوكُ الْأَقَالِيمِ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَفَارِسَ وَالرُّومِ وَقَالُوا: يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكَلِمَةٍ تُدَوَّنُ عَنْهُ عَلَى غَابِرِ الدَّهْرِ: قَالَ مَلِكُ الصِّينِ: أَنَا عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ: قَالَ مَلِكُ الْهِنْدِ: عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعْهُ وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ أَوْبَقَتْهُ: قَالَ مَلِكُ فَارِسَ: أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالْكَلِمَةِ مَلَكَتْنِي وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكْتُهَا: قَالَ مَلِكُ الرُّومِ: مَا نَدِمْتُ عَلَى مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ قَطُّ وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيرًا. وَالسُّكُوتُ عِنْدَ الْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ الْهَذْرِ الَّذِي لَا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلَى نَفْعٍ وَأَفْضَلُ مَا بِهِ اسْتَظَلَّ الْإِنْسَانُ لِسَانُهُ

غيرَ أنَّ المَلِكَ أطالَ اللهُ مُدَّتَهُ لمّا فسحَ لِي فِي الكَلامِ وأوسعَ لِي فيهِ كانَ أولى ما أبدأُ بهِ مِنَ الأمورِ التي هِيَ غرَضِي أنْ يكونَ ثمرةُ ذلكَ لهُ دُونِي وأنا أخُصُّهُ بالفائِدَةِ قبلِي. على أنَّ النَّفعَ هِيَ ما أقصِدُ فِي كلامِي لهُ وإنَّما نفعُهُ وشرفُهُ راجِعٌ إليهِ وأكونُ أنا قضيتُ فرضًا وجبَ عليَّ فأقولُ:
أيُّها المَلِكُ إنَّكَ فِي منازِلِ آبائِكَ وأجدادِكَ مِنَ الجبابرةِ الذينَ أسَّسوا المُلكَ قبلَكَ وشيَّدوهُ دونَكَ وبنَوا القِلاعَ والحُصونَ ومَهَّدوا البِلادَ وقادُوا الجيوشَ واستجاشوا العُدَّةَ وطالَتْ لهُمُ المُدَّةُ واستكثَروا مِنَ السِّلاحِ والكُراعِ وعاشُوا الدُّهورَ فِي الغِبطةِ والسُّرورِ. فلَمْ يمنعْهُم ذلكَ مِنِ اكتسابِ جميلِ الذِّكرِ ولا قطعَهُم عنِ ارتكابِ الشُّكرِ ولا استعمالِ الإحسانِ إلى مَنْ خوَّلُوهُ والإرفاقِ بِمَنْ ولَّوهُ وحُسنِ السِّيرةِ فيما تقلَّدُوهُ معَ عِظَمِ ما كانُوا فيهِ مِنْ غُرَّةِ المُلكِ وسَكرةِ الاقتدارِ

وإنَّكَ أيُّها المَلِكُ السَّعيدُ جَدُّهُ الطَّالِعُ كوكبُ سعدِهِ قدْ ورِثتَ أرضَهُم وديارَهُم وأموالَهُم ومنازِلَهُم التي كانَتْ عُدَّتَهُم فأقمتَ فيما خُوِّلتَ مِنَ المُلكِ وورِثتَ مِنَ الأموالِ والجُنودِ. فلَمْ تقُمْ بذلكَ بحقِّ ما يجبُ عليكَ بلْ طغَيتَ وبغَيتَ وعتَوتَ وعلَوتَ على الرَّعيَّةِ وأسأتَ السِّيرةَ وعظُمَتْ منكَ البليَّةُ. وكانَ الأولى والأشبهُ بكَ أنْ تسلكَ سبيلَ أسلافِكَ وتتَّبِعَ آثارَ المُلوكِ قبلَكَ وتقفُوَ محاسِنَ ما أبقَوهُ لكَ وتُقلِعَ ما عارُهُ لازِمٌ لكَ وشَينُهُ واقِعٌ عليكَ. وتُحسِنَ النَّظرَ برعيَّتِكَ وتَسُنَّ لهُمْ سُنَنَ الخيرِ الذي يبقى بعدَكَ ذِكرُهُ ويُعقِبُكَ الجميلَ فخرُهُ. ويكونُ ذلكَ أبقى على السَّلامةِ وأدومَ على الاستقامةِ. فإنَّ الجاهِلَ المُغترَّ مَنِ استعملَ فِي

أُمُورِهِ ٱلْبَطَرَ وَٱلْأُمْنِيَةَ . وَٱلْحَازِمُ ٱللَّبِيبُ مَنْ سَاسَ ٱلْمُلْكَ بِٱلْمُدَارَاةِ وَٱلرِّفْقِ . فَٱنْظُرْ أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ مَا أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ وَلَا يَثْقُلَنَّ ذٰلِكَ عَلَيْكَ فَلَمْ أَتَكَلَّمْ ٱبْتِغَاءَ غَرَضٍ تُجَازِينِي وَلَا ٱلْتِمَاسَ مَعْرُوفٍ تُكَافِئُنِي فِيهِ وَلٰكِنِّي أَتَيْتُكَ نَاصِحًا مُشْفِقًا عَلَيْكَ

فَلَمَّا فَرَغَ بَيْدَبَا مِنْ مَقَالَتِهِ وَقَضَى مُنَاصَحَةَ ٱلْمَلِكِ أَرْعَبَ قَلْبَ ٱلْمَلِكِ فَأَغْلَظَ لَهُ ٱلْجَوَابَ ٱسْتِصْغَارًا لِأَمْرِهِ وَقَالَ : لَقَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ وَلَا يُقْدِمُ عَلَى مَا أَقْدَمْتَ عَلَيْهِ . فَكَيْفَ أَنْتَ مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ وَضَعْفِ بِنْيَتِكَ وَعَجْزِ قُوَّتِكَ . وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ إِعْجَابِي مِنْ إِقْدَامِكَ عَلَيَّ وَتَسَلُّطِكَ بِلِسَانِكَ فِيمَا جَاوَزْتَ فِيهِ حَدَّكَ . وَمَا أَجِدُ شَيْئًا فِي تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنَ ٱلتَّنْكِيلِ بِكَ . فَذٰلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيَرُومَ مَا رُمْتَ أَنْتَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ : ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصْلَبَ . فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيمَا أَمَرَ فَكَّرَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فَأَحْجَمَ عَنْهُ . ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ

فَلَمَّا حُبِسَ أَنْفَذَ بِطَلَبِ تَلَامِذَتِهِ وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَهَرَبُوا فِي ٱلْبِلَادِ وَٱعْتَصَمُوا بِجَزَائِرِ ٱلْبِحَارِ . فَمَكَثَ بَيْدَبَا فِي مَحْبِسِهِ أَيَّامًا لَا يَسْأَلُ ٱلْمَلِكُ عَنْهُ وَلَا يَلْتَفِتُ وَلَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ . حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةً مِنَ ٱللَّيَالِي سَهِرَ ٱلْمَلِكُ سَهَرًا شَدِيدًا فَطَالَ سَهَرُهُ وَمَدَّ إِلَى ٱلْفَلَكِ بَصَرَهُ وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ ٱلْفَلَكِ وَحَرَكَاتِ ٱلْكَوَاكِبِ . فَأَغْرَقَ ٱلْفِكْرُ فِيهِ فَسَلَكَ بِهِ إِلَى ٱسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ أُمُورِ ٱلْفَلَكِ وَٱلْمَسْأَلَةِ عَنْهُ . فَذَكَرَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْدَبَا وَتَفَكَّرَ فِيمَا كَلَّمَهُ بِهِ فَٱرْعَوَى لِذٰلِكَ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ أَسَأْتُ فِيمَا صَنَعْتُ بِهٰذَا

ٱلْفَيْلَسُوفِ وَضَيَّعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ وَحَمَلَنِي عَلَى ذٰلِكَ سُرْعَةُ ٱلْغَضَبِ. فَقَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ: أَرْبَعَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي ٱلْمُلُوكِ. ٱلْغَضَبُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ ٱلْأَشْيَاءِ مَقْتًا. وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْذُورٍ مَعَ ذَاتِ يَدِهِ. وَٱلْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَاوِرَهُ. وَٱلرِّفْقُ فِي ٱلْمُحَاوَرَةِ فَإِنَّ ٱلسَّفَهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا. وَإِنِّي أَتَى إِلَيَّ رَجُلٌ نَصَحَ لِي وَلَمْ يَكُنْ بَلَّاغًا فَعَامَلْتُهُ بِضِدِّ مَا يَسْتَحِقُّ وَكَافَأْتُهُ بِخِلَافِ مَا يَسْتَوْجِبُ. وَمَا كَانَ هٰذَا جَزَاءَهُ مِنِّي بَلْ كَانَ ٱلْوَاجِبُ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ وَأَنْقَادَ لِمَا يُشِيرُ بِهِ: ثُمَّ أَنْفَذَ فِي سَاعَتِهِ مَنْ يَأْتِيهِ بِهِ

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا أَلَسْتَ ٱلَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَقْصِيرِ هِمَّتِي وَعَجَّزْتَ رَأْيِي فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آنِفًا: فَقَالَ لَهُ بَيْدَبَا: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلنَّاصِحُ ٱلشَّفِيقُ ٱلصَّادِقُ ٱلرَّفِيقُ إِنَّمَا نَبَّأْتُكَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ وَلِرَعِيَّتِكَ وَدَوَامُ مُلْكِكَ لَكَ: قَالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا أَعِدْ عَلَيَّ كَلَامَكَ كُلَّهُ وَلَا تَدَعْ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِئْتَ بِهِ: فَجَعَلَ بَيْدَبَا يَنْثُرُ كَلَامَهُ وَٱلْمَلِكُ مُصْغٍ إِلَيْهِ وَجَعَلَ دَبْشَلِيمُ كُلَّ مَا سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا يَنْكُتُ ٱلْأَرْضَ بِشَيْءٍ فِي يَدِهِ. ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى بَيْدَبَا وَأَمَرَهُ بِٱلْجُلُوسِ وَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا إِنِّي قَدِ ٱسْتَعْذَبْتُ كَلَامَكَ وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ مِنْ قَلْبِي وَأَنَا نَاظِرٌ فِي ٱلَّذِي أَشَرْتَ بِهِ وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتَ: ثُمَّ أَمَرَ بِقُيُودِهِ فَحُلَّتْ وَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِهِ وَتَلَقَّاهُ. فَقَالَ بَيْدَبَا: يَا أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ فِي دُونِ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نِهَايَةً بِمِثْلِكَ: قَالَ: صَدَقْتَ أَيُّهَا ٱلْحَكِيمُ ٱلْفَاضِلُ وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هٰذَا إِلَى جَمِيعِ أَقَاصِي مَمْلَكَتِي: فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ أَعْفِنِي مِنْ هٰذَا ٱلْأَمْرِ فَإِنِّي لَسْتُ مُضْطَلِعًا بِتَقْوِيمِهِ: فَأَعْفَاهُ مِنْ ذٰلِكَ. فَلَمَّا ٱنْصَرَفَ عَلِمَ أَنَّ ٱلَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ فَبَعَثَ فَرَدَّهُ.

وَقَالَ: إِنِّي فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ فِيمَا عَرَضْتُ عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِكَ وَلَا يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ وَلَا يَضْطَلِعُ بِهِ سِوَاكَ فَلَا تُخَالِفْنِي فِيهِ: فَأَجَابَهُ بَيْدَبَا إِلَى ذٰلِكَ

وَكَانَ عَادَةُ ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ إِذَا ٱسْتَكْتَبُوا وَزِيرًا أَنْ يَعْقِدُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا فِي أَهْلِ ٱلْمَمْلَكَةِ وَيُطَافَ بِهِ فِي ٱلْمَدِينَةِ. فَأَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ ذٰلِكَ بِبَيْدَبَا. فَوُضِعَ ٱلتَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ وَرَكِبَ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَرَجَعَ وَجَلَسَ بِمَجْلِسِ ٱلْعَدْلِ وَٱلْإِنْصَافِ يَأْخُذُ لِلدَّنِيِّ مِنَ ٱلشَّرِيفِ وَيُسَاوِي بَيْنَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلضَّعِيفِ وَرَدَّ ٱلْمَظَالِمَ وَوَضَعَ سُنَنَ ٱلْعَدْلِ وَأَكْثَرَ مِنَ ٱلْعَطَاءِ وَٱلْبَذْلِ. وَٱتَّصَلَ ٱلْخَبَرُ بِتَلَامِذَتِهِ فَجَاؤُوهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَرِحِينَ بِمَا قَدَّرَ ٱللهُ مِنْ جَدِيدِ رَأْيِ ٱلْمَلِكِ فِي بَيْدَبَا. وَشَكَرُوا ٱللهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِ بَيْدَبَا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ ٱلسِّيرَةِ. وَٱتَّخَذُوا ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ عِيدًا يُعَيِّدُونَ فِيهِ فَهُوَ إِلَى ٱلْيَوْمِ عِيدٌ عِنْدَهُمْ فِي بِلَادِ ٱلْهِنْدِ

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا لَمَّا خَلَا فِكْرُهُ مِنِ ٱشْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ تَفَرَّغَ لِوَضْعِ كُتُبِ ٱلسِّيَاسَةِ وَنَشِطَ لَهَا. فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرَةً فِيهَا مِنْ دَقِيقِ ٱلْحِيَلِ وَمَضَى ٱلْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ بَيْدَبَا مِنْ حُسْنِ ٱلسِّيرَةِ وَٱلْعَدْلِ فِي ٱلرَّعِيَّةِ. فَرَغِبَتْ إِلَيْهِ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا فِي نَوَاحِيهِ وَٱنْقَادَتْ إِلَيْهِ ٱلْأُمُورُ عَلَى ٱسْتِوَائِهَا. وَفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ. ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِذَتَهُ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُمْ وَوَعَدَهُمْ وَعْدًا جَمِيلًا وَقَالَ لَهُمْ: لَسْتُ أَشُكُّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي نُفُوسِكُمْ وَقْتَ دُخُولِي عَلَى ٱلْمَلِكِ أَنْ قُلْتُمْ إِنَّ بَيْدَبَا قَدْ ضَاعَتْ حِكْمَتُهُ وَبَطَلَتْ فِكْرَتُهُ اِنْ عَزَمَ عَلَى ٱلدُّخُولِ عَلَى هٰذَا ٱلْجَبَّارِ وَٱلطَّاغِي. فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَتِيجَةَ رَأْيِي وَصِحَّةَ

فِكْرِي وَأَنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلًا بِهِ لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ ٱلْحُكَمَاءِ قَبْلِي تَقُولُ: إِنَّ ٱلْمُلُوكَ لَهَا سَكْرَةٌ وَكَذٰلِكَ ٱلشَّبَابُ: فَٱلْمُلُوكُ لَا تُفِيقُ مِنَ ٱلسَّكْرَةِ إِلَّا بِمَوَاعِظِ ٱلْعُلَمَاءِ وَأَدَبِ ٱلْحُكَمَاءِ. وَٱلْوَاجِبُ عَلَى ٱلْمُلُوكِ أَنْ يَتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ ٱلْعُلَمَاءِ. وَٱلْوَاجِبُ عَلَى ٱلْعُلَمَاءِ تَقْوِيمُ ٱلْمُلُوكِ بِأَلْسِنَتِهَا وَتَأْدِيبِهَا بِحِكْمَتِهَا وَإِظْهَارُ ٱلْحُجَّةِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱللَّازِمَةِ لَهُمْ لِيَرْتَدِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلِاعْوِجَاجِ وَٱلْخُرُوجِ عَنِ ٱلْعَدْلِ. فَوَجَدْتُ مَا قَالَتِ ٱلْعُلَمَاءُ فَرْضًا وَاجِبًا عَلَى ٱلْحُكَمَاءِ لِمُلُوكِهِمْ لِيُوقِظُوهُمْ مِنْ سِنَةِ سَكْرَتِهِمْ كَٱلطَّبِيبِ ٱلَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ ٱلْأَجْسَادِ عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ رَدُّهَا إِلَى ٱلصِّحَّةِ. فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ أَوْ أَمُوتَ وَلَا يَبْقَى عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ بَيْدَبَا ٱلْفَيْلَسُوفُ فِي زَمَانِ دَبْشَلِيمَ ٱلطَّاغِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُ كَلَامُهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ فَٱلْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جِوَارِهِ وَٱلِانْزِعَاجُ عَنِ ٱلْوَطَنِ شَدِيدٌ. فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُودَ بِحَيَاتِي فَأَكُونَ قَدْ أَتَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْحُكَمَاءِ بَعْدِي عُذْرًا فَحَمَلْتُهَا عَلَى ٱلتَّغْرِيرِ وَٱلظَّفَرِ بِمَا أُرِيدُهُ. وَكَانَ مِنْ ذٰلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَايِنُوهُ. فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْثَالِ: إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ. إِمَّا بِمَشَقَّةٍ تَنَالُهُ فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا بِوَضِيعَةٍ فِي مَالِهِ أَوْ وَكْسٍ فِي دِينِهِ: مَنْ لَمْ يَرْكَبِ ٱلْأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ ٱلرَّغَائِبَ. وَإِنَّ ٱلْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ بَسَطَ لِسَانِي فِي أَنْ أَضَعَ كِتَابًا فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ ٱلْحِكْمَةِ. فَلْيَضَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي أَيِّ فَنٍّ شَاءَ وَلْيَعْرِضْهُ عَلَيَّ لِأَنْظُرَ مِقْدَارَ عَقْلِهِ وَأَيْنَ بَلَغَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ فَهْمُهُ: قَالُوا: أَيُّهَا ٱلْحَكِيمُ ٱلْفَاضِلُ وَٱللَّبِيبُ ٱلْعَاقِلُ وَٱلَّذِي وَهَبَ لَكَ مَا مَنَحَكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْأَدَبِ وَٱلْفَضِيلَةِ مَا خَطَرَ هٰذَا

بِقُلُوبِنَا قَطُّ وَأَنْتَ رَئِيسُنَا وَفَاضِلُنَا وَعَلَى يَدِكَ أُنْعِشْنَا وَلٰكِنْ سَنَجْهَدُ أَنْفُسَنَا فِيمَا أَمَرْتَ

وَمَكَثَ ٱلْمَلِكُ عَلَى ذٰلِكَ مِنْ حُسْنِ ٱلسِّيرَةِ زَمَانًا يَتَوَلَّى ذٰلِكَ لَهُ بَيْدَبَا وَيَقُومُ بِهِ. ثُمَّ إِنَّ ٱلْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا ٱسْتَقَرَّ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَسَقَطَ عَنْهُ ٱلنَّظَرُ فِي أُمُورِ ٱلْأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ ذٰلِكَ بَيْدَبَا صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِي وَضَعَتْهَا فَلَاسِفَةُ ٱلْهِنْدِ لِآبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ. فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيْضًا كِتَابٌ مَشْرُوحٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ تُذْكَرُ فِيهِ أَيَّامُهُ كَمَا ذُكِرَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ. فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذٰلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقُومُ بِذٰلِكَ إِلَّا بَيْدَبَا فَدَعَاهُ وَخَلَا بِهِ وَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا إِنَّكَ حَكِيمُ ٱلْهِنْدِ وَفَيْلَسُوفُهَا وَإِنِّي فَكَّرْتُ وَنَظَرْتُ فِي خَزَائِنِ ٱلْحِكْمَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ لِلْمُلُوكِ قَبْلِي فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ أَحَدًا إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَيَّامَهُ وَسِيرَتَهُ وَيُنْبِئُ عَنْ أَدَبِهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ. فَمِنْهُ مَا وَضَعَهُ ٱلْمُلُوكُ لِأَنْفُسِهَا وَذٰلِكَ لِفَضْلِ حِكْمَةٍ فِيهَا. وَمِنْهُ مَا وَضَعَتْهُ حُكَمَاؤُهَا. وَأَخَافُ أَنْ يَلْحَقَنِي مَا لَحِقَ أُولٰئِكَ مِمَّا لَا حِيلَةَ لِي فِيهِ وَلَا يُوجَدَ فِي خَزَائِنِي كِتَابٌ أُذْكَرُ فِيهِ بَعْدِي وَأُنْسَبُ إِلَيْهِ كَمَا ذُكِرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي بِكُتُبِهِمْ. وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتَابًا بَلِيغًا تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَكَ. يَكُونُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ ٱلْعَامَّةِ وَتَأْدِيبَهَا وَبَاطِنُهُ أَخْلَاقَ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَتَهَا لِلرَّعِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ ٱلْمَلِكِ وَخِدْمَتِهِ فَيَسْقُطَ بِذٰلِكَ عَنِّي وَعَنْهُمْ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ ٱلْمُلْكِ. وَأُرِيدُ أَنْ يَبْقَى لِي هٰذَا ٱلْكِتَابُ بَعْدِي ذِكْرًا عَلَى غَابِرِ ٱلدُّهُورِ.

فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا كَلَامَهُ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلسَّعِيدُ جَدُّهُ عَلَا نَجْمُكَ وَغَابَ نَحْسُكَ وَدَامَتْ أَيَّامُكَ. إِنَّ ٱلَّذِي قَدْ

طُبِعَ عَلَيْهِ ٱلْمَلِكُ مِنْ جُودَةِ ٱلْقَرِيحَةِ وَوُفُورِ ٱلْعَقْلِ حَرَّكَهُ لِعَالِي ٱلْأُمُورِ وَسَمَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهِمَّتُهُ إِلَى أَشْرَفِ ٱلْمَرَاتِبِ مَنْزِلَةً وَأَبْعَدِهَا غَايَةً. وَأَدَامَ ٱللهُ سَعَادَةَ ٱلْمَلِكِ وَأَعَانَهُ عَلَى مَا عَزَمَ مِنْ ذٰلِكَ وَأَعَانَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ. فَلْيَأْمُرِ ٱلْمَلِكُ بِمَا شَاءَ مِنْ ذٰلِكَ فَإِنِّي صَائِرٌ إِلَى غَرَضِهِ مُجْتَهِدٌ فِيهِ بِرَأْيِي: قَالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا لَمْ تَزَلْ مَوْصُوفًا بِحُسْنِ ٱلرَّأْيِ وَطَاعَةِ ٱلْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ. وَقَدِ ٱخْتَبَرْتُ مِنْكَ ذٰلِكَ وَٱخْتَرْتُ أَنْ تَضَعَ هٰذَا ٱلْكِتَابَ وَتُعْمِلَ فِيهِ فِكْرَكَ وَتَجْهَدَ فِيهِ نَفْسَكَ بِغَايَةِ مَا تَجِدُ إِلَيْهِ ٱلسَّبِيلَ. وَلْيَكُنْ مُشْتَمِلًا عَلَى ٱلْجِدِّ وَٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَٱلْحِكْمَةِ وَٱلْفَلْسَفَةِ: فَكَفَّرَ لَهُ بَيْدَبَا وَسَجَدَ وَقَالَ: قَدْ أَجَبْتُ ٱلْمَلِكَ أَدَامَ ٱللهُ أَيَّامَهُ إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ وَقَدْ جَعَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَجَلًا: قَالَ: وَكَمْ هُوَ ٱلْأَجَلُ: قَالَ: سَنَةٌ: قَالَ: قَدْ أَجَّلْتُكَ: وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ ٱلْكِتَابِ

فَبَقِيَ بَيْدَبَا مُفَكِّرًا فِي ٱلْأَخْذِ فِيهِ وَفِي أَيِّ صُورَةٍ يَبْتَدِئُ فِيهِ وَفِي وَضْعِهِ. ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِذَتَهُ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ ٱلْمَلِكَ قَدْ نَدَبَنِي لِأَمْرٍ فِيهِ فَخْرِي وَفَخْرُكُمْ وَفَخْرُ بِلَادِكُمْ وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهٰذَا ٱلْأَمْرِ: ثُمَّ وَصَفَ لَهُمْ مَا سَأَلَ ٱلْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْغَرَضِ ٱلَّذِي قَصَدَ فِيهِ فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ. فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُهُ فَكَّرَ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ وَعَلِمَ أَنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ يَتِمُّ بِٱسْتِفْرَاغِ ٱلْعَقْلِ وَإِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ وَقَالَ: أَرَى ٱلسَّفِينَةَ لَا تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ إِلَّا بِٱلْمَلَّاحِينَ لِأَنَّهُمْ يُعَدِّلُونَهَا وَإِنَّمَا تَسْلُكُ ٱللُّجَّةَ بِمُدَبِّرِهَا ٱلَّذِي تَفَرَّدَ بِإِمْرَتِهَا. وَمَتَى شُحِنَتْ بِٱلرُّكَّابِ ٱلْكَثِيرِينَ وَكَثُرَ مَلَّاحُوهَا لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهَا مِنَ ٱلْغَرَقِ: وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيمَا يَعْمَلُهُ فِي بَابِ ٱلْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى ٱلْإِنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ مَعَ

رَجُلٍ مِنْ تَلَامِذَتِهِ كَانَ يَثِقُ بِهِ فَخَلَا بِهِ مُنْفَرِدًا بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ الْوَرَقِ الَّذِي تَكْتُبُ الْهِنْدُ فِيهِ شَيْئًا وَمِنَ الْقُوتِ مَا يَقُومُ بِهِ هُوَ وَتِلْمِيذُهُ تِلْكَ الْمُدَّةَ. وَجَلَسَا فِي مَقْصُورَةٍ وَرَدَّا عَلَيْهِمَا الْبَابَ. ثُمَّ بَدَأَ فِي نَظْمِ الْكِتَابِ وَتَصْنِيفِهِ وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يُمْلِي وَتِلْمِيذُهُ يَكْتُبُ وَيَرْجِعُ هُوَ فِيهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْكِتَابُ عَلَى غَايَةِ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْكَامِ. وَرَتَّبَ فِيهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَابًا كُلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ فِيهِ حَظٌّ. وَضَمَّنَ تِلْكَ الْأَبْوَابَ كِتَابًا وَاحِدًا وَسَمَّاهُ كِتَابَ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ. ثُمَّ جَعَلَ كَلَامَهُ عَلَى أَلْسُنِ الْبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ وَالطَّيْرِ لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لَهْوًا لِلْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ وَبَاطِنُهُ رِيَاضَةً لِعُقُولِ الْخَاصَّةِ. وَضَمَّنَهُ أَيْضًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ يَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ. ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا كَرَسْمِ سَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي بِرَسْمِ الْحِكْمَةِ. فَصَارَ الْحَيَوَانُ لَهْوًا وَمَا يَنْطِقُ بِهِ حِكَمًا وَأَدَبًا. فَلَمَّا ابْتَدَأَ بَيْدَبَا بِذَلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ الْكِتَابِ وَصْفَ الصَّدِيقِ وَكَيْفَ يَكُونُ صَدِيقَانِ وَكَيْفَ تُقْطَعُ الْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمَا بِحِيلَةِ ذِي النَّمِيمَةِ. وَأَمَرَ تِلْمِيذَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى لِسَانِ بَيْدَبَا مِثْلَ مَا كَانَ الْمَلِكُ شَارَطَهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ لَهْوًا وَحِكْمَةً. فَذَكَرَ بَيْدَبَا أَنَّ الْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلَامُ الْغَفَلَةِ أَفْسَدَهَا وَاسْتَجْهَلَ حِكْمَتَهَا. فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتِلْمِيذُهُ يُعْمِلَانِ الْفِكْرَ فِيمَا سَأَلَهُ الْمَلِكُ حَتَّى فَتَقَ لَهُمَا الْعَقْلُ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمَا عَلَى لِسَانِ بَهِيمَتَيْنِ. فَوَقَعَ لَهُمَا مَوْضِعُ اللَّهْوِ وَالْهَزْلِ بِكَلَامِ الْبَهَائِمِ وَكَانَتِ الْحِكْمَةُ مَا نَطَقَا بِهِ. فَأَصْغَتِ الْحُكَمَاءُ إِلَى حِكْمَتِهِ وَتَرَكُوا الْبَهَائِمَ وَاللَّهْوَ وَعَلِمُوا أَنَّهَا السَّبَبُ فِي

ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ. وَمَالَتْ إِلَيْهِ ٱلْجُهَّالُ عَجَبًا مِنْ مُحَاوَرَةِ بَهِيمَتَيْنِ وَلَمْ يَشْكُوا فِي ذَٰلِكَ وَٱتَّخَذُوهُ لَهْوًا وَتَرَكُوا مَعْنَى ٱلْكَلَامِ أَنْ يَفْهَمُوهُ وَلَمْ يَعْلَمُوا ٱلْغَرَضَ ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ. لِأَنَّ ٱلْفَيْلَسُوفَ إِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ فِي ٱلْبَابِ ٱلْأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ تَوَاصُلِ ٱلْإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُ ٱلْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمْ عَلَى ٱلتَّحَفُّظِ مِنْ أَهْلِ ٱلسِّعَايَةِ وَٱلتَّحَرُّزِ مِمَّنْ يُوقِعُ ٱلْعَدَاوَةَ بَيْنَ ٱلْمُتَحَابِّينَ لِيَجُرَّ بِذَٰلِكَ نَفْعًا إِلَى نَفْسِهِ

فَلَمْ يَزَلْ بَيْدَبَا وَتِلْمِيذُهُ فِي ٱلْمَقْصُورَةِ حَتَّى ٱسْتَتَمَّ عَمَلَ ٱلْكِتَابِ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ. فَلَمَّا تَمَّ ٱلْحَوْلُ أَنْفَذَ إِلَيْهِ ٱلْمَلِكُ: أَنْ قَدْ جَاءَ ٱلْوَعْدُ فَمَاذَا صَنَعْتَ: فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ بَيْدَبَا: إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ ٱلْمَلِكَ فَلْيَأْمُرْنِي بِحَمْلِهِ بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلَ ٱلْمَمْلَكَةِ لِتَكُونَ قِرَاءَتِي هٰذَا ٱلْكِتَابَ بِحَضْرَتِهِمْ: فَلَمَّا رَجَعَ ٱلرَّسُولُ إِلَى ٱلْمَلِكِ سُرَّ بِذَٰلِكَ وَوَعَدَهُ يَوْمًا يَجْمَعُ فِيهِ أَهْلَ ٱلْمَمْلَكَةِ، ثُمَّ نَادَى فِي أَقَاصِي بِلَادِ ٱلْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا قِرَاءَةَ ٱلْكِتَابِ. فَلَمَّا كَانَ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ أَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِبَيْدَبَا سَرِيرٌ مِثْلُ سَرِيرِهِ وَكَرَاسِيُّ لِأَبْنَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُ. فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَامَ فَلَبِسَ ٱلثِّيَابَ ٱلَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا إِذَا دَخَلَ عَلَى ٱلْمُلُوكِ وَهِيَ ٱلْمُسُوحُ ٱلسُّودُ وَحَمَلَ ٱلْكِتَابَ تِلْمِيذُهُ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى ٱلْمَلِكِ وَثَبَ ٱلْخَلَائِقُ بِأَجْمَعِهِمْ وَقَامَ ٱلْمَلِكُ شَاكِرًا. فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ ٱلْمَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ. قَالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا ٱرْفَعْ رَأْسَكَ فَإِنَّ هٰذَا يَوْمُ هَنَاءٍ وَفَرَحٍ وَسُرُورٍ: وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِسَ، فَحِينَ جَلَسَ لِقِرَاءَةِ ٱلْكِتَابِ. سَأَلَهُ ٱلْمَلِكُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْكِتَابِ وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصَدَ فِيهِ. فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ. فَٱزْدَادَ

ٱلْمَلِكُ مِنْهُ تَعَجُّبًا وَسُرُورًا فَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا مَا عَدَوْتَ ٱلَّذِي فِي نَفْسِي وَهٰذَا ٱلَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ فَٱطْلُبْ مَا شِئْتَ وَتَحَكَّمْ: فَدَعَا لَهُ بَيْدَبَا بِٱلسَّعَادَةِ وَطُولِ ٱلْجَدِّ وَقَالَ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ أَمَّا ٱلْمَالُ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. وَأَمَّا ٱلْكُسْوَةُ فَلَا أَخْتَارُ عَلَى لِبَاسِي هٰذَا شَيْئًا وَلَسْتُ أُخْلِي ٱلْمَلِكَ مِنْ حَاجَةٍ: قَالَ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا مَا حَاجَتُكَ. فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا مَقْضِيَّةٌ. قَالَ: يَأْمُرُ ٱلْمَلِكُ أَنْ يُدَوَّنَ كِتَابِي هٰذَا كَمَا دَوَّنَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ كُتُبَهُمْ وَيَأْمُرُ بِٱلِاحْتِيَاطِ عَلَيْهِ. فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بِلَادِ ٱلْهِنْدِ فَيَتَنَاوَلَهُ أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ. فَلْيَأْمُرِ ٱلْمَلِكُ أَنْ لَا يُخْرَجَ مِنْ بَيْتِ ٱلْحِكْمَةِ: ثُمَّ دَعَا ٱلْمَلِكُ بِتَلَامِذَتِهِ وَأَحْسَنَ لَهُمُ ٱلْجَوَائِزَ. ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا مَلَكَ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانُ وَكَانَ مُسْتَبْشِرًا بِٱلْكُتُبِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْأَدَبِ وَٱلنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ ٱلْأَوَائِلِ وَقَعَ لَهُ خَبَرُ ٱلْكِتَابِ فَلَمْ يَقِرَّ قَرَارُهُ حَتَّى بَعَثَ بُرْزُوَيْهِ ٱلطَّبِيبَ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ بِلَادِ ٱلْهِنْدِ فَأَقَرَّهُ فِي خَزَائِنِ فَارِسَ

نُخْبَة

مِنْ كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ

فِي بَعْثَةِ بُرْزُويَهِ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ

وَقَدْ رَزَقَ اللّٰهُ الْمَلِكَ السَّعِيدَ أَنُوشِرْوَانَ مِنَ الْعَقْلِ أَفْضَلَهُ وَمِنَ الْعِلْمِ أَجْزَلَهُ وَمِنَ الْمَعْرِفَةِ بِالْأُمُورِ أَصْوَبَهَا وَسَدَّدَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ أَسَدَّهَا وَمِنَ الْبَحْثِ عَنِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ أَنْفَعَهُ. وَبَلَّغَهُ مِنْ فُنُونِ اخْتِلَافِ الْعِلْمِ وَبُلُوغِ مَنْزِلَةِ الْفَلْسَفَةِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ مَلِكٌ قَطُّ مِنَ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ. حَتَّى كَانَ فِي مَا طَلَبَ وَبَحَثَ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ بَلَغَهُ عَنْ كِتَابٍ بِالْهِنْدِ عُلِمَ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ وَالدَّلِيلُ عَلَى كُلِّ مَنْفَعَةٍ. فَأَمَرَ الْمَلِكُ وَزِيرَهُ بُزُرْجُمْهَرَ أَنْ يَبْحَثَ لَهُ عَنْ رَجُلٍ أَدِيبٍ عَاقِلٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ بَصِيرٍ بِلِسَانِ الْفَارِسِيَّةِ مَاهِرٍ فِي كَلَامِ الْهِنْدِ وَيَكُونُ بَلِيغًا بِاللِّسَانَيْنِ جَمِيعًا. حَرِيصًا عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ مُجْتَهِدًا فِي اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ مُبَادِرًا فِي الْعِلْمِ وَالْبَحْثِ عَنْ كُتُبِ الْفَلْسَفَةِ. فَأَتَاهُ بِرَجُلٍ أَدِيبٍ كَامِلِ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ مَعْرُوفٍ بِصِنَاعَةِ الطِّبِّ مَاهِرٍ فِي الْفَارِسِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ يُقَالُ لَهُ بُرْزُويَهِ

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا بُرْزُويَهِ إِنِّي قَدِ اخْتَرْتُكَ لِمَا بَلَغَنِي مِنْ فَضْلِكَ وَعِلْمِكَ وَعَقْلِكَ وَحِرْصِكَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَيْثُ كَانَ. وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ كِتَابٍ بِالْهِنْدِ مَخْزُونٍ فِي خَزَائِنِهِمْ: وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا بَلَغَهُ عَنْهُ وَقَالَ لَهُ: تَجَهَّزْ فَإِنِّي مُرَحِّلُكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ فَتَلَطَّفْ بِعَقْلِكَ وَحُسْنِ أَدَبِكَ وَنَافِذِ رَأْيِكَ لِاسْتِخْرَاجِ هٰذَا الْكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِمْ وَقِبَلِ عُلَمَائِهِمْ فَتَسْتَفِيدَ مِنْ ذٰلِكَ وَتُفِيدَنَا. وَمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ

الهِنْدِ مَا لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَاحْمِلْهُ مَعَكَ وَخُذْ مَعَكَ مِنَ المَالِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَعَجِّلْ ذٰلِكَ وَلَا تُقَصِّرْ فِي طَلَبِ العُلُومِ . وَإِنْ أَكْثَرْتَ فِيهِ النَّفَقَةَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِي مَبْذُولٌ لَكَ فِي طَلَبِ العُلُومِ. وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ المُنَجِّمِينَ فَاخْتَارُوا لَهُ يَوْمًا يَسِيرُ فِيهِ وَسَاعَةً صَالِحَةً يَخْرُجُ فِيهَا وَحَمَلَ مَعَهُ مِنَ المَالِ عِشْرِينَ جِرَابًا كُلُّ جِرَابٍ فِيهِ عَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ

فَلَمَّا قَدِمَ بَرْزَوَيْهِ بِلَادَ الهِنْدِ طَافَ بِبَابِ المَلِكِ وَمَجَالِسِ السُّوقَةِ وَسَأَلَ عَنْ خَوَاصِّ المَلِكِ وَالأَشْرَافِ وَالعُلَمَاءِ وَالفَلَاسِفَةِ. فَجَعَلَ يَغْشَاهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَيَتَلَقَّاهُمْ بِالتَّحِيَّةِ وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدِمَ بِلَادَهُمْ لِطَلَبِ العُلُومِ وَالأَدَبِ. وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مُعَاوَنَتِهِمْ فِي ذٰلِكَ . فَلَمْ يَزَلْ كَذٰلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا يَتَأَدَّبُ عَنْ عُلَمَاءِ الهِنْدِ بِمَا هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِهِ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئًا وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذٰلِكَ يَسْتُرُ بُغْيَتَهُ وَحَاجَتَهُ. وَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ الحَالَةِ لِطُولِ مُقَامِهِ أَصْدِقَاءَ كَثِيرَةً مِنَ الأَشْرَافِ وَالعُلَمَاءِ وَالفَلَاسِفَةِ وَالسُّوقَةِ وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِنَاعَةٍ .وَكَانَ قَدِ اتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ رَجُلًا وَاحِدًا قَدِ اتَّخَذَهُ لِسِرِّهِ وَمَا يُحِبُّ مُشَاوَرَتَهُ فِيهِ لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ وَاسْتَبَانَ لَهُ صِحَّةُ إِخَائِهِ وَكَانَ يُشَاوِرُهُ فِي الأُمُورِ وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ مَا أَهَمَّهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ مِنْهُ الأَمْرَ الَّذِي قَدِمَ مِنْ أَجْلِهِ لِكَيْ يَبْلُوَهُ وَيَخْتَبِرَهُ وَيَنْظُرَ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ

فَقَالَ لَهُ يَوْمًا وَهُمَا جَالِسَانِ: يَا أَخِي مَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ أَمْرِي فَوْقَ الَّذِي كَتَمْتُكَ . فَاعْلَمْ أَنِّي لِأَمْرٍ قَدِمْتُ وَهُوَ غَيْرُ الَّذِي يَظْهَرُ مِنِّي وَالعَاقِلُ يَكْتَفِي مِنَ الرَّجُلِ بِالعَلَامَاتِ مِنْ نَظَرِهِ حَتَّى يَعْلَمَ سِرَّ نَفْسِهِ وَمَا يُضْمِرُ قَلْبُهُ

عَلَيْهِ . قَالَ لَهُ ٱلْهِنْدِيُّ : إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ بَدَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا جِئْتَ لَهُ وَإِيَّاهُ تُرِيدُ وَأَنَّكَ تَكْتُمُ أَمْرًا تَطْلُبُهُ وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ . فَمَا خَفِيَ عَلَيَّ ذٰلِكَ مِنْكَ وَلٰكِنِّي لِرَغْبَتِي فِي إِخَائِكَ كَرِهْتُ أَنْ أُوَاجِهَكَ بِهِ وَأَنَّهُ قَدِ ٱسْتَبَانَ مَا تُخْفِيهِ مِنِّي . فَأَمَّا إِذْ قَدْ أَظْهَرْتَ ذٰلِكَ وَأَفْصَحْتَ بِهِ وَبِٱلْكَلَامِ فِيهِ فَإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ نَفْسِكَ وَمُظْهِرٌ لَكَ سَرِيرَتَكَ وَمُعْلِمُكَ بِحَالِكَ ٱلَّتِي قَدِمْتَ لَهَا بِلَادَنَا لِتَسْلُبَنَا كُنُوزَنَا ٱلنَّفِيسَةَ فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلَادِكَ وَتَسُرَّ بِهَا مَلِكَكَ وَكَانَ قُدُومُكَ بِٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ . وَلٰكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ وَمُوَاظَبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ وَٱلتَّحَفُّظَ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ مِنْكَ ٱلْكَلَامُ مَعَ طُولِ مُكْثِكَ عِنْدَنَا بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سَرِيرَتِكَ وَأُمُورِكَ ٱزْدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِخَائِكَ وَثِقَةً بِعَقْلِكَ فَأَحْبَبْتُ مَوَدَّتَكَ . فَإِنِّي لَمْ أَرَ فِي ٱلرِّجَالِ رَجُلًا هُوَ أَرْصَنُ مِنْكَ عَقْلًا وَلَا أَحْسَنُ أَدَبًا وَلَا أَصْبَرُ عَلَى طَلَبِ ٱلْعِلْمِ وَلَا أَكْتَمُ لِسِرِّهِ مِنْكَ وَلَا سِيَّمَا فِي بِلَادِ غُرْبَةٍ وَمَمْلَكَةِ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ وَعِنْدَ قَوْمٍ لَا تَعْرِفُ سُنَنَهُمْ . وَإِنَّ عَقْلَ ٱلرَّجُلِ لَيَبِينُ فِي ثَمَانِي خِصَالٍ ٱلْأُولَى مِنْهَا ٱلرِّفْقُ . وَٱلثَّانِيَةُ أَنْ يَعْرِفَ ٱلرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا . وَٱلثَّالِثَةُ طَاعَةُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلتَّحَرِّي لِمَا يُرْضِيهِمْ . وَٱلرَّابِعَةُ مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلِعَ عَلَيْهِ صَدِيقَهُ . وَٱلْخَامِسَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوَابِ ٱلْمُلُوكِ أَدِيبًا مَلِقَ ٱللِّسَانِ . وَٱلسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظًا . وَٱلسَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى لِسَانِهِ قَادِرًا فَلَا يَتَكَلَّمَ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ . وَٱلثَّامِنَةُ أَنْ يَكُونَ بِٱلْمَحْفِلِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يُسْأَلُ عَنْهُ . فَمَنِ ٱجْتَمَعَتْ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ كَانَ هُوَ ٱلدَّاعِيَ ٱلْخَيْرَ إِلَى نَفْسِهِ وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ كُلُّهَا قَدِ ٱجْتَمَعَتْ

فِيكَ وَبَانَتْ لِي مِنْكَ. فَٱللهُ تَعَالَى يَحْفَظُكَ وَيُعِينُكَ عَلَى مَا قَدِمْتَ لَهُ فَمُصَادَقَتُكَ إِيَّايَ لِتَسْلُبنِي كَنْزِي وَفَخْرِي وَعِلْمِي. فَإِنَّكَ أَهْلٌ لِأَنْ تُسْعِفَ بِحَاجَتِكَ وَتُشَفَّعَ بِطَلِبَتِكَ وَتُعْطَى سُؤْلَكَ

فَقَالَ لَهُ بَرْزُوَيْهِ: إِنِّي قَدْ كُنْتُ هَيَّأْتُ كَلَامًا كَثِيرًا وَشَعَّبْتُ لَهُ شُعُوبًا وَأَنْشَأْتُ لَهُ أُصُولًا وَطُرُقًا. فَلَمَّا ٱنْتَهَيْتُ إِلَى مَا بَدَأْتَنِي بِهِ مِنِ ٱطِّلَاعِكَ عَلَى أَمْرِي وَٱلَّذِي قَدِمْتُ لَهُ وَأَلْقَيْتَهُ عَلَيَّ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ وَرَغْبَتِكَ فِي مَا أَلْقَيْتَ مِنَ ٱلْقَوْلِ ٱكْتَفَيْتُ بِٱلْيَسِيرِ مِنَ ٱلْخِطَابِ مَعَكَ وَعَرَفْتُ ٱلْكَثِيرَ مِنْ أُمُورِي بِٱلصَّغِيرِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَٱقْتَصَرْتُ بِهِ مَعَكَ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعَافِكَ إِيَّايَ بِحَاجَتِي مَا دَلَّنِي عَلَى كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَفَائِكَ. فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا أُلْقِيَ إِلَى ٱلْفَيْلَسُوفِ وَٱلسِّرَّ إِذَا ٱسْتُودِعَ إِلَى ٱللَّبِيبِ ٱلْحَافِظِ فَقَدْ حُصِّنَ وَبَلَغَ بِهِ نِهَايَةَ أَمَلِ صَاحِبِهِ كَمَا يُحَصَّنُ ٱلشَّيْءُ ٱلنَّفِيسُ فِي ٱلْقِلَاعِ ٱلْحَصِينَةِ:

قَالَ ٱلْهِنْدِيُّ: لَا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْمَوَدَّةِ وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كَانَ أَهْلًا أَنْ يَخْلِطَهُ ٱلرَّجُلُ بِنَفْسِهِ وَلَا يَدَّخِرَ عَنْهُ شَيْئًا وَلَا يَكْتُمَهُ سِرًّا. فَإِنَّ حِفْظَ ٱلسِّرِّ رَأْسُ ٱلْأَدَبِ فَإِذَا كَانَ ٱلسِّرُّ عِنْدَ ٱلْأَمِينِ ٱلْكَتُومِ فَقَدِ ٱحْتُرِزَ مِنَ ٱلتَّضْيِيعِ مَعَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ لَا يُتَكَلَّمَ بِهِ وَلَا يَنِمَّ سِرٌّ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ قَدْ عَلِمَاهُ وَتَفَاوَضَاهُ. فَإِذَا تَكَلَّمَ بِٱلسِّرِّ ٱثْنَانِ فَلَا بُدَّ مِنْ ثَالِثٍ مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا أَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْآخَرِ فَإِذَا صَارَ إِلَى ٱلثَّلَاثَةِ فَقَدْ شَاعَ وَذَاعَ حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ صَاحِبُهُ أَنْ يَجْحَدَهُ وَيُكَابِرَ عَنْهُ كَٱلْغَيْمِ إِذَا كَانَ مُتَقَطِّعًا فِي ٱلسَّمَاءِ. فَقَالَ قَائِلٌ غَيْمٌ مُتَقَطِّعٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ. وَأَنَا فَقَدْ يُدَاخِلُنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَخُلْطَتِكَ سُرُورٌ لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ. وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي تَطْلُبُهُ مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ

مِنَ ٱلْأَسْرَارِ ٱلَّتِي لَا تُكْتَمُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْشُوَ وَيَظْهَرَ حَتَّى يَتَحَدَّثَ بِهِ ٱلنَّاسُ. فَإِذَا فَشَا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلَاكِي هَلَاكًا لَا أَقْدِرُ عَلَى ٱلْفِدَاءِ مِنْهُ بِٱلْمَالِ وَإِنْ كَثُرَ. لِأَنَّ مَلِكَنَا فَظٌّ غَلِيظٌ يُعَاقِبُ عَلَى ٱلذَّنْبِ ٱلصَّغِيرِ أَشَدَّ ٱلْعِقَابِ فَكَيْفَ مِثْلُ هٰذَا ٱلذَّنْبِ ٱلْعَظِيمِ وَإِذَا حَمَلَتْنِي ٱلْمَوَدَّةُ ٱلَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَأَسْعَفْتُكَ بِحَاجَتِكَ لَمْ يَرُدَّ عِقَابَهُ عَنِّي شَيْءٌ

قَالَ بَرْزُوَيْهِ: إِنَّ ٱلْعُلَمَاءَ قَدْ مَدَحَتِ ٱلصَّدِيقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ وَأَعَانَهُ عَلَى ٱلْفَوْزِ وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي قَدِمْتُ لَهُ لِمِثْلِكَ ذَخَرْتُهُ وَبِكَ أَرْجُو بُلُوغَهُ وَأَنَا وَاثِقٌ بِكَرَمِ طِبَاعِكَ وَوُفُورِ عَقْلِكَ وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَخْشَى مِنِّي وَلَا تَخَافُ أَنْ أُبْدِيَهُ بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَيْتِكَ ٱلطَّائِفِينَ بِكَ وَبِٱلْمَلِكِ أَنْ يَسْعَوْا بِكَ. وَأَنَا أَرْجُو أَنْ لَا يَشِيعَ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلْأَمْرِ لِأَنِّي أَنَا ظَاعِنٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ وَمَا أَقَمْتُ فَلَا ثَالِثَ بَيْنَنَا. فَتَعَاهَدَا عَلَى هٰذَا جَمِيعًا: فَأَجَابَهُ ٱلْهِنْدِيُّ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْكِتَابِ وَإِلَى غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكُتُبِ فَأَكَبَّ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَنَقْلِهِ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ وَأَتْعَبَ نَفْسَهُ وَأَنْصَبَ بَدَنَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ وَجِلٌ وَفَزِعٌ مِنْ مَلِكِ ٱلْهِنْدِ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ ٱلْمَلِكُ ٱلْكِتَابَ فِي وَقْتٍ وَلَا يُصَادِفَهُ فِي خِزَانَتِهِ

فَلَمَّا فَرَغَ مِنِ ٱنْتِسَاخِ ٱلْكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرَادَ مِنْ سَائِرِ ٱلْكُتُبِ كَتَبَ إِلَى أَنُوشِرْوَانَ يُعْلِمُهُ بِذٰلِكَ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ ٱلْكِتَابُ سُرَّ بِذٰلِكَ سُرُورًا شَدِيدًا. ثُمَّ تَخَوَّفَ مُعَاجَلَةَ ٱلْمَقَادِيرِ أَنْ تُنَغِّصَ عَلَيْهِ فَرَحَهُ فَكَتَبَ إِلَى بَرْزُوَيْهِ يَأْمُرُهُ بِتَعْجِيلِ ٱلْقُدُومِ. فَسَارَ بَرْزُوَيْهِ مُتَوَجِّهًا نَحْوَ كِسْرَى. فَلَمَّا رَأَى ٱلْمَلِكُ مَا قَدْ مَسَّهُ مِنَ ٱلشُّحُوبِ وَٱلتَّعَبِ وَٱلنَّصَبِ قَالَ لَهُ: أَيُّهَا ٱلْعَبْدُ ٱلنَّاصِحُ

ٱلَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ مَا قَدْ غَرَسَ أَبْشِرْ وَقِرَّ عَيْنًا فَإِنِّي مُشَرِّفُكَ بَالِغٌ بِكَ أَفْضَلَ دَرَجَةٍ: وَأَمَرَ أَنْ يُرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ

فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلسَّابِعُ أَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ يَجْتَمِعَ إِلَيْهِ ٱلْأُمَرَاءُ وَٱلْعُلَمَاءُ. فَلَمَّا ٱجْتَمَعُوا أَمَرَ بُرْزُوِيهِ بِٱلْحُضُورِ فَحَضَرَ وَمَعَهُ ٱلْكُتُبُ فَفَتَحَهَا وَقَرَأَهَا عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَمْلَكَةِ. فَلَمَّا سَمِعُوا مَا فِيهَا مِنَ ٱلْعِلْمِ فَرِحُوا فَرَحًا شَدِيدًا وَشَكَرُوا ٱللهَ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ وَمَدَحُوا بُرْزُوِيهِ وَأَثْنَوْا عَلَيْهِ وَأَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ تُفْتَحَ لِبُرْزُوِيهِ خَزَائِنُ ٱللُّؤْلُؤِ وَٱلزَّبَرْجَدِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَأَمَرَ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ ٱلْخَزَائِنِ مَا شَاءَ مِنْ مَالٍ وَكِسْوَةٍ وَقَالَ: يَا بُرْزُوِيهِ إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى مِثْلِ سَرِيرِي هٰذَا وَتَلْبَسَ تَاجًا وَتَتَرَأَّسَ عَلَى جَمِيعِ ٱلْأَشْرَافِ: فَسَجَدَ بُرْزُوِيهِ لِلْمَلِكِ وَدَعَا لَهُ وَطَلَبَ مِنَ ٱللهِ وَقَالَ: أَكْرَمَ ٱللهُ تَعَالَى ٱلْمَلِكَ كَرَامَةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَحْسَنَ عَنِّي ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ. فَإِنِّي بِحَمْدِ ٱللهِ مُسْتَغْنٍ عَنِ ٱلْمَالِ بِمَا رَزَقَنِي ٱللهُ عَلَى يَدِ ٱلْمَلِكِ ٱلسَّعِيدِ ٱلْجَدِّ ٱلْعَظِيمِ ٱلْمُلْكِ وَلَا حَاجَةَ لِي بِٱلْمَالِ. لٰكِنْ لَمَّا كَلَّفَنِي ذٰلِكَ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى ٱلْخَزَائِنِ فَآخُذَ مِنْهَا طَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ وَٱمْتِثَالًا لِأَمْرِهِ: ثُمَّ قَصَدَ خِزَانَةَ ٱلثِّيَابِ فَأَخَذَ مِنْهَا تُحَفًا مِنْ طَرَائِفِ خُرَاسَانَ وَمِنْ مَلَابِسِ ٱلْمُلُوكِ

فَلَمَّا قَبَضَ بُرْزُوِيهِ مَا ٱخْتَارَهُ وَرَضِيَهُ مِنَ ٱلثِّيَابِ قَالَ: أَكْرَمَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ وَمَدَّ فِي عُمْرِهِ أَبَدَ ٱلْآبِدِ. إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا أُكْرِمَ وَجَبَ عَلَيْهِ ٱلشُّكْرُ وَإِنْ كَانَ قَدِ ٱسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً فَقَدْ كَانَ فِيهِمَا رِضَاءُ ٱلْمَلِكِ. وَأَمَّا أَنَا فَمَا لَقِيتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ ٱلشَّرَفَ يَا أَهْلَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هٰذَا ٱلْيَوْمِ تَابِعًا رِضَاكُمْ أَرَى ٱلْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا

وَٱلشَّاقَّ هَيِّنًا وَٱلنَّصَبَ وَٱلْأَذَى سُرُورًا وَلَذَّةً لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضًى وَقُرْبَةً عِنْدَكُمْ. وَلَٰكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ حَاجَةً تُسْعِفُنِي بِهَا وَتُعْطِينِي فِيهَا سُؤْلِي فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ وَفِي قَضَائِهَا فَائِدَةٌ كَثِيرَةٌ: قَالَ أَنُوشَرْوَانُ: فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا مَقْضِيَّةٌ فَإِنَّكَ عِنْدَنَا عَظِيمٌ وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا وَلَمْ نَرُدَّ طَلِبَتَكَ فَكَيْفَ مَا سِوَى ذَٰلِكَ فَقُلْ وَلَا تَحْتَشِمْ فَإِنَّ ٱلْأُمُورَ كُلَّهَا مَبْذُولَةٌ لَكَ

قَالَ بُرْزُويَهِ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ لَا تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي فِي رِضَاكَ وَٱنْكِمَاشِي فِي طَاعَتِكَ. فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزَمُنِي بَذْلُ مُهْجَتِي فِي رِضَاكَ وَلَوْ لَمْ تَجْزِنِي لَمْ يَكُنْ ذَٰلِكَ عِنْدِي عَظِيمًا وَلَا وَاجِبًا عَلَى ٱلْمَلِكِ. وَلَٰكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدَ إِلَى مُجَازَاتِي وَخَصَّنِي وَأَهْلَ بَيْتِي بِعُلُوِّ ٱلْمَرْتَبَةِ وَرَفْعِ ٱلدَّرَجَةِ حَتَّى لَوْ قَدَرَ أَنْ يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَفَعَلَ فَجَزَاهُ ٱللّٰهُ عَنَّا أَفْضَلَ ٱلْجَزَاءِ: قَالَ أَنُوشَرْوَانُ: ٱذْكُرْ حَاجَتَكَ فَعَلَيَّ مَا يَسُرُّكَ: فَقَالَ بُرْزُويَهِ: حَاجَتِي أَنْ يَأْمُرَ ٱلْمَلِكُ أَعْلَاهُ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَزِيرَهُ بُزُرْجُمْهَرَ بْنَ ٱلْبَخْتَكَانِ وَيُقْسِمَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمِلَ فِكْرَهُ وَيَجْمَعَ رَأْيَهُ وَيَجْهَدَ طَاقَتَهُ وَيُفْرِغَ قَلْبَهُ فِي نَظْمِ تَأْلِيفِ كَلَامٍ مُتْقَنٍ مُحْكَمٍ وَيَجْعَلَهُ بَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي وَيَصِفُ حَالِي وَلَا يَدَعُ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ذَٰلِكَ أَقْصَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَأْمُرُهُ إِذَا ٱسْتَتَمَّ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ ٱلْأَبْوَابِ ٱلَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ ٱلْأَسَدِ وَٱلثَّوْرِ. فَإِنَّ ٱلْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ ذَٰلِكَ فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ ٱلشَّرَفِ وَأَعْلَى ٱلْمَرَاتِبِ وَأَبْقَى لَنَا مَا لَا يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِيًا عَلَى ٱلْأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ

فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنُوشَرْوَانُ وَٱلْعُظَمَاءُ مَقَالَتَهُ وَمَا سَمَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ

مَحَبَّةِ إِبْقَاءِ ٱلذِّكْرِ وَٱسْتَحْسَنُوا طَلِبَتَهُ وَٱخْتِيَارَهُ قَالَ كِسْرَى: حُبًّا وَكَرَامَةً لَكَ يَا بُرْزُويَهُ إِنَّكَ لَأَهْلٌ أَنْ تُسْعَفَ بِحَاجَتِكَ فَمَا أَقَلَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ وَأَيْسَرَهُ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ عِنْدَكَ عَظِيمًا: ثُمَّ أَقْبَلَ أَنُوشِيرَوَانُ عَلَى وَزِيرِهِ بُزُرْجُمْهَرَ. فَقَالَ لَهُ: قَدْ عَرَفْتَ مُنَاصَحَةَ بُرْزُويَهِ لَنَا وَتَجَشُّمَهُ ٱلْمَخَاوِفَ وَٱلْمَهَالِكَ فِي مَا يُقَرِّبُهُ مِنَّا وَإِتْعَابَهُ بَدَنَهُ فِي مَا يَسُرُّنَا وَمَا أَتَى بِهِ إِلَيْنَا مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ وَمَا أَفَادَنَا ٱللهُ عَلَى يَدِهِ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْأَدَبِ ٱلْبَاقِي لَنَا فَخْرُهُ وَمَا عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنْ خَزَائِنِنَا لِنَجْزِيَهُ بِذٰلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ. فَلَمْ تَمِلْ نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ وَكَانَ بُغْيَتُهُ وَطَلِبَتُهُ مِنَّا أَمْرًا يَسِيرًا رَآهُ هُوَ ٱلثَّوَابَ مِنَّا لَهُ وَٱلْكَرَامَةَ ٱلْجَلِيلَةَ عِنْدَهُ. فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي ذٰلِكَ وَتُسْعِفَهُ بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يَسُرُّنِي وَلَا تَدَعْ شَيْئًا مِنَ ٱلِٱجْتِهَادِ وَٱلْمُبَالَغَةِ إِلَّا بَلَغْتَهُ وَإِنْ نَالَتْكَ فِيهِ مَشَقَّةٌ وَهُوَ أَنْ تَكْتُبَ بَابًا مُضَارِعًا لِتِلْكَ ٱلْأَبْوَابِ ٱلَّتِي فِي ٱلْكِتَابِ وَتَذْكُرَ فِيهِ فَضْلَ بُرْزُويَهِ وَكَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاءُ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ وَتَنْسُبَهُ إِلَيْهِ وَإِلَى حَسَبِهِ وَصِنَاعَتِهِ وَتَذْكُرَ فِيهِ بَعْثَتَهُ إِلَى بِلَادِ ٱلْهِنْدِ فِي حَاجَتِنَا وَمَا أُفِدْنَا عَلَى يَدِهِ مِنْ هُنَاكَ وَشُرِّفْنَا بِهِ وَفُضِّلْنَا عَلَى غَيْرِنَا وَكَيْفَ كَانَ حَالُ بُرْزُويَهِ وَقُدُومُهُ مِنْ بِلَادِ ٱلْهِنْدِ. فَقُلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلتَّقْرِيظِ وَٱلْإِطْنَابِ فِي مَدْحِهِ وَبَالِغْ فِي ذٰلِكَ أَفْضَلَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱجْتَهِدْ فِي ذٰلِكَ ٱجْتِهَادًا يَسُرُّ بُرْزُويَهِ وَأَهْلَ ٱلْمَمْلَكَةِ. فَإِنَّ بُرْزُويَهِ أَهْلٌ لِذٰلِكَ مِنِّي وَمِنْ جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَمْلَكَةِ وَمِنْكَ أَيْضًا لِمَحَبَّتِكَ لِلْعُلُومِ. وَٱجْهَدْ أَنْ يَكُونَ غَرَضُ هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي يُنْسَبُ إِلَى بُرْزُويَهِ أَفْضَلَ مِنْ أَغْرَاضِ تِلْكَ ٱلْأَبْوَابِ عِنْدَ ٱلْخَاصِّ وَٱلْعَامِّ وَأَشَدَّ مُشَاكَلَةً بِمَجَالِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ. فَإِنَّكَ

أَسْعَدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِذٰلِكَ لِانْفِرَادِكَ بِهٰذَا الْكِتَابِ وَاجْعَلْهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ. فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْلِمْنِي لِأَجْمَعَ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ وَتَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ فَيَظْهَرَ فَضْلُكَ وَاجْتِهَادُكَ فِي مَحَبَّتِنَا فَيَكُونَ لَكَ بِذٰلِكَ فَخْرٌ

فَلَمَّا سَمِعَ بُزُرْجُمْهِرُ مَقَالَةَ الْمَلِكِ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَقَالَ: أَدَامَ اللهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَقَاءَ وَبَلَّغَكَ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى لَقَدْ شَرَّفْتَنِي بِذٰلِكَ شَرَفًا بَاقِيًا إِلَى الْأَبَدِ: ثُمَّ خَرَجَ بُزُرْجُمْهِرُ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ فَوَصَفَ بَرْزُوَيْهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَفَعَهُ أَبَوَاهُ إِلَى الْمُعَلِّمِ وَمَضِيَّهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ وَكَيْفَ تَعَلَّمَ خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أَنُوشِرْوَانُ إِلَى الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْكِتَابِ وَلَمْ يَدَعْ مِنْ فَضَائِلِ بَرْزُوَيْهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلَائِقِهِ وَمَذْهَبِهِ أَمْرًا إِلَّا وَنَسَقَهُ وَأَتَى بِهِ بِأَجْوَدِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرْحِ. ثُمَّ أَعْلَمَ الْمَلِكَ بِفَرَاغِهِ مِنْهُ. فَجَمَعَ أَنُوشِرْوَانُ أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ وَأَمَرَ بُزُرْجُمْهِرَ بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ وَبَرْزُوَيْهِ قَائِمٌ إِلَى جَانِبِ بُزُرْجُمْهِرَ وَابْتَدَأَ بِوَصْفِ بَرْزُوَيْهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ. فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِمَا أَتَى بِهِ بُزُرْجُمْهِرُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ. ثُمَّ أَثْنَى الْمَلِكُ وَجَمِيعُ مَنْ حَضَرَ عَلَى بُزُرْجُمْهِرَ وَشَكَرُوهُ وَمَدَحُوهُ وَأَمَرَ لَهُ الْمَلِكُ بِمَالٍ جَزِيلٍ وَكِسْوَةٍ وَحُلِيٍّ وَأَوَانٍ. فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذٰلِكَ شَيْئًا غَيْرَ كِسْوَةٍ كَانَتْ مِنْ ثِيَابِ الْمُلُوكِ. ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذٰلِكَ بَرْزُوَيْهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ وَأَقْبَلَ بَرْزُوَيْهِ عَلَى الْمَلِكِ وَقَالَ: أَدَامَ اللهُ لَكَ الْمُلْكَ وَالسَّعَادَةَ فَقَدْ بَلَغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ بُزُرْجُمْهِرَ مِنْ صَنْعَةِ الْكِتَابِ فِي أَمْرِي وَإِبْقَاءِ ذِكْرِي

نُخْبَةٌ
مِنْ تَارِيخِ ٱلْمُلُوكِ وَأَعْمَارِهِمْ
وَٱلْكَائِنِ ٱلَّذِي كَانَ فِي زَمَنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
تَأْلِيفِ
أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرِ بْنِ يَزِيدَ ٱلطَّبَرِيِّ

في افتتاح الشام

مَعْرَكَةُ ٱلْوَاقُوصَةِ

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُبَشِّرٍ وَسَهْلٍ وَأَبِي عُثْمَنَ عَنْ خَالِدٍ وَعُبَادَةَ وَأَبِي حَارِثَةَ. قَالُوا وَلَوْعَبَ ٱلْقُوَّادُ بِٱلنَّاسِ نَحْوَ ٱلشَّأْمِ وَعِكْرِمَةُ رِدْءٌ لِلنَّاسِ وَبَلَغَ ٱلرُّومَ ذٰلِكَ فَكَتَبُوا إِلَى هِرَقْلَ وَخَرَجَ هِرَقْلُ حَتَّى نَزَلَ بِحِمْصَ فَأَعَدَّ لَهُمُ ٱلْجُنُودَ وَعَبَّى لَهُمُ ٱلْعَسَاكِرَ وَأَرَادَ ٱشْتِغَالَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ عَنْ بَعْضٍ لِكَثْرَةِ جُنْدِهِ وَفُضُولِ رِجَالِهِ وَأَرْسَلَ إِلَى عَمْرٍو أَخَاهُ تَذَارِقَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ. فَخَرَجَ نَحْوَهُمْ فِي تِسْعِينَ أَلْفًا وَبَعَثَ مَنْ يَسُوقُهُمْ حَتَّى نَزَلَ صَاحِبُ ٱلسَّاقَةِ ثَنِيَّةَ جِلِّقَ بِأَعْلَى فِلَسْطِينَ وَبَعَثَ جَرَجَةَ بْنَ تُوذَرَا نَحْوَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيٰنَ فَعَسْكَرَ بِإِزَائِهِ وَبَعَثَ ٱلدُّرَاقِصَ فَٱسْتَقْبَلَ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ وَبَعَثَ ٱلْقَيْقَارَ بْنَ نَسْطُوسَ فِي سِتِّينَ أَلْفًا نَحْوَ أَبِي عُبَيْدَةَ. فَهَابَهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ وَجَمِيعُ فِرَقِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَاحِدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا سِوَى عِكْرِمَةَ فِي سِتَّةِ آلَافٍ فَفَزِعُوا جَمِيعًا بِٱلْكُتُبِ وَبِٱلرُّسُلِ إِلَى عَمْرٍو أَنْ مَا ٱلرَّأْيُ وَكَاتَبَهُمْ وَرَاسَلَهُمْ أَنِ ٱلرَّأْيُ ٱلِٱجْتِمَاعُ وَذٰلِكَ أَنَّ مِثْلَنَا إِذَا ٱجْتَمَعْنَا لَمْ نُغْلَبْ مِنْ قِلَّةٍ وَإِذَا نَحْنُ تَفَرَّقْنَا لَمْ يَبْقَ ٱلرَّجُلُ مِنَّا فِي عَدَدٍ يُقْرَنُ فِيهِ لِأَحَدٍ

مِمَّنِ ٱسْتَقْبَلَهُ. وَأَعَدَّ لَنَا لِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنَّا جُنْدًا فَاتَّعِدُوا ٱلْيَرْمُوكَ لِيَجْتَمِعُوا بِهِ. وَقَدْ كُتِبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِمِثْلِ مَا كَاتَبُوا بِهِ عَمْرًا فَطَلَعَ عَلَيْهِمْ كِتَابُهُ بِمِثْلِ رَأْيِ عَمْرٍو وَبَلَغَ ذٰلِكَ هِرَقْلَ فَكَتَبَ إِلَى بَطَارِقَتِهِ أَنِ ٱجْتَمِعُوا لَهُمْ فَأَنْزِلُوا بِٱلرُّومِ مَنْزِلًا وَاسِعَ ٱلْعَطَنِ وَاسِعَ ٱلْمَطْرَدِ ضَيِّقَ ٱلْمَهْرَبِ. وَعَلَى ٱلنَّاسِ ٱلتَّذَارِقُ وَعَلَى ٱلْمُقَدِّمَةِ جَرَجَةُ وَعَلَى مُجَنِّبَتَيْهِ بَاهَانُ وَٱلدَّرَاقِصُ وَعَلَى ٱلْحَرْبِ فِيقَارُ وَقَالَ أَبْشِرُوا فَإِنَّ بَاهَانَ فِي ٱلْإِثْرِ مُمِدًّا لَكُمْ. فَفَعَلُوا فَنَزَلُوا ٱلْوَاقُوصَةَ وَهُوَ عَلَى ضَفَّةِ ٱلْيَرْمُوكِ وَصَارَ ٱلْوَادِي خَنْدَقًا لَهُمْ وَهُوَ لِهْبٌ لَا يُدْرَكُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ بَاهَانُ وَأَصْحَابُهُ أَنْ يَسْتَفِيقَ ٱلرُّومُ وَيَأْنَسُوا بِٱلْمُسْلِمِينَ وَتَرْجِعَ إِلَيْهِمْ أَفْئِدَتُهُمْ عَنْ طَيْرَتِهَا. وَٱنْتَقَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ عَنْ عَسْكَرِهِمِ ٱلَّذِي ٱجْتَمَعُوا فِيهِ فَنَزَلُوا عَلَيْهِمْ بِحِذَائِهِمْ عَلَى طَرِيقِهِمْ وَلَيْسَ لِلرُّومِ طَرِيقٌ إِلَّا عَلَيْهِمْ. فَقَالَ عَمْرٌو: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَبْشِرُوا حُصِرَتِ ٱلرُّومُ وَٱللّٰهِ وَقَلَّ مَا جَاءَ مَحْصُورٌ بِخَيْرٍ. فَأَقَامُوا بِإِزَائِهِمْ وَعَلَى طَرِيقِهِمْ وَمَخْرَجِهِمْ صَفَرَ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَشَهْرَيْ رَبِيعٍ لَا يَقْدِرُونَ مِنَ ٱلرُّومِ عَلَى شَيْءٍ وَلَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِمْ. وَٱللِّهْبُ وَهُوَ ٱلْوَاقُوصَةُ مِنْ وَرَائِهِمْ وَٱلْخَنْدَقُ مِنْ أَمَامِهِمْ. وَلَا يَخْرُجُونَ خَرْجَةً إِلَّا أُدِيلَ مِنْهُمُ ٱلْمُسْلِمُونَ. حَتَّى إِذَا سَلَخُوا شَهْرَ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ وَقَدِ ٱسْتَمَدُّوا أَبَا بَكْرٍ وَأَعْلَمُوهُ ٱلشَّأْنَ فِي صَفَرَ. فَكَتَبَ إِلَى خَالِدٍ لِيَلْحَقَ بِهِمْ وَأَمَرَهُ أَنْ يُخَلِّفَ عَلَى ٱلْعِرَاقِ ٱلْمُثَنَّى فَوَافَاهُمْ فِي رَبِيعٍ ٱلْآخِرِ

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَعَمْرٍو وَٱلْمُهَلَّبِ قَالُوا: وَلَمَّا نَزَلَ ٱلْمُسْلِمُونَ ٱلْيَرْمُوكَ وَٱسْتَمَدُّوا أَبَا بَكْرٍ قَالَ خَالِدٌ أَقْوَى لَهَا. فَبَعَثَ إِلَيْهِ وَهُوَ بِٱلْعِرَاقِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ وَٱسْتَحَثَّهُ فِي ٱلسَّيْرِ

فنفذ خالد لذلك فطلع عليهم خالد وطلع باهان على الروم وقد قدم قدامه الشمامسة والرهبان والقسيسين يغرونهم ويحضضونهم على القتال. ووافق قدوم خالد قدوم باهان فخرج بهم باهان كالمقتدر فولي خالد قتاله وقاتل الأمراء من بإزائهم فهزم باهان وتتابع الروم على الهزيمة فاقتحموا خندقهم. وتيمنت الروم بباهان وفرح المسلمون بخالد وحرد المسلمون وحرد الروم وهم أربعون ومائتا ألف منهم ثمانون ألف مقيد وأربعون ألف مسلسل للموت وأربعون ألفا مربطون بالعمائم وثمانون ألف راجل والمسلمون سبعة وعشرون ألفا ممن كان مقيما. إلى أن قدم عليهم خالد في تسعة آلاف فصاروا ستة وثلاثين ألفا ومرض أبو بكر رحمه الله في جمادى الأولى وتوفي للنصف من جمادى الآخرة قبل الفتح بعشر ليال

قال أبو جعفر وكان أبو بكر قد سمى لكل أمير من أمراء الشام كورة. فسمى لأبي عبيدة بن عبد الله بن الجراح حمص. وليزيد بن أبي سفيان دمشق. ولشرحبيل بن حسنة الأردن. ولعمرو بن العاص ولعلقمة بن محصن فلسطين. فلما فرغا منها نزل علقمة وسار إلى مصر. فلما شارفوا الشام دهم كل أمير منهم قوم كثير فأجمع رأيهم على أن يجتمعوا بمكان واحد وأن يلقوا جمع الروم بجمع المسلمين

مرور خالد من العراق إلى الشام

كتب أبو بكر إلى خالد وهو بالحيرة يأمره أن يمد أهل الشام بمن معه من أهل القوة ويخرج فيهم ويستخلف على ضعفة الناس رجلا منهم.

فَلَمَّا أَتَى خَالِدًا كِتَابُ أَبِي بَكْرٍ بِذٰلِكَ قَالَ خَالِدٌ: هٰذَا عَمَلُ الْأُعَيْسِرِ ابْنِ أُمِّ شَمْلَةَ يَعْنِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حَسَدَنِي أَنْ يَكُونَ فَتْحُ الْعِرَاقِ عَلَى يَدِي. فَسَارَ خَالِدٌ بِأَهْلِ الْقُوَّةِ مِنَ النَّاسِ وَرَدَّ الضَّعَفَةَ وَالنِّسَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عُمَيْرَ بْنَ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيَّ وَاسْتَخْلَفَ خَالِدٌ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بِالْعِرَاقِ مِنْ رَبِيعَةَ وَغَيْرِهِمِ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ. ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى عَيْنِ التَّمْرِ فَأَغَارَ عَلَى أَهْلِهَا فَأَصَابَ مِنْهُمْ وَرَابَطَ حِصْنًا بِهَا فِيهِ مُقَاتِلَةٌ كَانَ كِسْرَى وَضَعَهُمْ فِيهِ حَتَّى اسْتَنْزَلَهُمْ. فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ وَسَبَى مِنْ عَيْنِ التَّمْرِ وَمِنْ أَبْنَاءِ تِلْكَ الْمُرَابِطَةِ سَبَايَا كَثِيرَةً فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ. فَكَانَ مِنْ تِلْكَ السَّبَايَا أَبُو عَمْرَةَ مَوْلَى شَبَّانَ وَهُوَ أَبُو عَبْدِ الْأَعْلَى ابْنِ أَبِي عَمْرَةَ وَعُبَيْدٌ مَوْلَى الْمُعَلَّى مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ وَأَبُو عَبْدِ اللهِ مَوْلَى زُهْرَةَ وَخَيْرٌ مَوْلَى أَبِي دَاوُدَ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ وَيَسَارٌ وَهُوَ جَدُّ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحٰقَ مَوْلَى قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأَفْلَحُ مَوْلَى أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ وَحُمْرَانُ بْنُ أَبَانَ مَوْلَى عُثْمٰنَ بْنِ عَفَّانَ. وَقَتَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ هِلَالَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ بِشْرٍ النَّمَرِيَّ وَصَلَبَهُ بِعَيْنِ التَّمْرِ. ثُمَّ أَرَادَ السَّيْرَ مُغَوِّرًا مِنْ قُرَاقِرَ وَهُوَ مَاءٌ لِكَلْبٍ إِلَى سُوَى وَهُوَ مَاءٌ لِبَهْرَاءَ بَيْنَهُمَا خَمْسُ لَيَالٍ. فَلَمْ يَهْتَدِ خَالِدٌ الطَّرِيقَ فَالْتَمَسَ دَلِيلًا فَدُلَّ عَلَى رَافِعِ بْنِ عَمِيرَةَ الطَّائِيِّ فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: انْطَلِقْ بِالنَّاسِ. فَقَالَ لَهُ رَافِعٌ: إِنَّكَ لَنْ تُطِيقَ ذٰلِكَ بِالْخَيْلِ وَالْأَثْقَالِ وَاللهِ إِنَّ الرَّاكِبَ الْمُفْرَدَ لَيَخَافُهَا عَلَى نَفْسِهِ وَمَا يَسْلُكُهَا إِلَّا مُغَرِّرًا. إِنَّهَا لَخَمْسُ لَيَالٍ جِيَادٍ لَا يُصَابُ فِيهَا مَاءٌ مَعَ مَضَلَّتِهَا. فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: وَيْحَكَ إِنَّهُ وَاللهِ

إِنْ لِي بُدٌّ مِنْ ذٰلِكَ إِنَّهُ قَدْ أَتَتْنِي مِنَ الْأَمِيرِ عَزْمَةٌ بِذٰلِكَ فَمُرْ بِأَمْرِكَ. قَالَ اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْمَاءِ. مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَصُرَّ أُذُنَ نَاقَتِهِ عَلَى مَاءٍ فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّهَا الْمَهَالِكُ إِلَّا مَا دَفَعَ اللّٰهُ. وَالْتَقِي عِشْرِينَ جَزُورًا عِظَامًا سِمَانًا مَشَارِفَ. فَأَتَاهُ بِهِنَّ خَالِدٌ فَعَمَدَ إِلَيْهِنَّ رَافِعٌ فَظَمَّأَهُنَّ حَتَّى إِذَا أَجْهَدَهُنَّ عَطَشًا أَوْرَدَهُنَّ فَشَرِبْنَ حَتَّى إِذَا تَمَلَّأْنَ عَمَدَ إِلَيْهِنَّ فَقَطَعَ مَشَافِرَهُنَّ ثُمَّ كَعَمَهُنَّ لِئَلَّا يَجْتَرِرْنَ. ثُمَّ أَخْلَى أَدْبَارَهُنَّ. ثُمَّ قَالَ لِخَالِدٍ سِرْ فَسَارَ خَالِدٌ مَعَهُ مُغِذًّا بِالْخُيُولِ وَالْأَثْقَالِ. فَكُلَّمَا نَزَلَ مَنْزِلًا اقْتَطَّ أَرْبَعًا مِنْ تِلْكَ الشَّوَارِفِ فَأَخَذَ مَا فِي أَكْرَاشِهَا فَسَقَاهُ الْخَيْلَ. ثُمَّ شَرِبَ النَّاسُ مِمَّا حَمَلُوا مَعَهُمْ مِنَ الْمَاءِ. فَلَمَّا خَشِيَ خَالِدٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الْمَفَازَةِ قَالَ لِرَافِعِ بْنِ عَمِيرَةَ وَهُوَ أَرْمَدُ: وَيْحَكَ يَا رَافِعُ مَا عِنْدَكَ: قَالَ أَدْرَكْتُ الرِّيَّ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ. فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْعَلَمَيْنِ قَالَ لِلنَّاسِ: انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ شُجَيْرَةً مِنْ عَوْسَجٍ كَقِعْدَةِ الرَّجُلِ: فَقَالُوا مَا نَرَاهَا: فَقَالَ: إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. هَلَكْتُمْ وَاللّٰهِ إِذًا وَهَلَكْتُ. انْظُرُوا. فَطَلَبُوهَا فَوَجَدُوهَا قُطِعَتْ وَبَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ. فَلَمَّا رَآهَا الْمُسْلِمُونَ كَبَّرُوا وَكَبَّرَ رَافِعُ بْنُ عَمِيرَةَ ثُمَّ قَالَ: احْفِرُوا فِي أَصْلِهَا: فَحَفَرُوا فَاسْتَخْرَجُوا عَيْنًا فَشَرِبُوا حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ فَاتَّصَلَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الْمَنَازِلُ فَقَالَ: وَاللّٰهِ مَا وَرَدْتُ هٰذَا الْمَاءَ قَطُّ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَرَدْتُهُ مَعَ أَبِي وَأَنَا غُلَامٌ. فَقَالَ شَاعِرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

لِلّٰهِ عَيْنَا رَافِعٍ أَنَّى اهْتَدَى ... فَوَّزَ مِنْ قُرَاقِرٍ إِلَى سُوَى

خِمْسًا إِذَا مَا سَارَهُ الْجَيْشُ بَكَى ... مَا سَارَهَا قَبْلَكَ إِنْسِيٌّ يُرَى

فَلَمَّا انْتَهَى خَالِدٌ إِلَى سُوَى أَغَارَ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ بَهْرَاءُ قَبْلَ الصُّبْحِ وَنَاسٌ

مِنهم يشربون خمرًا لهم في جفنةٍ قدِ اجتمعوا عليها ومغنيهم يقول

أَلا عللاني قبل جيشِ أبي بكرٍ ... لعلَّ منايانا قريبٌ وما ندري

أَلا عللاني بالزجاج وكررا ... عليَّ كميتَ اللونِ صافيةً تجري

أَلا عللاني من سلافةِ قهوةٍ ... تسلّي همومَ النفسِ من جيِّدِ الخمرِ

أظنُّ خيولَ المسلمين وخالدا ... ستطرقكم قبلَ الصباحِ من البِشرِ

فهل لكمُ في السَّيرِ قبلَ قتالهم ... وقبلَ خروجِ المعصراتِ من الخِدرِ

قالَ أبو جعفرٍ فيزعمون أنّ مغنيهم ذلك قُتِلَ تحتَ الغارةِ فسالَ دمهُ في تلكَ الجفنةِ. ثمّ سارَ على وجهِهِ ذلكَ حتى أغارَ على غسّانَ بمرجِ راهطٍ ثمّ سارَ حتى نزلَ على قناةِ بصرى وعليها أبو عبيدةَ بنُ الجرّاحِ وشرحبيلُ بنُ حسنةَ ويزيدُ بنُ أبي سفيانَ فاجتمعوا عليها فرابطوا حتى صالحتْ بصرى على الجزيةِ وفتحها اللهُ على المسلمينَ فكانتْ أوّلَ مدينةٍ من مدائنِ الشّامِ فُتحتْ في خلافةِ أبي بكرٍ

معركةُ أجنادينَ

ثمّ ساروا جميعًا إلى فلسطينَ مددًا لعمرِو بنِ العاصِ وعمرٌو مقيمٌ بالعرباتِ من غورِ فلسطينَ وسمعتِ الرّومُ بهمْ فانكشفوا عنْ جلّقَ إلى أجنادينَ وعليهم تذارقُ أخو هرقلَ لأبيهِ وأمّهِ. وأجنادينُ بلدٌ بينَ الرّملةِ وبيتِ جبرينَ من أرضِ فلسطينَ. وسارَ عمرُو بنُ العاصِ حينَ سمعَ بأبي عبيدةَ بنِ الجرّاحِ وشرحبيلَ بنِ حسنةَ ويزيدَ بنِ أبي سفيانَ حتى لقيهمْ فاجتمعوا بأجنادينَ حتى عسكروا عليهمْ

حدّثنا ابنُ حميدٍ قالَ: حدّثنا سلمةُ عنْ محمّدِ بنِ إسحقَ عنْ محمّدِ

بنِ جعفرٍ يعني ابنَ الزُّبيرِ عن عُروةَ بنِ الزُّبيرِ أنّهُ قال: كانَ على الرُّومِ رجلٌ منهم يُقالُ لهُ القُبُقلارُ كانَ هِرَقلُ استخلفَهُ واستخلفَهُ على أمرِ الشّامِ حِينَ سارَ إلى القُسطنطينيّةِ وإليهِ انصرفَ تَذارِقُ بمَن معهُ من الرُّومِ. فأمّا علماءُ الشّامِ فيزعمونَ أنّما كانَ على الرُّومِ تَذارِقُ واللهُ أعلمُ.

حدّثنا ابنُ حُميدٍ قال: حدّثنا سلمةُ عن ابنِ إسحقَ عن محمّدِ بنِ جعفرِ بنِ الزُّبيرِ عن عُروةَ قال: لمّا تدانى العسكرانِ بعثَ القُبُقلارُ رجلًا عربيًّا فقالَ فحُدِّثتُ أنّ ذلكَ الرّجلَ رجلٌ من قُضاعةَ من يزيدَ بنِ حَيدانَ يُقالُ لهُ ابنُ هزارِقَ فقالَ: ادخُلْ في هؤلاءِ القومِ وأقِمْ فيهم يومًا وليلةً ثمّ ائتِني بخبرِهم. قالَ فدخلَ في النّاسِ رجلٌ عربيٌّ لا يُنكَرُ وأقامَ فيهم يومًا وليلةً ثمّ أتاهُ فقالَ: ما وراءَكَ. قالَ: باللّيلِ رُهبانٌ وبالنّهارِ فُرسانٌ ولو سرقَ ابنُ ملكِهم قُطِعتْ يدُهُ ولو زنى رُجِمَ لإقامةِ الحقِّ فيهم. قالَ القُبُقلارُ: لئن كنتَ صدقتَني لبطنُ الأرضِ خيرٌ من لقاءِ هؤلاءِ على ظهورِها ولوددتُ أنّ حظّي من اللهِ أن يُخلّيَ بيني وبينهم فلا ينصرَني عليهم ولا ينصرَهم عليَّ. قالَ: ثمّ تزاحفَ النّاسُ فاقتتلوا. فلمّا رأى القُبُقلارُ ما رأى من قتالِ المسلمينَ قالَ للرُّومِ لُفّوا رأسي بثوبٍ. قالوا لهُ لِمَ. قالَ يومُ البئيسِ لا أُحبُّ أن أراهُ فما رأيتُ في الدُّنيا أشدَّ من هذا اليومِ. قالَ: فاحتزَّ المسلمونَ رأسَهُ وإنّهُ لَمُلتفٌّ. وكانتْ وقعةُ أجنادينَ في سنةِ ثلثَ عشرةَ لليلتينِ بقيتا من جُمادى الأولى وقُتلَ يومئذٍ من المسلمينَ جماعةٌ منهم سلمةُ بنُ هشامِ بنِ المغيرةِ وهبّارُ بنُ الأسودِ بنِ عبدِ الأسدِ ونُعيمُ بنُ عبدِ اللهِ النّحّامُ وهشامُ بنُ العاصِ بنِ وائلٍ وجماعةٌ أُخرُ من

قُرَيْشٍ. قَالَ: وَلَمْ يُسَمِّ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلْأَنْصَارِ أَحَدًا أُصِيبَ بِهَا. وَفِيهَا تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ لِثَمَانِ لَيَالٍ بَقِينَ أَوْ سَبْعٍ بَقِينَ مِنْ جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ

فِي ٱفْتِتَاحِ دِمَشْقَ

رَجَعَ ٱلْحَدِيثُ إِلَى حَدِيثِ سَيْفٍ عَنْ أَبِي عُثْمَنَ عَنْ خَالِدٍ وَأَبِي عُبَادَةَ قَالَا: وَلَمَّا جَاءَ عُمَرَ ٱلْكِتَابُ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بِٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَبْدَأَ بِهِ كَتَبَ إِلَيْهِ. أَمَّا بَعْدُ فَٱبْدَؤُوا بِدِمَشْقَ وَٱنْهَدُوا فَإِنَّهَا حِصْنُ ٱلشَّأْمِ وَبَيْتُ مَمْلَكَتِهِمْ وَٱشْغَلُوا عَنْكُمْ أَهْلَ فِحْلٍ بِخَيْلٍ تَكُونُ بِإِزَائِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ. وَأَهْلَ فِلَسْطِينَ وَأَهْلَ حِمْصَ. فَإِنْ فَتَحَهَا ٱللّٰهُ قَبْلَ دِمَشْقَ فَذَاكَ ٱلَّذِي نُحِبُّ وَإِنْ تَأَخَّرَ فَتْحُهَا حَتَّى يَفْتَحَ ٱللّٰهُ دِمَشْقَ فَلْيَنْزِلْ بِدِمَشْقَ مَنْ يُمْسِكُ بِهَا وَدَعُوهَا وَٱنْطَلِقْ أَنْتَ وَسَائِرُ ٱلْأُمَرَاءِ حَتَّى تُغِيرُوا عَلَى فِحْلٍ. فَإِنْ فَتَحَ ٱللّٰهُ عَلَيْكُمْ فَٱنْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدٌ إِلَى حِمْصَ وَدَعْ شُرَحْبِيلَ وَعَمْرًا وَخَلِّهِمَا بِٱلْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ. وَأَمِيرُ كُلِّ بَلَدٍ وَجُنْدِهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ إِمَارَتِهِمْ. فَسَرَّحَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى فِحْلٍ أَحَدَ عَشَرَ قُوَّادًا أَبَا ٱلْأَعْوَرِ ٱلسُّلَمِيَّ وَعَبْدَ ٱلرَّحْمَانِ بْنَ زَيْدِ بْنِ عَامِرٍ ٱلْحَرَشِيَّ وَعَامِرَ بْنَ حَثْمَةَ وَعَمْرَ بْنَ كُلَيْبٍ مِنْ يَحْصُبَ وَعُمَارَةَ بْنَ ٱلصَّعِقِ بْنِ كَعْبٍ وَصَيْفِيَّ بْنَ عُلْبَةَ بْنِ شَامِلٍ. وَعَمْرَ بْنَ فُلَانٍ وَٱلْحَبِيبَ بْنَ عَمْرٍو وَلَبِيدَةَ بْنَ عَامِرِ بْنِ خَثْعَمَةَ وَبِشْرَ بْنَ عِصْمَةَ وَعُمَارَةَ بْنَ مُخْشِيٍّ قَائِدَ ٱلنَّاسِ. وَمَعَ كُلِّ رَجُلٍ قُوَّادٌ وَكَانَتِ ٱلرُّؤَسَاءُ تَكُونُ مِنَ ٱلصَّحَابَةِ حَتَّى لَا يَجِدُوا مَنْ يَحْتَمِلُ ذٰلِكَ. فَسَارُوا مِنَ ٱلصُّفْرِ حَتَّى نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ فِحْلٍ. فَلَمَّا رَأَتِ ٱلرُّومُ أَنَّ ٱلْجُنُودَ تُرِيدُهُمْ بَثَقُوا ٱلْمِيَاهَ حَوْلَ فِحْلٍ فَأَرْدَغَتِ ٱلْأَرْضُ ثُمَّ وَحِلَتْ وَٱغْتَمَّ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنْ ذٰلِكَ

فجمعوا من المسلمين بها ثلاثين ألف فارس وكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق

وبعثوا الأمراء وبعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءا. وبعث علقمة بن حكيم ومسروقا وكانا بين دمشق وفلسطين والأمير يزيد ففصل وفصل بأبي عبيدة من المرج وقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة. وعلى الخيل عياض وعلى الرجل شرحبيل. فقدموا على دمشق وعليهم نسطاس بن نسطوس فحصروا أهل دمشق ونزلوا حواليها. فكان أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية وهرقل يومئذ بحمص ومدينة حمص بينه وبينهم. فحاصروا أهل دمشق نحوا من سبعين ليلة حصارا شديدا بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث وهرقل منهم قريب. وقد استمدوه وذو الكلاع بين المسلمين وبين حمص على رأس ليلة من دمشق كأنه يريد حمص وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق فأشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع وشغلتها عن الناس. فأرزوا ونزلوا بإزائه وأهل دمشق على حالهم. فلما أيقن أهل دمشق أن الأمداد لا يصل إليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون فيهم طمعا. وقد كانوا يرون أنها كالغارات قبل ذلك إذا هجم البرد قفل الناس فسقط النجم والقوم مقيمون

فعند ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخول دمشق وولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فصنع عليه فأكل القوم وشربوا وغفلوا عن

مَوَاقِفِهِمْ وَلَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خَالِدٍ فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَنَامُ وَلَا يُنِيمُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ. عُيُونُهُ ذَاكِيَةٌ وَهُوَ مَعْنِيٌّ بِمَا يَلِيهِ. قَدِ ٱتَّخَذَ حِبَالًا كَهَيْئَةِ ٱلسَّلَالِيمِ وَأَوْهَاقًا. فَلَمَّا أَمْسَى مِنْ ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ نَهَضَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ ٱلَّذِينَ قَدِمَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَتَقَدَّمَهُمْ هُوَ وَٱلْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو وَمَذْعُورُ بْنُ عَدِيٍّ وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي أَوَّلِ يَوْمِهِ وَقَالُوا: إِذَا سَمِعْتُمْ تَكْبِيرَنَا عَلَى ٱلسُّورِ فَارْقُوا إِلَيْنَا وَٱنْهَدُوا إِلَى ٱلْبَابِ؛ فَلَمَّا ٱنْتَهَى إِلَى ٱلْبَابِ ٱلَّذِي يَلِيهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ رَمَوْا بِٱلْحِبَالِ ٱلشُّرَفَ وَعَلَى ظُهُورِهِمِ ٱلْقِرَبُ ٱلَّتِي قَطَعُوا بِهَا خَنْدَقَهُمْ. فَلَمَّا ثَبَتَ لَهُمْ وَهَقَانِ تَسَلَّقَ فِيهِمَا ٱلْقَعْقَاعُ وَمَذْعُورٌ. ثُمَّ لَمْ يَدَعَا أُحْبُولَةً إِلَّا أَثْبَتَاهَا وَٱلْأَوْهَاقَ بِٱلشُّرَفِ. وَكَانَ ٱلْمَكَانُ ٱلَّذِي ٱقْتَحَمُوا مِنْهُ أَحْصَنَ مَكَانٍ يُحِيطُ بِدِمَشْقَ أَكْثَرَهُ مَاءً وَأَشَدَّهُ مَدْخَلًا وَتَوَافَوْا لِذَلِكَ فَلَمْ يَبْقَ مِمَّنْ دَخَلَ مَعَهُ إِلَّا رَقِيَ أَوْ دَنَا مِنَ ٱلْبَابِ حَتَّى إِذَا ٱسْتَوَوْا عَلَى ٱلسُّورِ حَدَرَ عَامَّةَ أَصْحَابِهِ وَٱنْحَدَرَ مَعَهُمْ وَخَلَّفَ مَنْ يَحْمِي ذَلِكَ ٱلْمَكَانَ لِمَنْ يَرْتَقِي. وَأَمَرَهُمْ بِٱلتَّكْبِيرِ فَكَبَّرَ ٱلَّذِينَ عَلَى رَأْسِ ٱلسُّورِ. فَنَهَدَ ٱلْمُسْلِمُونَ إِلَى ٱلْبَابِ وَمَالَ إِلَى ٱلْحِبَالِ بَشَرٌ كَثِيرٌ فَوَثَبُوا فِيهَا وَٱنْتَهَى خَالِدٌ إِلَى مَنْ يَلِيهِ فَأَنَامَهُمْ وَٱنْحَدَرَ إِلَى ٱلْبَابِ فَقَتَلُوا ٱلْبَوَّابِينَ وَثَارَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَفَزِعَ سَائِرُ ٱلنَّاسِ. فَأَخَذُوا مَوَاقِفَهُمْ وَلَا يَدْرُونَ مَا ٱلشَّأْنُ وَتَشَاغَلَ أَهْلُ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِمَا يَلِيهِمْ. وَقَطَعَ خَالِدُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَمَنْ مَعَهُ أَغْلَاقَ ٱلْبَابِ بِٱلسُّيُوفِ وَفَتَحُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ دَاخِلٍ حَتَّى مَا بَقِيَ مِمَّا يَلِي بَابَ خَالِدٍ مُقَاتِلٌ إِلَّا أُنِيمَ

وَلَمَّا شَدَّ خَالِدٌ عَلَى مَنْ يَلِيهِ وَبَلَغَ مِنْهُمُ ٱلَّذِي أَرَادَ عَنْوَةً وَأَرَزَ مَنْ

أَفْلَتَ إِلَى ٱلْأَبْوَابِ ٱلَّتِي تَلِي غَيْرَهُ . وَقَدْ كَانَ ٱلْمُسْلِمُونَ دَعَوْهُمْ إِلَى ٱلْمُنَاظَرَةِ فَأَبَوْا وَٱبْتَعَدُوا فَلَمْ تَفْجَأْهُمْ إِلَّا وَهُمْ يَبُوحُونَ لَهُمْ بِٱلصُّلْحِ . فَأَجَابُوهُمْ وَقَبِلُوا مِنْهُمْ وَفَتَحُوا لَهُمُ ٱلْأَبْوَابَ وَقَالُوا : ٱدْخُلُوا فَٱمْنَعُونَا مِنْ أَهْلِ ذٰلِكَ ٱلْبَابِ : وَدَخَلَ أَهْلُ كُلِّ بَابٍ بِصُلْحٍ مِنْ يَلِيهِمْ وَدَخَلَ خَالِدٌ مِمَّا يَلِيهِ عَنْوَةً . فَٱلْتَقَى خَالِدٌ وَٱلْقُوَّادُ فِي وَسَطِهَا هٰذَا ٱسْتِعْرَاضًا وَٱنْتِهَابًا وَهٰذَا صُلْحًا وَتَسْكِينًا فَأَجْرَوْا نَاحِيَةَ خَالِدٍ مُجْرَى ٱلصُّلْحِ . فَصَارَ صُلْحًا وَكَانَ صُلْحُ دِمَشْقَ عَلَى مُقَاسَمَةِ ٱلدِّينَارِ وَٱلْعَقَارِ وَدِينَارٍ عَلَى كُلِّ رَأْسٍ . فَٱقْتَسَمُوا ٱلْأَسْلَابَ فَكَانَ أَصْحَابُ خَالِدٍ فِيهَا كَأَصْحَابِ سَائِرِ ٱلْقُوَّادِ وَجَرَى عَلَى ٱلدِّيَارِ مَنْ بَقِيَ فِي ٱلصُّلْحِ جَرِيبٌ مِنْ كُلِّ جَرِيبِ أَرْضٍ وَوَقَفَ مَا كَانَ لِلْمُلُوكِ وَمَنْ صَوَّبَ مَعَهُمْ فَيْئًا وَقَسَمُوا لِذِي ٱلْكَلَاعِ وَمَنْ مَعَهُ وَلِأَبِي ٱلْأَعْوَرِ وَمَنْ مَعَهُ وَلِبَشِيرٍ وَمَنْ مَعَهُ وَبَعَثُوا بِٱلْبِشَارَةِ إِلَى عُمَرَ

فِي ٱفْتِتَاحِ بِلَادِ فَارِسَ

وَقْعَةُ ٱلْقَرْقَسِ

وَقْعَةُ ٱلْقَرْقَسِ وَيُقَالُ لَهَا ٱلْقَسُّ قُسُّ ٱلنَّاطِقِ وَيُقَالُ لَهَا ٱلْجِسْرُ وَيُقَالُ لَهَا ٱلْمَرْوَحَةُ : قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ ٱلطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ عَلَيْهِ . كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَزِيَادٍ بِإِسْنَادِهِمْ قَالُوا : وَلَمَّا رَجَعَ ٱلْجَالِنُوسُ إِلَى رُسْتَمَ وَمَنْ أَفْلَتَ مِنْ جُنُودِهِ قَالَ رُسْتَمُ : أَيُّ ٱلْعَجَمِ أَشَدُّ عَلَى ٱلْعَرَبِ فِيمَا تُرَوْنَ : قَالُوا : بَهْمَنُ جَاذُوَيْهِ . فَوَجَّهَهُ وَمَعَهُ فِيَلَةٌ وَرَدَّ ٱلْجَالِنُوسَ مَعَهُ : فَقَالَ لَهُ : قَدِّمِ ٱلْجَالِنُوسَ فَإِنْ عَادَ لِمِثْلِهَا فَٱضْرِبْ عُنُقَهُ . فَأَقْبَلَ بَهْمَنُ جَاذُوَيْهِ وَمَعَهُ دِرَفْسُ كَابِيَانَ رَايَةُ كِسْرَى وَكَانَتْ مِنْ

جُلُودِ النُّمرِ عَرْضَ ثَمَانِي أَذْرُعٍ فِي طُولِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا . فَأَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدٍ حَتَّى نَزَلَ الْمَرْوَحَةَ مَعَ الْبُرُوجِ وَالْعَاقُولِ . فَبَعَثَ إِلَيْهِ بَهْمَنُ جَاذُوَيْهِ . إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَنَدَعكُمْ وَالْعُبُورَ . وَإِمَّا أَنْ تَدَعُونَا نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ : فَقَالَ النَّاسُ : لَا تَعْبُرْ يَا أَبَا عُبَيْدٍ إِنَّا نَنْهَاكَ عَنِ الْعُبُورِ . قَالُوا لَهُ : قُلْ لَهُمْ فَلْيَعْبُرُوا وَكَانَ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ فِي ذٰلِكَ سَلِيطٌ . فَلَجَّ أَبُو عُبَيْدٍ وَتَرَكَ الرَّأْيَ وَقَالَ : لَا يَكُونُوا أَجْرَأَ عَلَى الْمَوْتِ مِنَّا بَلْ نَعْبُرُ إِلَيْهِمْ . فَعَبَرُوا إِلَيْهِمْ فِي مَنْزِلٍ ضَيِّقِ الْمَطْرَدِ وَالْمَذْهَبِ فَاقْتَتَلُوا يَوْمًا وَأَبُو عُبَيْدٍ فِيمَا بَيْنَ السِّتَّةِ وَالْعَشَرَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ وَاسْتَبْطَأَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ الْفَتْحَ وَأَلَّفَ بَيْنَ النَّاسِ فَتَصَافَحُوا بِالسُّيُوفِ

فَعَبَرُوا إِلَيْهِمْ وَعَضَلَتِ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا وَأَلْحَمَ النَّاسُ الْحَرْبَ . فَلَمَّا نَظَرَتِ الْخُيُولُ إِلَى الْفِيَلَةِ عَلَيْهَا النُّجُلُ وَالْخَيْلِ عَلَيْهَا التَّجَافِيفُ وَالْفُرْسَانِ عَلَيْهِمُ الشُّعُرُ رَأَتْ شَيْئًا مُنْكَرًا لَمْ تَكُنْ تَرَىٰ مِثْلَهُ . فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا حَمَلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ تَقْدِمْ خُيُولُهُمْ . وَإِذَا حَمَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْفِيَلَةِ وَالْجَلَاجِلِ فَرَّقَتْ بَيْنَ كَرَادِيسِهِمْ لَا تَقُومُ لَهَا الْخَيْلُ إِلَّا عَلَى نِفَارٍ وَخَزَقَهُمُ الْفُرْسُ بِالنُّشَّابِ وَعَضَّ الْمُسْلِمِينَ الْأَلَمُ وَجَعَلُوا لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ . فَتَرَجَّلَ أَبُو عُبَيْدٍ وَتَرَجَّلَ النَّاسُ . ثُمَّ مَشَوْا إِلَيْهِمْ فَصَافَحُوهُمْ بِالسُّيُوفِ . فَجَعَلَتِ الْفِيَلَةُ لَا تَحْمِلُ عَلَى جَمَاعَةٍ إِلَّا دَفَعَتْهُمْ . فَنَادَىٰ أَبُو عُبَيْدٍ : احْتَرِشُوا الْفِيَلَةَ وَقَطِّعُوا بِطَانَهَا وَاقْلِبُوا عَنْهَا أَهْلَهَا : وَوَاثَبَ هُوَ الْفِيلَ الْأَبْيَضَ . فَتَعَلَّقَ بِبِطَانِهِ فَقَطَعَهُ وَقَطَعَ الَّذِينَ عَلَيْهِ وَفَعَلَ الْقَوْمُ مِثْلَ ذٰلِكَ فَمَا تَرَكُوا فِيلًا إِلَّا حَطُّوا أَهْلَهُ وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ فَأَهْوَىٰ الْفِيلُ لِأَبِي عُبَيْدٍ فَنَفَحَ مِشْفَرَهُ بِالسَّيْفِ

فَأَتَاهُ ٱلْفِيلُ بِيَدِهِ فَوَقَعَ فَخَبَطَهُ ٱلْفِيلُ وَقَامَ عَلَيْهِ. فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ ٱلنَّاسُ تَحْتَ ٱلْفِيلِ خَشَعَتْ أَنْفُسُهُمْ وَأَخَذَ ٱللِّوَآءَ ٱلَّذِي كَانَ أَمَرَهُ بَعْدَهُ فَقَاتَلَ ٱلْفِيلَ حَتَّى تَنَحَّى عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ فَأَجْتَرَّهُ إِلَى ٱلْمُسْلِمِينَ فَأَحْرَزُوا شِلْوَهُ وَتَجَرَّمَ ٱلْفِيلُ بِيَدِهِ ذَاتَ أَبِي عُبَيْدٍ وَخَبَطَهُ ٱلْفِيلُ وَقَامَ عَلَيْهِ وَتَتَابَعَ سَبْعَةٌ مِنْ ثَقِيفٍ كُلُّهُمْ يَأْخُذُ ٱللِّوَآءَ وَيُقَاتِلُ حَتَّى يَمُوتَ. ثُمَّ أَخَذَ ٱللِّوَآءَ ٱلْمُثَنَّى وَهَرَبَ ٱلنَّاسُ

فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَرْثَدٍ ٱلثَّقَفِيُّ مَا لَقِيَ أَبُو عُبَيْدٍ وَخُلَفَآؤُهُ وَمَا يَصْنَعُ ٱلنَّاسُ بَادَرَهُمُ ٱلْجِسْرَ فَقَطَعَهُ وَقَالَ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ مُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ أُمَرَآؤُكُمْ أَوْ تَظْفَرُوا وَأَجَارَ ٱلْمُشْرِكُونَ ٱلْمُسْلِمِينَ إِلَى ٱلْجِسْرِ وَجَشِعَ نَاسٌ فَتَوَاثَبُوا فِي ٱلْفُرَاتِ فَغَرِقَ مَنْ لَمْ يَصْبِرْ وَأَسْرَعُوا فِيمَنْ صَبَرَ وَحَمَى ٱلْمُثَنَّى وَفُرْسَانٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلنَّاسَ وَنَادَى: يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا دُونَكُمْ فَٱعْبُرُوا عَلَى هِينَتِكُمْ وَلَا تَدْهَشُوا فَإِنَّا لَنْ نُزَايِلَ حَتَّى نَرَاكُمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وَلَا تُغَرِّقُوا أَنْفُسَكُمْ: فَوَجَدُوا ٱلْجِسْرَ وَعَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَرْثَدٍ قَائِمٌ عَلَيْهِ يَمْنَعُ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْعُبُورِ. فَأَتَوْا بِهِ ٱلْمُثَنَّى فَضَرَبَهُ وَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى ٱلَّذِي صَنَعْتَ: قَالَ لِيُقَاتِلُوا. وَنَادَى مَنْ عَبَرَ. فَجَآءُوا بِعُلُوجٍ فَضَمُّوا إِلَى ٱلسَّفِينَةِ ٱلَّتِي قَطَعُوا سَفَائِنَهَا وَعَبَرَ ٱلنَّاسُ. وَكَانَ آخِرَ مَنْ قُتِلَ عِنْدَ ٱلْجِسْرِ سَلِيطُ بْنُ قَيْسٍ وَعَبَرَ ٱلْمُثَنَّى وَحَمَى جَانِبَهُ فَٱضْطَرَبَ عَسْكَرُهُ وَرَامَهُمْ ذُو ٱلْحَاجِبِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِمْ. فَلَمَّا عَبَرَ ٱلْمُثَنَّى وَحَمَى جَانِبَهُ ٱرْفَضَّ عَنْهُ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَبَقِيَ ٱلْمُثَنَّى فِي قِلَّةٍ. كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَبِي عُثْمٰنَ ٱلنَّهْدِيِّ قَالَ: هَلَكَ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَهَرَبَ أَلْفَانِ وَبَقِيَ ثَلٰثَةُ آلَافٍ

وقعة البويب

كتب إليّ السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم قالوا: وبعث المثنى بعد الجسر فيمن يليه من الممدين فتوافوا إليه في جمع وبلغ رستم والفيرزان ذلك وأتتهم العيون به وبما ينتظرون من الإمداد واجتمعا على أن يبعثا مهران الهمذاني حتى يريا من رأيهما. فخرج مهران في الخيول وأمراه بالحيرة وبلغ المثنى الخبر وهو معسكر بمرج السباخ بين القادسية وخفان في الذين أمدوه من العرب عن خبر بشير وكنانة وبشير يومئذ بالحيرة. فاستبطن فرات بادقلى وأرسل إلى جرير ومن معه إنا جاءنا أمر لم نستطع معه القيام حتى تقدموا علينا فعجلوا اللحاق بنا وموعدكم البويب وكان جرير ممدا له. وكتب إلى عصمة ومن معه وكان ممدا له بمثل ذلك وإلى كل قائد أظله بمثل ذلك وخذوا على الجوف. فسلكوا على القادسية والجوف ومن سلك معه طريقه فانتهوا إلى المثنى وهو على البويب مما يلي موضع الكوفة اليوم وعليهم المثنى وهو بإزاء مهران وعسكره. فقال المثنى لرجل من أهل السواد. ما يقال للرقعة التي فيها مهران وعسكره: قال بسبيا. فقال أكدى مهران وهلك عسكره نزل منزلا هو البسوس. وأقام بمكانه حتى كاتبه مهران إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم. فقال المثنى: اعبروا فعبر مهران فنزل على شاطئ الفرات معهم في الملطاط. فقال المثنى: كذلك للرجل. ما يقال لهذه الرقعة التي نزلها مهران وأصحابه وعسكره قال شوميا. وذلك في رمضان. فنادى في الناس انهدوا لعدوكم.

فتناهدوا وقد كان المثنى عبّى الجيش. فجعل على مجنبتيه مذعوراً والنسير وعلى المجردة عاصماً وعلى الطلائع عصمة واصطف الفريقان وقام المثنى فيهم خطيباً فقال: إنكم صوّام والصوم مرقّة ومضعفة وإني أرى من الرأي أن تفطروا. ثم تقووا بالطعام على قتال عدوكم: قالوا نعم: فأفطروا فأبصر رجلاً يستوفز ويستنتل من الصف فقال: ما بال هذا: فقالوا: ممن فرّ من الزحف يوم الجسر وهو يريد أن يستقتل فقرعه بالرمح وقال: لا أبا لك الزم موقفك فإذا أتاك قرنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل. قال: إني بذلك لجدير فاستقر ولزم الصف. كتب إليّ السري عن شعيب عن أبي إسحٰق الشيباني مثله

كتب إليّ السري عن شعيب عن عبيد الله بن محصن عن أبيه أن العجم لما أذن لهم في العبور نزلوا شوميا موضع دار الرزق. فتعبّوا لما جاؤوا هنالك. فأقبلوا على المسلمين في صفوف ثلثة مع كل صف فيل ورجلهم أمام فيلهم وجاؤوا لهم زجل. فقال المثنى للمسلمين: الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت وائتمروا بينكم همساً. فدنوا من المسلمين وجاؤوهم من قبل نهر بني سليم نحو موضع نهر بني سليم اليوم. فلما دنوا زحفوا وصف المسلمين فيما بين نهر بني سليم اليوم وما وراءه

كتب إليّ السري عن شعيب عن محمد وطلحة قالا وكان على مجنبتي المثنى بشير وبشر بن أبي رهم وعلى مجردته المعنى وعلى الرجل مسعود وعلى الطلائع قبل ذلك اليوم النسير وعلى الردء مذعور وكان على مجنبتي مهران ابن الآزاذبه مرزبان الحيرة ومردانشاه. ولما خرج

ٱلْمُثَنَّى طَافَ فِي صُفُوفِهِ يَعْهَدُ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُ وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ ٱلشَّمُوسِ وَكَانَ يُدْعَى ٱلشَّمُوسَ مِنْ لِينِ عَرِيكَتِهِ وَلِطَهَارَتِهِ. فَكَانَ إِذَا رَكِبَهُ قَاتَلَ وَكَانَ لَا يَرْكَبُهُ إِلَّا لِقِتَالٍ يُودِعُهُ مَا لَمْ يَكُنْ قِتَالٌ. فَوَقَفَ عَلَى ٱلرَّايَاتِ رَايَةً رَايَةً يُحَضِّضُهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِأَمْرِهِ وَيَهُزُّهُمْ بِمَا فِيهِمْ تَحْضِيضًا لَهُمْ وَلِكُلِّهِمْ يَقُولُ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تُؤْتَى ٱلْعَرَبُ مِنْ قِبَلِكُمُ ٱلْيَوْمَ. وَٱللهِ مَا يَسُرُّنِي ٱلْيَوْمَ لِنَفْسِي شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ يَسُرُّنِي لِعَامَّتِكُمْ. فَيُجِيبُونَهُ بِمِثْلِ ذَٰلِكَ. وَأَنْصَفَهُمُ ٱلْمُثَنَّى فِي ٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ وَخَلَطَ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَكْرُوهِ وَٱلْمَحْبُوبِ. فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَعِيبَ لَهُ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا. ثُمَّ قَالَ: إِنِّي مُكَبِّرٌ ثَلَاثًا فَهَيِّئُوا ثُمَّ ٱحْمِلُوا مَعَ ٱلرَّابِعَةِ: فَلَمَّا كَبَّرَ أَوَّلَ تَكْبِيرَةٍ رَكَدَتْ خَيْلُهُمْ وَحَزَبَهُمْ مَلِيًّا. فَلَمَّا رَأَى ٱلْمُثَنَّى خَلَلًا فِي بَعْضِ صُفُوفِهِ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا وَقَالَ: إِنَّ ٱلْأَمِيرَ يَقْرَأُ عَلَيْكُمُ ٱلسَّلَامَ وَيَقُولُ: لَا تَفْضَحُوا ٱلْمُسْلِمِينَ ٱلْيَوْمَ: فَقَالُوا نَعَمْ: وَٱعْتَدَلُوا وَجَعَلُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ يَرَوْنَهُ وَهُوَ يَمُدُّ لِحْيَتَهُ لِمَا يَرَى مِنْهُمْ فَأَعْتَبُوا بِأَمْرٍ لَمْ يَجِئْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فَرَمَقُوهُ فَرَأَوْهُ يَضْحَكُ فَرَحًا وَٱلْقَوْمُ بَنُو عِجْلٍ وَمَا وَرَاءَهَا

فَلَمَّا طَالَ ٱلْقِتَالُ وَٱشْتَدَّ عَمَدَ ٱلْمُثَنَّى إِلَى أَنَسِ بْنِ هِلَالٍ فَقَالَ: يَا أَنَسُ إِنَّكَ ٱمْرُؤٌ عَرَبِيٌّ وَإِنْ لَمْ تَكُ عَلَى دِينِنَا. فَإِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ حَمَلْتُ عَلَى مِهْرَانَ فَٱحْمِلْ مَعِي: وَقَالَ لِٱبْنِ ذِي ٱلسَّهْمَيْنِ مِثْلَ ذَٰلِكَ فَأَجَابَهُ. فَحَمَلَ ٱلْمُثَنَّى عَلَى مِهْرَانَ فَأَزَالَهُ حَتَّى دَخَلَ فِي مَيْمَنَتِهِ. ثُمَّ خَالَطُوهُمْ فَٱجْتَمَعَ ٱلْقَلْبَانِ وَٱرْتَفَعَ ٱلْغُبَارُ وَٱلْمُجَنِّبَاتُ تَقْتَتِلُ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْرُغُوا لِنَصْرِ أَمِيرِهِمْ لَا ٱلْمُشْرِكُونَ وَلَا ٱلْمُسْلِمُونَ. وَٱرْتُثَّ مَسْعُودٌ يَوْمَئِذٍ وَقُوَّادٌ مِنْ قُوَّادِ

ٱلْمُسْلِمِينَ وَقَدْ كَانَ قَالَ لَهُمْ : إِذَا رَأَيْتُمُونَا أُصِبْنَا فَلَا تَدَعُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَإِنَّ أَحَدَ ٱلْجَيْشَيْنِ يَنْكَشِفُ ثُمَّ يَنْصَرِفُ وَأَغْنُوا غَنَاءَ مَنْ يَلِيكُمْ : وَأَوْجَعَ قَلْبُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي قَلْبِ ٱلْمُشْرِكِينَ وَقَتَلَ غُلَامٌ مِنَ ٱلتَّغْلِبِيِّينَ نَصْرَانِيٌّ مِهْرَانَ فَٱسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ . فَجَعَلَ ٱلْمُثَنَّى سَلَبَهُ لِصَاحِبِ خَيْلِهِ . وَكَذَٰلِكَ إِذَا كَانَ ٱلْمُشْرِكُ فِي خَيْلِ رَجُلٍ فَقَتَلَ وَسَلَبَ فَهُوَ لِلَّذِي هُوَ أَمِيرٌ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ وَكَانَ لَهُمْ قَائِدَانِ أَحَدُهُمَا جَرِيرٌ وَٱلْآخَرُ ٱبْنُ ٱلْهَوْبَرِ فَٱقْتَسَمَا

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عُبَيْدِ ٱللَّهِ بْنِ مُحَفِّزِ بْنِ ثَعْلَبَةَ قَالَ : جَلَبَ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ أَفْرَاسًا . فَلَمَّا ٱلْتَقَى ٱلزَّحْفَانِ يَوْمَ ٱلْبُوَيْبِ قَالُوا : لَا نُقَاتِلُ ٱلْعَرَبَ مَعَ ٱلْعَجَمِ فَأَصَابَ أَحَدُهُمْ مِهْرَانَ يَوْمَئِذٍ وَمَهَدَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ وَرْدٍ مُجَفَّفٍ بِتَجْفَافٍ أَصْفَرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ هِلَالٌ وَعَلَى ذَنَبِهِ أَهِلَّةٌ فَٱسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ ثُمَّ ٱنْتَمَى فَقَالَ : أَنَا ٱلْغُلَامُ ٱلتَّغْلِبِيُّ أَنَا قَتَلْتُ ٱلْمَرْزُبَانَ : فَأَتَاهُ جَرِيرٌ وَٱبْنُ ٱلْهَوْبَرِ فِي قَوْمِهِمَا فَأَخَذَا بِرِجْلِهِ فَأَنْزَلَاهُ . كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمَرْزُبَانِ أَنَّ جَرِيرًا وَٱلْمُنْذِرَ ٱشْتَرَكَا فِيهِ فَٱخْتَصَمَا فِي سِلَاحِهِ فَتَقَاضَيَا إِلَى ٱلْمُثَنَّى . فَجَعَلَ سِلَاحَهُ بَيْنَهُمَا وَٱلْمِنْطَقَةَ وَٱلسِّوَارَيْنِ بَيْنَهُمَا وَأَفْنَوْا قَلْبَ ٱلْمُشْرِكِينَ . كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ أَبِي رَوْقٍ قَالَ : وَٱللَّهِ إِنْ كُنَّا لَنَأْتِي ٱلْبُوَيْبَ فَنَرَى فِيمَا بَيْنَ مَوْضِعِ ٱلسَّكُونِ وَبَنِي سُلَيْمٍ عِظَامًا بِيضًا تَلُوحُ مِنْ هَامِهِمْ وَأَوْصَالِهِمْ يُعْتَبَرُ بِهَا . قَالَ وَحَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ شَهِدَهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْزُرُونَهَا بِمِائَةِ أَلْفِ قَتِيلٍ مِنَ ٱلْعَجَمِ وَمَا عُفِيَ عَلَيْهَا حَتَّى دَفَنَهَا أَدْفَانُ ٱلْبُيُوتِ

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ ٱلْحَرِثِ قَالَ: لَمَّا أَهْلَكَ ٱللهُ مِهْرَانَ ٱسْتَمْكَنَ ٱلْمُسْلِمُونَ مِنَ ٱلْغَارَةِ عَلَى ٱلسَّوَادِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِجْلَةَ فَمَخَرُوهَا لَا يَخَافُونَ كَيْدًا وَلَا يَلْقَوْنَ فِيهِ مَانِعًا. وَٱنْتَقَضَتْ مَسَالِحُ ٱلْعَجَمِ فَرَجَعَتْ إِلَيْهِمْ وَٱعْتَصَمُوا بِسَابَاطَ وَسَرَّهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا مَا وَرَاءَ دِجْلَةَ. فَكَانَتْ وَقْعَةُ ٱلْبُوَيْبِ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَلٰثَ عَشْرَةَ قَتَلَ ٱللهُ مِهْرَانَ وَجَيْشَهُ وَأَفْعَمُوا جَنَبَتَيِ ٱلْبُوَيْبِ عِظَامًا حَتَّى ٱسْتَوَى وَمَا عَفَّى عَلَيْهَا ٱلتُّرَابُ أَزْمَانَ ٱلْفِتْنَةِ وَمَا يُثَارُ هُنَالِكَ شَيْءٌ إِلَّا وَقَعُوا مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ. وَهُوَ مَا بَيْنَ ٱلسُّكُونِ وَمُرْهِبَةَ وَبَنِي سُلَيْمٍ وَكَانَ مَغِيضًا لِلْفُرَاتِ أَزْمَانَ ٱلْأَكَاسِرَةِ يَصُبُّ فِي ٱلْجَوْفِ. وَقَالَ ٱلْأَعْوَرُ ٱلْعَبْدِيُّ ٱلشَّنِّيُّ

هَاجَتْ لِأَعْوَرَ دَارُ ٱلْحَيِّ أَحْزَانَا   وَٱسْتَبْدَلَتْ بَعْدَ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ خَفَّانَا

وَقَدْ أَرَانَا بِهَا وَٱلشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ   إِذْ بِٱلنُّخَيْلَةِ قَتْلَى جُنْدِ مِهْرَانَا

أَزْمَانَ سَارَ ٱلْمُثَنَّى بِٱلْخُيُولِ لَهُمْ   فَقَتَّلَ ٱلزَّحْفَ مِنْ فُرْسٍ وَجِيلَانَا

سَمَا لِمِهْرَانَ وَٱلْجَيْشِ ٱلَّذِي مَعَهُ   حَتَّى أَبَادَهُمُ مَثْنَى وَوُحْدَانَا

نُخْبَةٌ

مِنْ كِتَابِ ٱلْفَخْرِيِّ فِي ٱلْآدَابِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلدُّوَلِ ٱلْإِسْلَامِيَّةِ

ذِكْرُ خِلَافَةِ هٰرُونَ ٱلرَّشِيدِ [1]

بُويِعَ بِٱلْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَمِئَةٍ. كَانَ ٱلرَّشِيدُ مِنْ أَفَاضِلِ ٱلْخُلَفَاءِ وَفُصَحَائِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ وَكُرَمَائِهِمْ كَانَ يَحُجُّ سَنَةً وَيَغْزُو سَنَةً. كَذٰلِكَ مُدَّةَ خِلَافَتِهِ إِلَّا سِنِينَ قَلِيلَةً. قَالُوا: وَكَانَ يُصَلِّي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِئَةَ رَكْعَةٍ. وَحَجَّ مَاشِيًا. وَلَمْ يَحُجَّ خَلِيفَةٌ مَاشِيًا غَيْرُهُ. وَكَانَ إِذَا حَجَّ حَجَّ مَعَهُ مِئَةٌ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ وَأَبْنَاؤُهُمْ. وَإِذَا لَمْ يَحُجَّ أَحَجَّ ثَلَثَمِئَةِ رَجُلٍ بِٱلنَّفَقَةِ ٱلسَّابِغَةِ. وَٱلْكِسْوَةِ ٱلظَّاهِرَةِ. وَكَانَ يَتَشَبَّهُ فِي أَفْعَالِهِ بِٱلْمَنْصُورِ إِلَّا فِي بَذْلِ ٱلْمَالِ. فَإِنَّهُ لَمْ يُرَ خَلِيفَةٌ أَسْمَحَ مِنْهُ بِٱلْمَالِ. وَكَانَ لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا يُؤَخِّرُ. وَكَانَ يُحِبُّ ٱلشِّعْرَ وَٱلشُّعَرَاءَ وَيَمِيلُ إِلَى أَهْلِ ٱلْأَدَبِ وَٱلْفِقْهِ. وَيَكْرَهُ

---

[1] اما هرون الرشيد احد الخلفاء العباسيين فقد ولد في سنة ٧٦٥ في ري من مدينا وتوفي في سنة ٨٠٩ في طوس. وقد اشتهر هذا الخليفة بمحاربته جيوش الملكة ايرينا في اسيا الصغرى لما قام مقام اخيه موسى الهادي على السدة الملوكية في سنة ٧٨٦. فشق على موسى فلاح اخيه هارون فقصد قتله. فلما رات والدتهما ان لا بد من قتل احد ولديها اختارت موت موسى على هارون الذي رفع شان دولة العباسيين الى اعلى ذرى العظمة والمجد. فاتى الفتوحات الشهيرة في اسيا وحارب مرارًا ايرينا ونيكفور الى ان اجبرهما على اداء الجزية واتسعت اتصالاته حتى المغرب. وتحالف مع كارلوس الكبير ملك فرنسا. ومما امتاز به هذا الخليفة حسن التفاته الى العلوم والصنائع فازهرت في ايام دولته. فحفظ العلماء والادباء عصا الترحال عند [illegible]. غير انه كثيرًا ما ابدى من القساوة المكروهة لاسيما ضد البرامكة الذين كانوا قد حازوا ملء انعامه

ٱلْمِرَآءَ فِي ٱلدِّينِ. وَكَانَ يُحِبُّ ٱلْمَدِيحَ لَا سِيَّمَا مِنْ شَاعِرٍ فَصِيحٍ. وَيُجْزِلُ ٱلْعَطَاءَ عَلَيْهِ

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: صَنَعَ ٱلرَّشِيدُ طَعَامًا وَزَخْرَفَ مَجَالِسَهُ وَأَحْضَرَ أَبَا ٱلْعَتَاهِيَةِ وَقَالَ لَهُ: صِفْ لَنَا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ نَعِيمِ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا: فَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا　　فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ ٱلْقُصُورِ

فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ: أَحْسَنْتَ ثُمَّ مَاذَا: فَقَالَ:

يُسْعَى عَلَيْكَ بِمَا ٱشْتَهَيْتَ　　لَدَى ٱلرَّوَاحِ أَوِ ٱلْبُكُورِ

فَقَالَ: حَسَنٌ ثُمَّ مَاذَا: فَقَالَ:

فَإِذَا ٱلنُّفُوسُ تَقَعْقَعَتْ　　فِي ظِلِّ حَشْرَجَةِ ٱلصُّدُورِ

فَهُنَاكَ تَعْلَمُ مُوقِنًا　　مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

فَبَكَى ٱلرَّشِيدُ. فَقَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى: بَعَثَ إِلَيْكَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِتَسُرَّهُ فَحَزَنْتَهُ: فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ: دَعْهُ فَإِنَّهُ رَآنَا فِي عَمًى فَكَرِهَ أَنْ يَزِيدَنَا مِنْهُ

وَكَانَ ٱلرَّشِيدُ يَتَوَاضَعُ لِلْعُلَمَاءِ. قَالَ أَبُو مُعَوِيَةَ ٱلضَّرِيرُ: وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلنَّاسِ. أَكَلْتُ مَعَ ٱلرَّشِيدِ يَوْمًا. فَصَبَّ عَلَى يَدِي ٱلْمَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا مُعَوِيَةَ. أَتَدْرِي مَنْ صَبَّ ٱلْمَاءَ عَلَى يَدِكَ: فَقُلْتُ لَا يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ أَنَا. فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هٰذَا إِجْلَالًا لِلْعِلْمِ. قَالَ نَعَمْ

فِي أَيَّامِهِ خَرَجَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. شَرْحُ كَيْفِيَّةِ ٱلْحَالِ فِي ذٰلِكَ

كَانَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ ٱللهِ قَدْ خَافَ مِمَّا جَرَى عَلَى أَخَوَيْهِ ٱلنَّفْسِ ٱلزَّكِيَّةِ وَإِبْرٰهِيمَ قَتِيلِ بَاخَمْرِي. فَمَضَى إِلَى ٱلدَّيْلَمِ. فَٱعْتَقَدُوا فِيهِ ٱسْتِحْقَاقَ ٱلإِمَامَةِ وَبَايَعُوهُ وَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلأَمْصَارِ وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ. فَٱغْتَمَّ ٱلرَّشِيدُ لِذٰلِكَ. وَنَدَبَ إِلَيْهِ ٱلْفَضْلَ بْنَ يَحْيَى فِي خَمْسِينَ أَلْفًا وَوَلَّاهُ جُرْجَانَ وَطَبَرِسْتَانَ وَٱلرَّيَّ وَغَيْرَ ذٰلِكَ. فَتَوَجَّهَ ٱلْفَضْلُ بِٱلْجُنُودِ. فَلَطَفَ بِيَحْيَى بْنِ عَبْدِ ٱللهِ وَحَذَّرَهُ وَخَوَّفَهُ وَرَغَّبَهُ. فَمَالَ يَحْيَى إِلَى ٱلصُّلْحِ وَطَلَبَ أَمَانًا بِخَطِّ ٱلرَّشِيدِ وَأَنْ يُشْهِدَ عَلَيْهِ فِيهِ ٱلْقُضَاةَ وَٱلْفُقَهَاءَ وَجِلَّةَ بَنِي هَاشِمٍ. فَأَجَابَهُ ٱلرَّشِيدُ إِلَى ذٰلِكَ وَسُرَّ بِهِ وَكَتَبَ لَهُ أَمَانًا بَلِيغًا بِخَطِّهِ. وَشَهِدَ عَلَيْهِ فِيهِ ٱلْقُضَاةُ وَٱلْفُقَهَاءُ وَمَشَايِخُ بَنِي هَاشِمٍ وَسَيَّرَ ٱلأَمَانَ مَعَ هَدَايَا وَتُحَفٍ. فَقَدِمَ يَحْيَى مَعَ ٱلْفَضْلِ. فَلَقِيَهُ ٱلرَّشِيدُ فِي أَوَّلِ ٱلأَمْرِ بِكُلِّ مَا أَحَبَّ. ثُمَّ حَبَسَهُ عِنْدَهُ وَٱسْتَفْتَى ٱلْفُقَهَاءَ فِي نَقْضِ ٱلأَمَانِ. فَمِنْهُمْ مَنْ أَفْتَى بِصِحَّتِهِ فَحَاجَّهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ أَفْتَى بِبُطْلَانِهِ فَأَبْطَلَهُ. ثُمَّ قَتَلَهُ بَعْدَ ظُهُورِ آيَةٍ لَهُ عَظِيمَةٍ

شَرْحُ ٱلآيَةِ ٱلَّتِي ظَهَرَتْ فِي قَضِيَّةِ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ ٱللهِ

حَضَرَ رَجُلٌ مِنْ آلِ ٱلزُّبَيْرِ بْنِ ٱلْعَوَّامِ عِنْدَ ٱلرَّشِيدِ وَسَعَى بِيَحْيَى وَقَالَ: إِنَّهُ بَعْدَ ٱلأَمَانِ فَعَلَ وَصَنَعَ وَدَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى نَفْسِهِ. فَأَحْضَرَهُ ٱلرَّشِيدُ مِنْ مَحْبِسِهِ وَجَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلزُّبَيْرِيِّ. وَسَأَلَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَأَنْكَرَ. فَوَاقَفَهُ ٱلزُّبَيْرِيُّ فَقَالَ لَهُ يَحْيَى: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَٱحْلِفْ: فَقَالَ ٱلزُّبَيْرِيُّ: وَٱللهِ ٱلطَّالِبِ ٱلْغَالِبِ وَأَرَادَ أَنْ يُتِمَّ ٱلْيَمِينَ: فَقَالَ لَهُ يَحْيَى: دَعْ هٰذِهِ ٱلْيَمِينَ فَإِنَّ ٱللهَ تَعَالَى إِذَا مَجَّدَهُ ٱلْعَبْدُ لَمْ يُعَجِّلْ عُقُوبَتَهُ. وَلٰكِنِ ٱحْلِفْ لِي بِيَمِينِ ٱلْبَرَاءَةِ. وَهِيَ يَمِينٌ عُظْمَى صُورَتُهَا أَنْ يَقُولَ عَنْ نَفْسِهِ: بَرِئَ مِنْ حَوْلِ

ٱللهِ وَقُوَّتِهِ . وَدَخَلَ فِي حَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهَا إِنْ كَانَ كَذَا وَكَذَا : فَلَمَّا سَمِعَ ٱلزُّبَيْرِيُّ هٰذِهِ ٱلْيَمِينَ ٱرْتَاعَ لَهَا وَقَالَ : مَا هٰذِهِ ٱلْيَمِينُ ٱلْغَرِيبَةُ وَٱمْتَنَعَ مِنَ ٱلْحَلِفِ بِهَا : فَقَالَ لَهُ ٱلرَّشِيدُ : مَا مَعْنَى ٱمْتِنَاعِكَ . إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَقُولُ فَمَا خَوْفُكَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْيَمِينِ : فَحَلَفَ بِهَا . فَمَا خَرَجَ مِنَ ٱلْمَجْلِسِ حَتَّى ضَرَبَ بِرِجْلِهِ وَمَاتَ . وَقِيلَ مَا ٱنْقَضَى ٱلنَّهَارُ حَتَّى مَاتَ . فَحَمَلُوهُ إِلَى ٱلْقَبْرِ وَحَطُّوهُ فِيهِ وَأَرَادُوا أَنْ يَطُمُّوا ٱلْقَبْرَ بِٱلتُّرَابِ . فَكَانُوا كُلَّمَا جَعَلُوا ٱلتُّرَابَ فِيهِ ذَهَبَ ٱلتُّرَابُ وَلَا يَنْطَمُّ ٱلْقَبْرُ فَعَلِمُوا أَنَّهَا آيَةٌ سَمَاوِيَّةٌ . فَسَقَّفُوا ٱلْقَبْرَ وَرَاحُوا . وَإِلَى ذٰلِكَ أَشَارَ أَبُو فِرَاسِ بْنُ حَمْدَانَ فِي مِيمِيَّتِهِ بِقَوْلِهِ :

يَا جَاهِدًا فِي مَسَاوِيهِمْ يُكَتِّمُهَا ... غَدْرُ ٱلرَّشِيدِ بِيَحْيَى كَيْفَ يَنْكَتِمُ

ذَاقَ ٱلزُّبَيْرِيُّ غِبَّ ٱلْحِنْثِ وَٱنْكَشَفَتْ ... عَنِ ٱبْنِ فَاطِمَةَ ٱلْأَقْوَالُ وَٱلتُّهَمُ

وَمَعَ ظُهُورِ مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْآيَةِ ٱلْعَظِيمَةِ قُتِلَ يَحْيَى فِي ٱلْحَبْسِ شَرَّ قِتْلَةٍ

وَكَانَتْ دَوْلَةُ ٱلرَّشِيدِ مِنْ أَحْسَنِ ٱلدُّوَلِ وَأَكْثَرِهَا وَقَارًا وَرَوْنَقًا وَخَيْرًا وَأَوْسَعِهَا رُقْعَةَ مَمْلَكَةٍ . جَبَى ٱلرَّشِيدُ مُعْظَمَ ٱلدُّنْيَا . وَكَانَ أَحَدُ عُمَّالِهِ صَاحِبَ مِصْرَ . وَلَمْ يَجْتَمِعْ عَلَى بَابِ خَلِيفَةٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْفُقَهَاءِ وَٱلْقُرَّاءِ وَٱلْقُضَاةِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلنُّدَمَاءِ وَٱلْمُغَنِّينَ مَا ٱجْتَمَعَ عَلَى بَابِ ٱلرَّشِيدِ . وَكَانَ يَصِلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَجْزَلَ صِلَةٍ وَيَرْفَعُهُ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ . وَكَانَ فَاضِلًا شَاعِرًا رَاوِيَةً لِلْأَخْبَارِ وَٱلْآثَارِ وَٱلْأَشْعَارِ . صَحِيحَ ٱلذَّوْقِ وَٱلتَّمْيِيزِ مَهِيبًا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ وَٱلْعَامَّةِ . قَبَضَ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ . وَأَحْضَرَهُ فِي قُبَّةٍ إِلَى بَغْدَادَ . فَحَبَسَهُ بِدَارِ ٱلسِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ . ثُمَّ قُتِلَ وَأَظْهَرَ أَنَّهُ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ

شَرْحُ كَيْفِيَّةِ ٱلْحَالِ فِي ذٰلِكَ. كَانَ بَعْضُ حُسَّادِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ مِنْ أَقَارِبِهِ قَدْ وَشَى بِهِ إِلَى ٱلرَّشِيدِ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ ٱلنَّاسَ يَحْمِلُونَ إِلَى مُوسَى خُمْسَ أَمْوَالِهِمْ وَيَعْتَقِدُونَ إِمَامَتَهُ وَإِنَّهُ عَلَى عَزْمِ ٱلْخُرُوجِ عَلَيْكَ. وَأَكْثَرَ فِي ٱلْقَوْلِ فَوَقَعَ ذٰلِكَ عِنْدَ ٱلرَّشِيدِ بِمَوْقِعٍ أَهَمَّهُ وَأَقْلَقَهُ. ثُمَّ أَعْطَى ٱلْوَاشِيَ مَالًا أَحَالَهُ بِهِ عَلَى ٱلْبِلَادِ. فَلَمْ يَسْتَمْتِعْ بِهِ وَمَا وَصَلَ ٱلْمَالُ مِنَ ٱلْبِلَادِ إِلَّا وَقَدْ مَرِضَ مَرْضَةً شَدِيدَةً وَمَاتَ فِيهَا. وَأَمَّا ٱلرَّشِيدُ فَإِنَّهُ حَجَّ فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةِ. فَلَمَّا وَرَدَ ٱلْمَدِينَةَ قَبَضَ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ وَحَمَلَهُ فِي قُبَّةٍ إِلَى بَغْدَادَ. فَحَبَسَهُ عِنْدَ ٱلسِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ وَكَانَ ٱلرَّشِيدُ بِٱلرَّقَّةِ. فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ فَقُتِلَ قَتْلًا خَفِيًّا. ثُمَّ أَدْخَلُوا عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُدُولِ بِٱلْكَرْخِ لِيُشَاهِدُوهُ إِظْهَارًا أَنَّهُ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ. صَلَوَاتُ ٱللّٰهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ. وَمَاتَ ٱلرَّشِيدُ بِطُوسَ. وَكَانَ خَرَجَ إِلَى خُرَاسَانَ لِمُحَارَبَةِ رَافِعِ بْنِ ٱللَّيْثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ. وَكَانَ هٰذَا رَافِعٌ قَدْ خَرَجَ وَخَلَعَ ٱلطَّاعَةَ وَتَغَلَّبَ عَلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَتَلَ عَامِلَهَا وَمَلَكَهَا وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ فَخَرَجَ ٱلرَّشِيدُ بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ. فَمَاتَ بِطُوسَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَمِئَةٍ

شَرْحُ حَالِ ٱلْوِزَارَةِ فِي أَيَّامِهِ

لَمَّا بُويِعَ بِٱلْخِلَافَةِ ٱسْتَوْزَرَ كَاتِبَهُ قَبْلَ ٱلْخِلَافَةِ يَحْيَى بْنَ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ وَظَهَرَتْ دَوْلَةُ بَنِي بَرْمَكَ مُذْ حِينَئِذٍ

شَرْحُ أَحْوَالِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْبَرْمَكِيَّةِ وَذِكْرُ مَبْدَإِهَا وَمَآلِهَا. كَانُوا قَدِيمًا عَلَى دِينِ ٱلْمَجُوسِ. ثُمَّ أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ. وَهٰذِهِ ٱلدَّوْلَةُ ٱلْبَرْمَكِيَّةُ كَانَتْ غُرَّةً فِي جَبْهَةِ ٱلدَّهْرِ وَتَاجًا عَلَى مَفْرِقِ ٱلْعَصْرِ. ضُرِبَتْ

بمكارمها الأمثالُ . وشُدّت إليها الرحالُ . ونيطت بها الآمالُ . وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها . ومنحتها أوفر إسعادها . فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة . والبحور زاخرة . والسيول دافقة . والغيوث ماطرة . أسواق الآداب عندهم نافقة . ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية . والدنيا في أيامهم عامرة . وأبهة المملكة ظاهرة . وهم ملجأ اللهيف ومعتصم الطريد . ولهم يقول أبو نواس :

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتمُ ... بني برمكٍ من رائحين وغادِ

ذكر وزارة يحيى بن خالد للرشيد . لمّا جلس الرشيد على سرير المملكة استوزر يحيى بن خالد بن برمك . وكان كاتبه ونائبه ووزيره قبل الخلافة . فنهض يحيى بن خالد بأعباء الدولة أتمّ نهوض . وسدّ الثغور . وتدارك الخلل . وجبى الأموال . وعمر الأطراف . وأظهر رونق الخلافة . وتصدّى لمهمات المملكة . وكان كاتبا بليغا لبيبا أديبا شديدا صائب الآراء حسن التدبير . ضابطا لما تحت يده . قويّا على الأمور . جوادا يباري الريح كرما وجودا . ممدّحا بكلّ لسان . حليما عفيفا وقورا مهيبا وله يقول القائل :

لا تراني مصافحا كفّ يحيى ... إنني إن فعلت ضيّعتُ مالي

لو يمسّ البخيلُ راحةَ يحيى ... لسخت نفسه ببذل النوالِ

ومن آراء يحيى السديدة ما قاله للهادي . وقد عزم على أن يخلع أخاه هرون من الخلافة ويبايع لابنه جعفر بن الهادي . وكان يحيى كاتب الرشيد وهو يترجّى أن يتولّى هرون الخلافة فيصير هو وزير الدولة .

فحلا الهادي بيحيى ووهب له عشرين ألف دينار . وحادثه في خلع هرون أخيه والمبايعة لجعفر ابنه . فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين : إن فعلت حملت الناس على نكث الأيمان ونقض العهود . وتجرأ الناس على مثل ذلك . ولو تركت أخاك هرون على ولاية العهد ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد في بيعته : فترك الهادي ذلك مدة . ثم غلب عليه حب الولد . فأحضر يحيى مرة ثانية وفاوضه في ذلك . فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين . لو حدث بك حادث الموت وقد خلعت أخاك وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ . أفترى كانت خلافته تصح . وكان مشايخ بني هاشم يرضون ذلك ويسلمون الخلافة إليه : قال لا . قال يحيى : فدع هذا الأمر حتى تأتيه عفوا . ولو لم يكن المهدي بايع لهرون لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بني أبيك : فصوب الهادي رأيه . وكان الرشيد بعد ذلك يرى هذه من أعظم أيادي يحيى بن خالد عنده

ومن مكارمه . قيل إن الرشيد لما نكب البرامكة واستأصل شأفتهم . حرم على الشعراء أن يرثوهم وأمر بالمؤاخذة على ذلك . فاجتاز بعض الحرس ببعض الخربات . فرأى إنسانا واقفا وفي يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة وهو ينشده ويبكي . فأخذه الحرس وأتى به إلى الرشيد وقص عليه الصورة . فاستحضره الرشيد وسأله عن ذلك . فاعترف به . فقال له الرشيد : أما سمعت تحريمي لرثائهم . لأفعلن بك ولأصنعن . فقال : يا أمير المؤمنين إن أذنت لي في حكاية حالي حكيتها

ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْتَ وَرَأْيُكَ. قَالَ قُلْ. قَالَ: إِنِّي كُنْتُ مِنْ أَصْغَرِ كُتَّابِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَأَرَقِّهِمْ حَالًا. فَقَالَ لِي يَوْمًا: أُرِيدُ أَنْ تُضِيفَنِي فِي دَارِكَ يَوْمًا فَقُلْتُ: يَا مَوْلَانَا أَنَا دُونَ ذٰلِكَ وَدَارِي لَا تَصْلُحُ لِهٰذَا. قَالَ: لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ. قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَأَمْهِلْنِي مُدَّةً حَتَّى أُصْلِحَ شَأْنِي وَمَنْزِلِي. ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْتَ وَرَأْيُكَ. قَالَ: كَمْ أُمْهِلُكَ. قُلْتُ سَنَةً. قَالَ كَثِيرٌ. قُلْتُ فَشُهُورًا. قَالَ نَعَمْ. فَمَضَيْتُ وَشَرَعْتُ فِي إِصْلَاحِ الْمَنْزِلِ وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ. فَلَمَّا تَهَيَّأَتِ الْأَسْبَابُ أَعْلَمْتُ الْوَزِيرَ بِذٰلِكَ فَقَالَ: نَحْنُ غَدًا عِنْدَكَ. فَمَضَيْتُ وَتَهَيَّأْتُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ. فَحَضَرَ الْوَزِيرُ فِي غَدٍ وَمَعَهُ ابْنَاهُ جَعْفَرٌ وَالْفَضْلُ وَعِدَّةٌ يَسِيرَةٌ مِنْ خَوَاصِّ أَتْبَاعِهِ. فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ وَنَزَلَ وَلَدَاهُ جَعْفَرٌ وَالْفَضْلُ وَمَنْ مَعَهُ وَقَالَ: يَا فُلَانُ أَنَا جَائِعٌ فَعَجِّلْ لِي بِشَيْءٍ. فَقَالَ لِيَ الْفَضْلُ ابْنُهُ: الْوَزِيرُ يُحِبُّ الْفَرَارِيجَ الْمَشْوِيَّةَ. فَعَجِّلْ مِنْهَا مَا حَضَرَ. فَدَخَلْتُ وَأَحْضَرْتُ شَيْئًا. فَأَكَلَ الْوَزِيرُ ثُمَّ قَامَ يَتَمَشَّى فِي الدَّارِ وَقَالَ: يَا فُلَانُ فَرِّجْنَا فِي دَارِكَ. فَقُلْتُ: يَا مَوْلَانَا هٰذِهِ هِيَ دَارِي لَيْسَ لِي غَيْرُهَا. فَقَالَ بَلَى لَكَ غَيْرُهَا. قُلْتُ وَاللّٰهِ مَا أَمْلِكُ سِوَاهَا. فَقَالَ: هَاتُوا بَنَّاءً. فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ لَهُ: افْتَحْ فِي هٰذَا الْحَائِطِ بَابًا. فَمَضَى لِيَفْتَحَ. فَقُلْتُ: يَا مَوْلَانَا كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُفْتَحَ بَابٌ إِلَى بُيُوتِ الْجِيرَانِ وَاللّٰهُ أَوْصَى بِحِفْظِ الْجَارِ. قَالَ: لَا بَأْسَ فِي ذٰلِكَ ثُمَّ فُتِحَ الْبَابُ. فَقَامَ الْوَزِيرُ وَابْنَاهُ فَدَخَلُوا فِيهِ وَأَنَا مَعَهُمْ فَخَرَجَ مِنْهُ إِلَى بُسْتَانٍ حَسَنٍ كَثِيرِ الْأَشْجَارِ وَالْمَاءُ يَتَدَفَّقُ فِيهِ وَبِهِ مِنَ الْمَقَاصِيرِ وَالْمَسَاكِنِ مَا يَرُوقُ كُلَّ نَاظِرٍ. وَفِيهِ مِنَ الْآلَاتِ وَالْفُرُشِ وَالْخَدَمِ وَالْجَوَارِي كُلُّ جَمِيلٍ بَدِيعٍ فَقَالَ: هٰذَا الْمَنْزِلُ

وَجَمِيعُ مَا فِيهِ لَكَ . فَقَبِلْتُ يَدَهُ وَدَعَوْتُ لَهُ وَتَحَقَّقْتُ ٱلْقِصَّةَ . فَإِذَا هُوَ مِنْ يَوْمَ حَادَثَنِي فِي مَعْنَى ٱلدَّعْوَةِ . قَدْ أَرْسَلَ وَٱشْتَرَى ٱلْأَمْلَاكَ ٱلْمُجَاوِرَةَ لِي . وَعَمَّرَهَا دَارًا حَسَنَةً وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ وَكُنْتُ أَرَى ٱلْعِمَارَةَ وَأَحْسِبُهَا لِبَعْضِ ٱلْجِيرَانِ . فَقَالَ لِٱبْنِهِ جَعْفَرٍ : يَا بُنَيَّ هٰذَا مَنْزِلٌ وَعِيَالٌ . فَٱلْمَادَّةُ مِنْ أَيْنَ تَكُونُ لَهُ . قَالَ جَعْفَرٌ : قَدْ أَعْطَيْتُهُ ٱلضَّيْعَةَ ٱلْفُلَانِيَّةَ بِمَا فِيهَا وَسَأَكْتُبُ لَهُ بِذٰلِكَ كِتَابًا . فَٱلْتَفَتَ إِلَى ٱبْنِهِ ٱلْفَضْلِ وَقَالَ لَهُ : يَا بُنَيَّ . فَمِنَ ٱلْآنِ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ دَخْلُ هٰذِهِ ٱلضَّيْعَةِ مَا ٱلَّذِي يُنْفِقُ . فَقَالَ ٱلْفَضْلُ : عَلَيَّ عَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ أَحْمِلُهَا إِلَيْهِ . فَقَالَ : فَعَجِّلَا لَهُ مَا قُلْتُمَا . فَكَتَبَ لِي جَعْفَرٌ بِٱلضَّيْعَةِ . وَحَمَلَ ٱلْفَضْلُ إِلَيَّ ٱلْمَالَ فَأَثْرَيْتُ وَٱرْتَفَعَتْ حَالِي وَكَسَبْتُ بَعْدَ ذٰلِكَ مَعَهُ مَالًا طَائِلًا أَنَا أَتَقَلَّبُ فِيهِ إِلَى ٱلْيَوْمِ . فَوَٱللهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا أَجِدُ فُرْصَةً أَتَمَكَّنُ فِيهَا مِنَ ٱلثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَٱلدُّعَاءِ لَهُمْ إِلَّا ٱنْتَهَزْتُهَا مُكَافَاةً لَهُمْ عَلَى إِحْسَانِهِمْ وَلَنْ أَقْدِرَ عَلَى مُكَافَأَتِهِ . فَإِنْ كُنْتَ قَاتِلِي عَلَى ذٰلِكَ . فَٱفْعَلْ مَا بَدَا لَكَ . فَرَقَّ ٱلرَّشِيدُ لِذٰلِكَ وَأَطْلَقَهُ وَأَذِنَ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ فِي رِثَائِهِمْ

قِيلَ إِنَّ هٰرُونَ ٱلرَّشِيدَ حَجَّ . وَمَعَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ . وَمَعَهُ وَلَدَاهُ ٱلْفَضْلُ وَجَعْفَرٌ . فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ جَلَسَ ٱلرَّشِيدُ وَمَعَهُ يَحْيَى . فَأَعْطَيَا ٱلنَّاسَ . وَجَلَسَ ٱلْأَمِينُ وَمَعَهُ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى فَأَعْطَيَا ٱلنَّاسَ . وَجَلَسَ ٱلْمَأْمُونُ وَمَعَهُ جَعْفَرٌ فَأَعْطَيَا ٱلنَّاسَ . فَأَعْطَوْا فِي تِلْكَ ٱلسَّنَةِ ثَلَاثَ أُعْطِيَاتٍ ضُرِبَتْ بِكَثْرَتِهَا ٱلْأَمْثَالُ . وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ عَامَ ٱلْأُعْطِيَاتِ ٱلثَّلٰثِ وَأَثْرَى ٱلنَّاسُ بِسَبَبِ ذٰلِكَ . وَفِي ذٰلِكَ يَقُولُ ٱلشَّاعِرُ

أَتَانَا بَنُو ٱلْآمَالِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ ... فَيَاطِيبَ أَخْبَارٍ وَيَاحُسْنَ مَنْظَرِ
لَهُمْ رِحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى ٱلْعِدَى ... وَأُخْرَى إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٱلْمُسَتَّرِ
إِذَا نَزَلُوا بَطْحَاءَ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ ... بِيَحْيَى وَبِٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَجَعْفَرِ
فَتُظْلِمُ بَغْدَادٌ وَتَجْلُو لَنَا ٱلدُّجَى ... بِمَكَّةَ مَا تَحْوُ ثَلَاثَةُ أَقْمُرِ
فَمَا خُلِقَتْ إِلَّا لِجُودٍ أَكُفُّهُمْ ... وَأَقْدَامُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادِ مِنْبَرِ
إِذَا رَاضَ يَحْيَى ٱلْأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ ... وَنَاهِيكَ مِنْ رَاعٍ لَهُ وَمُدَبِّرِ

كَانَ يَحْيَى يَقُولُ: مَا خَاطَبَنِي أَحَدٌ إِلَّا هِبْتُهُ. حَتَّى يَتَكَلَّمَ. فَإِذَا تَكَلَّمَ كَانَ بَيْنَ ٱثْنَتَيْنِ. إِمَّا أَنْ تَزِيدَ هَيْبَتُهُ أَوْ تَضْمَحِلَّ. وَكَانَ يَقُولُ: ٱلْمَوَاعِيدُ شِبَاكُ ٱلْكِرَامِ يَصِيدُونَ بِهَا مَحَامِدَ ٱلْأَحْرَارِ. كَانَ يَحْيَى إِذَا رَكِبَ يُعِدُّ صُرَرًا فِي كُلِّ صُرَّةٍ مِئَتَا دِرْهَمٍ يَدْفَعُهَا إِلَى ٱلْمُتَعَرِّضِينَ لَهُ

سِيرَةُ وَلَدِهِ ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى

كَانَ ٱلْفَضْلُ مِنْ كِرَامِ ٱلدُّنْيَا وَأَجْوَادِ أَهْلِ عَصْرِهِ. وَكَانَ قَدْ أَرْضَعَتْهُ أُمُّ هٰرُونَ ٱلرَّشِيدِ. وَأَرْضَعَتْ أُمُّهُ ٱلرَّشِيدَ. وَفِي ذٰلِكَ يَقُولُ مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ

كَفَى لَكَ فَخْرًا أَنَّ أَكْرَمَ حُرَّةٍ ... غَذَتْكَ بِثَدْيٍ وَٱلْخَلِيفَةَ وَاحِدِ
لَقَدْ زِنْتَ يَحْيَى فِي ٱلْمَشَاهِدِ كُلِّهَا ... كَمَا زَانَ يَحْيَى خَالِدًا فِي ٱلْمَشَاهِدِ

وَلَّاهُ ٱلرَّشِيدُ خُرَاسَانَ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَبُو ٱلْهَوْلِ ٱلشَّاعِرُ مَادِحًا مُعْتَذِرًا مِنْ شِعْرٍ كَانَ هَجَاهُ بِهِ فَأَنْشَدَهُ

سَرَى نَحْوَهُ مِنْ غَضْبَةِ ٱلْفَضْلِ عَارِضٌ ... لَهُ لُجَّةٌ فِيهَا ٱلْبَوَارِقُ وَٱلرَّعْدُ
وَكَيْفَ يَنَامُ ٱللَّيْلَ مُلْقٍ فِرَاشَهُ ... عَلَى مَدْرَجٍ يَعْتَادُهُ ٱلْأَسَدُ ٱلْوَرْدُ

وَمَا لِي إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ   مِنَ ٱلْجُرْمِ مَا يُخْشَى عَلَى مِثْلِهِ ٱلْحِقْدُ
فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ   وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ: لَا أَحْتَمِلُ تَفْرِيقَكَ بَيْنَ رِضَايَ وَإِحْسَانِي. وَهُمَا مَقْرُونَانِ فَإِنْ أَرَدْتَهُمَا مَعًا وَإِلَّا فَدَعْهُمَا مَعًا. ثُمَّ وَصَلَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ

حَدَّثَ إِسْحٰقُ بْنُ إِبْرٰهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيُّ قَالَ: كُنْتُ قَدْ رَبَّيْتُ جَارِيَةً وَثَقَّفْتُهَا وَعَلَّمْتُهَا حَتَّى بَرَعَتْ. ثُمَّ أَهْدَيْتُهَا إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى. فَقَالَ لِي يَا إِسْحٰقُ. إِنَّ رَسُولَ صَاحِبِ مِصْرَ قَدْ وَرَدَ إِلَيَّ يَسْأَلُنِي حَاجَةً أَقْتَرِحُهَا عَلَيْهِ. فَدَعْ هٰذِهِ ٱلْجَارِيَةَ عِنْدَكَ فَإِنِّي سَأَطْلُبُهَا وَأُعْلِمُهُ أَنِّي أُرِيدُهَا. فَإِنَّهُ سَوْفَ يَحْضُرُ إِلَيْكَ وَيُسَاوِمُكَ فِيهَا. فَلَا تَأْخُذْ فِيهَا أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ:
قَالَ إِسْحٰقُ: فَمَضَيْتُ بِٱلْجَارِيَةِ إِلَى مَنْزِلِي. فَجَاءَ إِلَيَّ رَسُولُ صَاحِبِ مِصْرَ وَسَأَلَنِي عَنِ ٱلْجَارِيَةِ فَأَخْرَجْتُهَا إِلَيْهِ. فَبَذَلَ فِيهَا عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ فَٱمْتَنَعْتُ. فَصَعِدَ إِلَى عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَٱمْتَنَعْتُ. فَصَعِدَ إِلَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا فَمَا مَلَكْتُ نَفْسِي حَتَّى قُلْتُ لَهُ بِعْتُكَ. وَسَلَّمْتُ ٱلْجَارِيَةَ إِلَيْهِ وَقَبَضْتُ مِنْهُ ٱلْمَالَ. ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ مِنَ ٱلْغَدِ إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فَقَالَ: يَا إِسْحٰقُ بِكَمْ بِعْتَ ٱلْجَارِيَةَ. قُلْتُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَأْخُذْ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا. قُلْتُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي وَٱللّٰهِ مَا مَلَكْتُ نَفْسِي مُنْذُ سَمِعْتُ لَفْظَةَ ثَلَاثِينَ. فَتَبَسَّمَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ صَاحِبِ ٱلرُّومِ قَدْ سَأَلَنِي أَيْضًا حَاجَةً وَسَأَقْتَرِحُ عَلَيْهِ هٰذِهِ ٱلْجَارِيَةَ وَأَدُلُّهُ عَلَيْكَ فَخُذْ جَارِيَتَكَ وَٱنْصَرِفْ إِلَى مَنْزِلِكَ. فَإِذَا سَاوَمَكَ فِيهَا فَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ

فَأَخَذْتُ ٱلْجَارِيَةَ وَٱنْصَرَفْتُ إِلَى مَنْزِلِي. فَأَتَانِي رَسُولُ صَاحِبِ ٱلرُّومِ وَسَاوَمَنِي فِي ٱلْجَارِيَةِ. فَطَلَبْتُ خَمْسِينَ أَلْفًا فَقَالَ: هٰذَا كَثِيرٌ وَلٰكِنْ تَأْخُذُ مِنِّي ثَلَاثِينَ أَلْفًا: فَوَاللهِ مَا مَلَكْتُ نَفْسِي مُنْذُ سَمِعْتُ لَفْظَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا حَتَّى قُلْتُ لَهُ: بِعْتُكَ. ثُمَّ قَبَضْتُ ٱلْمَالَ مِنْهُ وَسَلَّمْتُ ٱلْجَارِيَةَ إِلَيْهِ. وَمَضَيْتُ مِنَ ٱلْغَدِ إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ وَبِكَمْ بِعْتَ ٱلْجَارِيَةَ يَا إِسْحٰقُ. قُلْتُ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا. قَالَ سُبْحَانَ ٱللهِ مَا أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْخُذَ فِيهَا أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا. قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ وَٱللهِ إِنِّي لَمَّا سَمِعْتُ قَوْلَهُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا ٱسْتَرْخَتْ جَمِيعُ أَعْضَائِي. فَضَحِكَ وَقَالَ: خُذْ جَارِيَتَكَ وَٱذْهَبْ إِلَى مَنْزِلِكَ. فَفِي غَدٍ يَجِيءُ إِلَيْكَ رَسُولُ صَاحِبِ خُرَاسَانَ. فَقَوِّ نَفْسَكَ وَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا. قَالَ إِسْحٰقُ: فَأَخَذْتُ ٱلْجَارِيَةَ وَمَضَيْتُ إِلَى مَنْزِلِي. فَجَاءَنِي رَسُولُ صَاحِبِ خُرَاسَانَ وَسَاوَمَنِي فِيهَا. فَطَلَبْتُ خَمْسِينَ أَلْفًا فَقَالَ لِي: هٰذَا كَثِيرٌ وَلٰكِنْ تَأْخُذُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا. فَقَوَّيْتُ نَفْسِي وَٱمْتَنَعْتُ. فَصَعِدَ مَعِي إِلَى أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ. فَكَادَ عَقْلِي يَذْهَبُ مِنَ ٱلْفَرَحِ. وَلَمْ أَتَمَالَكْ أَنْ أَقُولَ لَهُ بِعْتُكَ: فَأَحْضَرَ ٱلْمَالَ وَأَقْبَضَنِيهِ وَسَلَّمْتُ ٱلْجَارِيَةَ إِلَيْهِ. وَمَضَيْتُ مِنَ ٱلْغَدِ إِلَى ٱلْفَضْلِ فَقَالَ لِي: بِكَمْ بِعْتَ ٱلْجَارِيَةَ: قُلْتُ: بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا. وَوَٱللهِ لَمَّا سَمِعْتُهَا مِنْهُ كَادَ عَقْلِي يَذْهَبُ. وَقَدْ حَصَلَ عِنْدِي جُعِلْتُ فِدَاكَ مِئَةُ أَلْفِ دِينَارٍ. وَلَمْ يَبْقَ لِي أَمَلٌ. فَأَحْسَنَ ٱللهُ جَزَاءَكَ. فَأَمَرَ بِٱلْجَارِيَةِ فَأُخْرِجَتْ إِلَيَّ وَقَالَ: يَا إِسْحٰقُ خُذْ جَارِيَتَكَ وَٱنْصَرِفْ. قَالَ إِسْحٰقُ: فَقُلْتُ هٰذِهِ ٱلْجَارِيَةُ وَٱللهِ أَعْظَمُ ٱلنَّاسِ بَرَكَةً فَأَعْتَقْتُهَا وَتَزَوَّجْتُهَا فَوَلَدَتْ

لِي أَوْلَادِي

قِيلَ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْإِمَامِ ٱبْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَضَرَ يَوْمًا عِنْدَ ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَمَعَهُ سَفَطٌ فِيهِ جَوْهَرٌ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ حَاصِلِي قَدْ قَصُرَ عَمَّا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ. وَقَدْ عَلَانِي دَيْنٌ مَبْلَغُهُ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَإِنِّي أَسْتَحِي أَنْ أُعْلِمَ أَحَدًا بِذٰلِكَ وَآنَفُ أَنْ أَسْأَلَ أَحَدًا مِنَ ٱلتُّجَّارِ أَنْ يُقْرِضَنِي ذٰلِكَ. وَإِنْ كَانَ مَعِي رَهْنٌ يَفِي بِٱلْقِيمَةِ. وَأَنْتَ أَبْقَاكَ ٱللهُ لَكَ تُجَّارٌ يُعَامِلُونَكَ. وَأَنَا أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْتَرِضَ لِي مِنْ أَحَدِهِمْ هٰذَا ٱلْمَبْلَغَ وَتُعْطِيَهُ هٰذَا ٱلرَّهْنَ: فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ: ٱلسَّمْعُ وَٱلطَّاعَةُ وَلٰكِنْ نُجْحُ هٰذِهِ ٱلْحَاجَةِ أَنْ تُقِيمَ عِنْدِي هٰذَا ٱلْيَوْمَ. فَأَقَامَ عِنْدَهُ. ثُمَّ إِنَّ ٱلْفَضْلَ أَخَذَ ٱلسَّفَطَ مِنْهُ وَهُوَ مَخْتُومٌ بِخَتْمِهِ. وَأَرْسَلَ مَعَهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَنَفَذَ ٱلدَّرَاهِمَ وَٱلسَّفَطَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَأَخَذَ خَطَّ وَكِيلِهِ بِقَبْضِهِ. فَأَقَامَ مُحَمَّدٌ فِي دَارِ ٱلْفَضْلِ إِلَى آخِرِ ٱلنَّهَارِ. ثُمَّ ٱنْصَرَفَ إِلَى دَارِهِ فَوَجَدَ ٱلسَّفَطَ وَمَعَهُ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ. فَسُرَّ بِذٰلِكَ سُرُورًا عَظِيمًا. فَلَمَّا كَانَ مِنَ ٱلْغَدِ بَكَّرَ إِلَى ٱلْفَضْلِ لِيَشْكُرَهُ عَلَى ذٰلِكَ. فَوَجَدَهُ قَدْ بَكَّرَ إِلَى دَارِ ٱلرَّشِيدِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَى دَارِ ٱلرَّشِيدِ. فَلَمَّا عَلِمَ ٱلْفَضْلُ بِهِ خَرَجَ مِنْ بَابٍ آخَرَ وَمَضَى إِلَى دَارِ أَبِيهِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ. فَحِينَ عَلِمَ بِهِ خَرَجَ بِبَابٍ آخَرَ وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ وَٱجْتَمَعَ بِهِ وَشَكَرَهُ عَلَى فِعْلِهِ وَقَالَ: إِنِّي بَكَّرْتُ إِلَيْكَ لِأَشْكُرَكَ عَلَى إِحْسَانِكَ: فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ: إِنِّي فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ فَرَأَيْتُ إِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَ أَلْفًا ٱلَّتِي حَمَلْتُهَا أَمْسِ إِلَيْكَ تَقْضِي بِهَا دَيْنَكَ. ثُمَّ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَتَقْتَرِضُ. فَبَعْدَ قَلِيلٍ يَعْلُوكَ مِثْلُهَا. فَبَكَّرْتُ ٱلْيَوْمَ إِلَى

أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَالَكَ وَأَخَذْتُ لَكَ مِنْهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُخْرَى. فَلَمَّا حَضَرْتَ إِلَى بَابِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ خَرَجْتُ أَنَا بِبَابٍ آخَرَ وَكَذٰلِكَ فَعَلْتُ لَمَّا حَضَرْتَ إِلَى بَابِ أَبِي لِأَنِّي مَا كُنْتُ أُوثِرُ أَنْ أَلْقَاكَ حَتَّى يُحْمَلَ ٱلْمَالُ إِلَى مَنْزِلِكَ وَقَدْ حُمِلَ: فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ: بِأَيِّ شَيْءٍ أُجَازِيكَ عَلَى هٰذَا ٱلْإِحْسَانِ مَا عِنْدِي شَيْءٌ أُجَازِيكَ بِهِ إِلَّا أَنِّي أَلْتَزِمُ بِٱلْأَيْمَانِ ٱلْمُؤَكَّدَةِ وَبِٱلطَّلَاقِ وَٱلْعَتَاقِ وَٱلْحَجِّ أَنِّي مَا أَقِفُ عَلَى بَابِ غَيْرِكَ وَلَا أَسْأَلُ سِوَاكَ: قَالُوا. وَحَلَفَ مُحَمَّدٌ أَيْمَانًا مُؤَكَّدَةً وَكَتَبَ بِهَا خَطَّهُ وَأَشْهَدَ بِهِ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَقِفُ بِبَابِ غَيْرِ ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى. فَلَمَّا ذَهَبَتْ دَوْلَةُ ٱلْبَرَامِكَةِ وَتَوَلَّى ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ ٱلْوِزَارَةَ بَعْدَهُمُ ٱحْتَاجَ مُحَمَّدٌ فَقَالُوا لَهُ: لَوْ رَكِبْتَ إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ... فَلَمْ يَفْعَلْ وَٱلْتَزَمَ بِٱلْيَمِينِ فَلَمْ يَرْكَبْ إِلَى أَحَدٍ وَلَمْ يَقِفْ عَلَى بَابِ أَحَدٍ حَتَّى مَاتَ

سِيرَةُ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ٱلْبَرْمَكِيِّ

كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فَصِيحًا لَبِيبًا ذَكِيًّا فَطِنًا كَرِيمًا حَلِيمًا. وَكَانَ ٱلرَّشِيدُ يَأْنَسُ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ أُنْسِهِ بِأَخِيهِ ٱلْفَضْلِ لِسُهُولَةِ أَخْلَاقِ جَعْفَرٍ وَشَرَاسَةِ أَخْلَاقِ ٱلْفَضْلِ. قَالَ ٱلرَّشِيدُ يَوْمًا لِيَحْيَى: يَا أَبِي مَا بَالُ ٱلنَّاسِ يُسَمُّونَ ٱلْفَضْلَ ٱلْوَزِيرَ ٱلصَّغِيرَ وَلَا يُسَمُّونَ جَعْفَرًا بِذٰلِكَ: فَقَالَ يَحْيَى: لِأَنَّ ٱلْفَضْلَ يَخْلُفُنِي. قَالَ: فَضُمَّ إِلَى جَعْفَرٍ أَعْمَالًا كَأَعْمَالِ ٱلْفَضْلِ. فَقَالَ يَحْيَى: إِنَّ خِدْمَتَكَ وَمُنَادَمَتَكَ تَشْغَلَانِهِ عَنْ ذٰلِكَ. فَجَعَلَ إِلَيْهِ أَمْرَ دَارِ ٱلرَّشِيدِ. وَسُمِّيَ بِٱلْوَزِيرِ ٱلصَّغِيرِ أَيْضًا

قَالَ ٱلرَّشِيدُ يَوْمًا لِيَحْيَى: قَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْقُلَ دِيوَانَ ٱلْخَاتَمِ مِنَ ٱلْفَضْلِ

إِلَى جَعْفَرٍ. وَقَدِ ٱسْتَحْيَيْتُ مِنْ مُكَاتَبَتِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَٱكْتُبْ أَنْتَ إِلَيْهِ. فَكَتَبَ يَحْيَى إِلَى ٱلْفَضْلِ: قَدْ أَمَرَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعْلَى ٱللّٰهُ أَمْرَهُ أَنْ تُحَوِّلَ ٱلْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكَ. فَأَجَابَهُ ٱلْفَضْلُ: قَدْ سَمِعْتُ لِمَا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي أَخِي وَمَا ٱنْتَقَلَتْ عَنِّي نِعْمَةٌ صَارَتْ إِلَيْهِ وَلَا غَرَبَتْ عَنِّي رُتْبَةٌ طَلَعَتْ عَلَيْهِ. فَقَالَ جَعْفَرٌ: لِلّٰهِ دَرُّ أَخِي مَا أَكْيَسَ نَفْسَهُ وَأَظْهَرَ دَلَائِلَ ٱلْفَضْلِ عَلَيْهِ وَأَقْوَى مِنَّةَ ٱلْعَقْلِ عِنْدَهُ وَأَوْسَعَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ ذَرْعَهُ

قِيلَ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى ٱلْبَرْمَكِيَّ. جَلَسَ يَوْمًا لِلشُّرْبِ وَأَحَبَّ ٱلْخَلْوَةَ. فَأَحْضَرَ نُدَمَاءَهُ ٱلَّذِينَ يَأْنَسُ بِهِمْ. وَجَلَسَ مَعَهُمْ وَقَدْ هُيِّئَ ٱلْمَجْلِسُ وَلَبِسُوا ٱلثِّيَابَ ٱلْمُصَبَّغَةَ وَكَانُوا إِذَا جَلَسُوا فِي مَجْلِسِ ٱلشَّرَابِ وَٱللَّهْوِ. لَبِسُوا ٱلثِّيَابَ ٱلْحُمْرَ وَٱلصُّفْرَ وَٱلْخُضْرَ. ثُمَّ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى تَقَدَّمَ إِلَى ٱلْحَاجِبِ أَنْ لَا يَأْذَنَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ ٱللّٰهِ تَعَالَى سِوَى رَجُلٍ مِنَ ٱلنُّدَمَاءِ كَانَ قَدْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ ٱسْمُهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ. ثُمَّ جَلَسُوا يَشْرَبُونَ. وَدَارَتِ ٱلْكَاسَاتُ. وَخَفَقَتِ ٱلْعِيدَانُ. وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ أَقَارِبِ ٱلْخَلِيفَةِ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ صَالِحِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ. وَكَانَ شَدِيدَ ٱلْوَقَارِ وَٱلدِّينِ وَٱلْحِشْمَةِ. وَكَانَ ٱلرَّشِيدُ قَدِ ٱلْتَمَسَ مِنْهُ أَنْ يُنَادِمَهُ وَيَشْرَبَ مَعَهُ وَبَذَلَ لَهُ عَلَى ذٰلِكَ أَمْوَالًا جَلِيلَةً فَلَمْ يَفْعَلْ. فَٱتَّفَقَ أَنَّ هٰذَا عَبْدَ ٱلْمَلِكِ بْنَ صَالِحٍ حَضَرَ إِلَى بَابِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى لِيُخَاطِبَهُ فِي حَوَائِجَ لَهُ. فَظَنَّ ٱلْحَاجِبُ أَنَّهُ هُوَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ ٱلَّذِي تَقَدَّمَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِٱلْإِذْنِ لَهُ وَأَنْ لَا يُدْخِلَ غَيْرَهُ. فَأَذِنَ ٱلْحَاجِبُ لَهُ. فَدَخَلَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ ٱلْعَبَّاسِيُّ عَلَى جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى. فَلَمَّا رَآهُ جَعْفَرٌ كَادَ عَقْلُهُ

يَذْهَبُ مِنَ الْحَيَاءِ وَفَطِنَ أَنَّ الْقِصَّةَ قَدِ اشْتَبَهَتْ عَلَى الْحَاجِبِ بِطَرِيقِ اشْتِبَاهِ الْاسْمِ. وَفَطِنَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ أَيْضًا لِلْقِصَّةِ وَظَهَرَ لَهُ الْخَجَلُ فِي وَجْهِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى. فَانْبَسَطَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَقَالَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ أَحْضِرُوا لَنَا مِنْ هٰذِهِ الثِّيَابِ الْمُصَبَّغَةِ شَيْئًا. فَأُحْضِرَ لَهُ قَمِيصٌ مَصْبُوغٌ فَلَبِسَهُ وَجَلَسَ يُبَاسِطُ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى وَيُمَازِحُهُ وَقَالَ: أَسْقُونَا مِنْ شَرَابِكُمْ فَسَقَوْهُ رِطْلًا وَقَالَ: ارْفُقُوا بِنَا فَلَيْسَ لَنَا عَادَةٌ بِهٰذَا. ثُمَّ بَاسَطَهُمْ وَمَازَحَهُمْ وَمَا زَالَ حَتَّى انْبَسَطَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَزَالَ انْقِبَاضُهُ وَحَيَاؤُهُ. فَفَرِحَ جَعْفَرُ بِذٰلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا وَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ. قَالَ جِئْتُ أَصْلَحَكَ اللّٰهُ فِي ثَلَاثِ حَوَائِجَ. أُرِيدُ أَنْ تُخَاطِبَ الْخَلِيفَةَ فِيهَا. أَوَّلُهَا أَنَّ عَلَيَّ دَيْنًا مَبْلَغُهُ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُرِيدُ قَضَاءَهُ. ثَانِيهَا أُرِيدُ وِلَايَةً لِابْنِي يَشْرُفُ بِهَا قَدْرُهُ. وَثَالِثُهَا أُرِيدُ أَنْ تُزَوِّجَ وَلَدِي بِابْنَةِ الْخَلِيفَةِ فَإِنَّهَا بِنْتُ عَمِّهِ وَهُوَ كُفْوٌ لَهَا. فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى: قَدْ قَضَى اللّٰهُ هٰذِهِ الْحَوَائِجَ الثَّلَاثَ. أَمَّا الْمَالُ فَفِي هٰذِهِ السَّاعَةِ يُحْمَلُ إِلَى مَنْزِلِكَ. وَأَمَّا الْوِلَايَةُ فَقَدْ وَلَّيْتُ ابْنَكَ مِصْرَ. وَأَمَّا الزَّوَاجُ فَقَدْ زَوَّجْتُهُ فُلَانَةَ ابْنَةَ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صَدَاقٍ مَبْلَغُهُ كَذَا وَكَذَا. فَانْصَرِفْ فِي أَمَانِ اللّٰهِ. فَرَاحَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى مَنْزِلِهِ. فَرَأَى الْمَالَ قَدْ سَبَقَهُ. وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ حَضَرَ جَعْفَرٌ عِنْدَ الرَّشِيدِ وَعَرَّفَهُ مَا جَرَى وَأَنَّهُ قَدْ وَلَّاهُ مِصْرَ وَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ. فَعَجِبَ الرَّشِيدُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَمْضَى الْعَقْدَ وَالْوِلَايَةَ. فَمَا خَرَجَ جَعْفَرٌ مِنْ دَارِ الرَّشِيدِ حَتَّى كَتَبَ لَهُ التَّقْلِيدَ بِمِصْرَ وَأَحْضَرَ الْقُضَاةَ وَالشُّهُودَ وَعَقَدَ الْعَقْدَ

وَقِيلَ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِ مِصْرَ عَدَاوَةٌ وَوَحْشَةٌ

ٱلدُّنْيَا. أَمَارَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱنْصِرَافِ دَوْلَتِهِمْ

حَدَّثَ بَخْتِيشُوعُ ٱلطَّبِيبُ قَالَ: دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى ٱلرَّشِيدِ وَهُوَ جَالِسٌ فِي قَصْرِ ٱلْخُلْدِ مِنْ مَدِينَةِ ٱلسَّلَامِ. وَكَانَ ٱلْبَرَامِكَةُ يَسْكُنُونَ بِحِذَائِهِ مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَرْضُ دِجْلَةَ. قَالَ: فَنَظَرَ ٱلرَّشِيدُ فَرَأَى ٱعْتِرَاكَ ٱلْخُيُولِ وَٱزْدِحَامَ ٱلنَّاسِ عَلَى بَابِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ فَقَالَ: جَزَى ٱللهُ يَحْيَى خَيْرًا تَصَدَّى لِلْأُمُورِ وَأَرَاحَنِي مِنَ ٱلْكَدِّ وَوَفَّرَ أَوْقَاتِي عَلَى ٱللَّذَّةِ. ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَوْقَاتٍ. وَقَدْ شَرَعَ يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِمْ. فَنَظَرَ فَرَأَى ٱلْخُيُولَ كَمَا رَآهَا تِلْكَ ٱلْمَرَّةَ. فَقَالَ ٱسْتَبَدَّ يَحْيَى بِٱلْأُمُورِ دُونِي. فَٱلْخِلَافَةُ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ لَهُ وَلَيْسَ لِي مِنْهَا إِلَّا ٱسْمُهَا. قَالَ: فَعَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَنْكُبُهُمْ ثُمَّ نَكَبَهُمْ عَقِيبَ ذٰلِكَ

شَرْحُ ٱلسَّبَبِ فِي نَكْبَةِ ٱلْبَرَامِكَةِ وَكَيْفِيَّةِ ٱلْحَالِ فِي ذٰلِكَ

إِخْتَلَفَ أَصْحَابُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ فِي ذٰلِكَ. فَقِيلَ كَانَ سَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلرَّشِيدَ كَلَّفَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى قَتْلَ رَجُلٍ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ. فَتَحَرَّجَ جَعْفَرٌ مِنْ ذٰلِكَ. وَأَطْلَقَ ٱلطَّالِبِيَّ وَسُعِيَ إِلَى ٱلرَّشِيدِ بِجَعْفَرٍ فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ ٱلطَّالِبِيُّ قَالَ: هُوَ فِي ٱلْحَبْسِ: قَالَ ٱلرَّشِيدُ: بِحَيَاتِي. فَفَطِنَ جَعْفَرٌ فَقَالَ: لَا وَحَيَاتِكَ وَلٰكِنْ أَطْلَقْتُهُ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ مَكْرُوهٌ. فَقَالَ لَهُ ٱلرَّشِيدُ: نِعْمَ مَا فَعَلْتَ. فَلَمَّا قَامَ جَعْفَرٌ قَالَ ٱلرَّشِيدُ: قَتَلَنِيَ ٱللهُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْكَ ثُمَّ نَكَبَهُمْ

وَقِيلَ إِنَّ أَعْدَاءَ ٱلْبَرَامِكَةِ مِثْلَ ٱلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ. مَا زَالُوا يَسْعَوْنَ بِهِمْ إِلَى ٱلرَّشِيدِ وَيَذْكُرُونَ لَهُ ٱسْتِبْدَادَهُمْ بِٱلْمُلْكِ وَٱحْتِجَانَهُمْ لِلْأَمْوَالِ

حَتَّى أَوْغَرُوا صَدْرَهُ فَأَوْقَعَ بِهِمْ

وَقِيلَ إِنَّ جَعْفَرًا وَٱلْفَضْلَ ٱبْنَيْ يَحْيَى ظَهَرَ مِنْهُمَا مِنَ ٱلْإِدْلَالِ مَا لَا تَحْتَمِلُهُ نُفُوسُ ٱلْمُلُوكِ. فَنَكَبَهُمْ لِذٰلِكَ

وَقِيلَ إِنَّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ رُئِيَ وَهُوَ بِمَكَّةَ يَطُوفُ حَوْلَ ٱلْبَيْتِ وَيَقُولُ ٱللَّهُمَّ إِنْ كَانَ رِضَاكَ فِي أَنْ تَسْلُبَنِي أَهْلِي وَمَالِي وَوَلَدِي. فَٱسْلُبْنِي إِلَّا ٱلْفَضْلَ وَلَدِي. ثُمَّ وَلَّى فَلَمَّا مَشَى قَلِيلًا عَادَ وَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّهُ سَمِجٌ بِمِثْلِي أَنْ يَسْتَثْنِيَ عَلَيْكَ ٱللَّهُمَّ وَٱلْفَضْلَ. فَنَكَبَهُمُ ٱلرَّشِيدُ بَعْدَ قَلِيلٍ وَقِيلَ غَيْرُ ذٰلِكَ

شَرْحُ مَقْتَلِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَٱلْقَبْضِ عَلَى أَهْلِهِ

كَانَ ٱلرَّشِيدُ قَدْ حَجَّ. فَلَمَّا عَادَ مِنَ ٱلْحَجِّ سَارَ مِنَ ٱلْحِيرَةِ إِلَى ٱلْأَنْبَارِ فِي ٱلسُّفُنِ وَجَعَلَ يَشْرَبُ وَرَكِبَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى ٱلصَّيْدِ وَجَعَلَ يَشْرَبُ تَارَةً وَيَلْهُو أُخْرَى وَتُحَفُ ٱلرَّشِيدِ وَهَدَايَاهُ تَأْتِيهِ وَعِنْدَهُ بَخْتِيشُوعُ ٱلطَّبِيبُ وَأَبُو زَكَّارٍ ٱلْأَعْمَى يُغَنِّيهِ. فَلَمَّا أَظَلَّ ٱلْمَسَاءَ دَعَا ٱلرَّشِيدُ مَسْرُورًا ٱلْخَادِمَ. وَكَانَ مُبْغِضًا لِجَعْفَرٍ وَقَالَ: ٱذْهَبْ فَجِئْنِي بِرَأْسِ جَعْفَرٍ وَلَا تُرَاجِعْنِي. فَوَافَاهُ مَسْرُورٌ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَهَجَمَ عَلَيْهِ وَأَبُو زَكَّارٍ يُغَنِّيهِ

فَلَا تَبْعَدْ فَكُلُّ فَتًى سَيَأْتِي عَلَيْهِ ٱلْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُغَادِي

فَلَمَّا دَخَلَ مَسْرُورٌ قَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى: لَقَدْ سَرَرْتَنِي بِمَجِيئِكَ وَسُؤْتَنِي بِدُخُولِكَ عَلَيَّ بِغَيْرِ إِذْنٍ. فَقَالَ ٱلَّذِي جِئْتُ بِهِ أَعْظَمُ أَجِبْ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يُرِيدُ بِكَ. فَوَقَعَ عَلَى رِجْلَيْهِ فَقَبَّلَهُمَا وَقَالَ لَهُ: عَاوِدْ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ ٱلشَّرَابَ قَدْ حَمَلَهُ عَلَى ذٰلِكَ وَقَالَ: دَعْنِي أَدْخُلُ

دَارِي فَأُوصِي . فَقَالَ : ٱلدُّخُولُ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ . وَأَمَّا ٱلْوَصِيَّةُ فَأَوْصِ بِمَا بَدَا لَكَ فَأَوْصَى . ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مَنْزِلِ ٱلرَّشِيدِ وَعَدَلَ بِهِ إِلَى قُبَّةٍ وَضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَتَى بِرَأْسِهِ عَلَى تُرْسٍ إِلَى ٱلرَّشِيدِ وَبِبَدَنِهِ فِي نَطْعٍ . وَوَجَّهَ ٱلرَّشِيدُ فَقَبَضَ عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَحَبَسَهُمْ بِٱلرَّقَّةِ وَٱسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ . وَمِنْ ظَرِيفِ مَا وَقَعَ فِي ذٰلِكَ مَا رَوَاهُ ٱلْعِمْرَانِيُّ ٱلْمُؤَرِّخُ قَالَ : حَدَّثَ فُلَانٌ قَالَ : دَخَلْتُ ٱلدِّيوَانَ فَنَظَرْتُ فِي بَعْضِ تَذَاكِرِ ٱلنُّوَّابِ فَرَأَيْتُ فِيهَا أَرْبَعَ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ثَمَنَ خِلْعَةٍ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ٱلْوَزِيرِ . ثُمَّ دَخَلْتُ بَعْدَ أَيَّامٍ فَرَأَيْتُ تَحْتَ ذٰلِكَ عَشَرَةَ قَرَارِيطَ ثَمَنَ نَفْطٍ وَبَوَارِي لِإِحْرَاقِ جُثَّةِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى فَعَجِبْتُ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ ٱسْتَوْزَرَ ٱلرَّشِيدُ بَعْدَ ٱلْبَرَامِكَةِ ٱلْفَضْلَ بْنَ ٱلرَّبِيعِ وَكَانَ حَاجِبَهُ

وِزَارَةُ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ

فَكَانَ حَاجِبًا لِلْمَنْصُورِ وَٱلْمَهْدِيِّ وَٱلْهَادِي وَٱلرَّشِيدِ . فَلَمَّا نَكَبَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْبَرَامِكَةَ ٱسْتَوْزَرَهُ بَعْدَهُمْ . كَانَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ شَهْمًا خَبِيرًا بِأَحْوَالِ ٱلْمُلُوكِ وَآدَابِهِمْ . وَلَمَّا وَلِيَ ٱلْوِزَارَةَ تَهَوَّسَ بِٱلْأَدَبِ وَجَمَعَ إِلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعِلْمِ فَحَصَّلَ مِنْهُ مَا أَرَادَ فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ . وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ مِنْ شُعَرَائِهِ ٱلْمُنْقَطِعِينَ إِلَيْهِ فَمِنْ شِعْرِهِ فِي آلِ ٱلرَّبِيعِ

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا ٱضْطَرَمَ ٱلْوَغَى ۞ وَٱلْفَضْلُ فَضْلٌ وَٱلرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمَا زَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ عَلَى وِزَارَتِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ ٱلرَّشِيدُ بِطُوسَ . فَجَمَعَ ٱلْفَضْلُ ٱلْعَسْكَرَ وَمَا فِيهِ وَرَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ . ٱنْتَهَى ذِكْرُ خِلَافَةِ هٰرُونَ ٱلرَّشِيدِ

ذِكْرُ خِلَافَةِ أَبِي أَحْمَدَ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْمُسْتَعْصِمِ بِٱللّٰهِ

بُويِعَ لَهُ بِٱلْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَسِتِّمِئَةٍ هُوَ آخِرُ ٱلْخُلَفَاءِ[1] . كَانَ ٱلْمُسْتَعْصِمُ رَجُلًا خَيِّرًا مُتَدَيِّنًا لَيِّنَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلْعَرِيكَةِ عَفِيفَ ٱللِّسَانِ وَٱلْفَرْجِ . حَمَلَ ٱلْكِتَابَ وَكَتَبَ خَطًّا مَلِيحًا وَكَانَ سَهْلَ ٱلْأَخْلَاقِ وَكَانَ خَفِيفَ ٱلْوَطْأَةِ . إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُسْتَضْعَفَ ٱلرَّأْيِ ضَعِيفَ ٱلْبَطْشِ قَلِيلَ ٱلْخِبْرَةِ بِأُمُورِ ٱلْمَمْلَكَةِ . مَطْمُوعًا فِيهِ غَيْرَ مَهِيبٍ فِي ٱلنُّفُوسِ وَلَا مُطَّلِعٍ عَلَى حَقَائِقِ ٱلْأُمُورِ . وَكَانَ زَمَانُهُ يَنْقَضِي أَكْثَرُهُ بِسَمَاعِ ٱلْأَغَانِي وَٱلتَّفَرُّجِ عَلَى ٱلْمَسَاخِرِ . وَفِي بَعْضِ ٱلْأَوْقَاتِ يَجْلِسُ بِخِزَانَةِ ٱلْكُتُبِ جُلُوسًا لَيْسَ فِيهِ كَبِيرُ فَائِدَةٍ . وَكَانَ أَصْحَابُهُ مُسْتَوْلِينَ عَلَيْهِ وَكُلُّهُمْ جُهَّالٌ مِنْ أَرْذَالِ ٱلْعَوَامِّ . إِلَّا وَزِيرَهُ مُؤَيَّدَ ٱلدِّينِ مُحَمَّدَ بْنَ ٱلْعَلْقَمِيِّ . فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَعْيَانِ ٱلنَّاسِ وَعُقَلَاءِ ٱلرِّجَالِ . وَكَانَ مَكْفُوفَ ٱلْيَدِ مَرْدُودَ ٱلْقَوْلِ يَتَرَقَّبُ ٱلْعَزْلَ وَٱلْقَبْضَ

---

[1] الخلفاء هم الذين خلفوا محمد بن عبد الله نبي الاسلام وتولوا الامر من بعده بين العرب وكان في يدهم امر السياسة والدين معاً . وهم اولاً خلفاء المشرق وكانت دار خلافتهم مكة الى وفاة الامام علي بن ابي طالب . ثم الشام في دولة بني امية . ثم بغداد في دولة بني العبّاس . وكانت مدتهم جميعاً ٦٣٢ سنة وذلك من سنة ٦٢٦ للميلاد الى سنة ١٢٥٨ •

ثانياً خلفاء الاندلس واول من ولي الخلافة هنالك عبد الرحمن الاموي من ملوك الشام وذلك سنة ٦٥٧ وكانت مدتهم ٣٧٤ سنة اي من التاريخ المذكور الى سنة ١٠٣١ •

ثالثاً خلفاء مصر وهم الفاطميون واول من ولي الخلافة منهم عُبَيْد الله من سلالة فاطمة بنت محمد وذلك سنة ٩٠٩ واستمرّت خلافتهم ٢٦٢ سنة حتى اضمحلّت سنة ١١٧١ على يد الملك صلاح الدين الايوبي •

وكان تقليد الخلافة في صدر الاسلام بالمبايعة الى ان جاء معوية بن ابي سفيان الأموي في آخر القرن الاول فمنع المبايعة وقرّر الخلافة في صلبه واستمرّ الحال على ذلك الى سنة ٩٣٥ حيث خلعهم امور الامراء عن امر السياسة . وبقيت الخلافة متداركة بين العرب الى ظهور السلطان سليم العثماني فاستلم الخلافة من المتوكل آخر خلفاء بني العباس وذلك سنة ١٥١٦ فكانت مدة جميعهم ٨٨٠ سنة (بولس)

صَبَاحَ مَسَاءَ . وَكَانَتْ عَادَةُ ٱلْخُلَفَاءِ أَكْثَرِهِمْ أَنْ يَحْبِسُوا أَوْلَادَهُمْ وَأَقَارِبَهُمْ وَبِذٰلِكَ جَرَتْ سُنَّتُهُمْ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ ٱلْمُسْتَنْصِرِ . فَلَمَّا وَلِيَ ٱلْمُسْتَعْصِمُ أَطْلَقَ أَوْلَادَهُ ٱلثَّلَاثَةَ وَلَمْ يَحْبِسْهُمْ وَهُمُ ٱلْأَمِيرُ ٱلْكَبِيرُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدُ وَٱلْعَامَّةُ تُسَمِّيهِ أَبَا بَكْرٍ لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ بِذٰلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا نُهِبَ ٱلْكَرْخُ نُسِبَ ٱلْأَمْرُ فِي ذٰلِكَ إِلَيْهِ . وَقِيلَ إِنَّهُ هُوَ ٱلَّذِي أَشَارَ بِذٰلِكَ وَٱلْأَمِيرُ ٱلْأَوْسَطُ وَهُوَ أَبُو ٱلْفَضَائِلِ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ كَانَ شَهْمًا خَرَجَ إِلَى بَيْنِ يَدَيِ ٱلسُّلْطَانِ هُولَاكُو وَوَقَعَ كَلَامُهُ بِمَوْضِعِ ٱلِاسْتِحْسَانِ فِي ٱلْحَضْرَةِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَٱلْأَمِيرُ ٱلْأَصْغَرُ أَبُو ٱلْمَنَاقِبِ

حَدَّثَنِي صَفِيُّ ٱلدِّينِ عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ بْنُ فَاخِرٍ ٱلْأُرْمَوِيُّ وَكَانَ قَدْ صَارَ فِي آخِرِ أَيَّامِ ٱلْمُسْتَعْصِمِ مُقَرَّبًا عِنْدَهُ وَمِنْ خَوَاصِّهِ . وَكَانَ قَدِ ٱسْتَجَدَّ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ خِزَانَةَ كُتُبٍ وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ نَفَائِسِ ٱلْكُتُبِ وَسَلَّمَ مَفَاتِيحَهَا إِلَى عَبْدِ ٱلْمُؤْمِنِ . فَصَارَ عَبْدُ ٱلْمُؤْمِنِ يَجْلِسُ بِبَابِ ٱلْخِزَانَةِ يَنْسَخُ لَهُ مَا يُرِيدُ . وَإِذَا خَطَرَ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْجُلُوسُ فِي خِزَانَةِ ٱلْكُتُبِ جَاءَ إِلَيْهَا وَعَدَلَ عَنِ ٱلْخِزَانَةِ ٱلْأُولَى ٱلَّتِي كَانَتْ مُسَلَّمَةً إِلَى ٱلشَّيْخِ صَدْرِ ٱلدِّينِ عَلِيِّ بْنِ ٱلنَّيَّارِ . قَالَ . أَعْنِي عَبْدَ ٱلْمُؤْمِنِ : كُنْتُ مَرَّةً جَالِسًا فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ وَأَنَا أَنْسَخُ وَهُنَاكَ مَرْتَبَةٌ بِرَسْمِ ٱلْخَلِيفَةِ إِذَا جَاءَ إِلَى هُنَاكَ جَلَسَ عَلَيْهَا . وَقَدْ بُسِطَتْ عَلَيْهَا مِلْحَفَةٌ لِتَرُدَّ عَنْهَا ٱلْغُبَارَ . فَجَاءَ خُوَيْدِمٌ صَغِيرٌ وَنَامَ قَرِيبًا مِنَ ٱلْمَرْتَبَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ وَٱسْتَغْرَقَ فِي ٱلنَّوْمِ فَتَقَلَّبَ حَتَّى تَلَفَّفَ فِي تِلْكَ ٱلْمِلْحَفَةِ ٱلْمَبْسُوطَةِ عَلَى ٱلْمَرْتَبَةِ ثُمَّ تَقَلَّبَ حَتَّى صَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى ٱلْمَسْنَدِ . قَالَ وَأَنَا مَشْغُولٌ بِٱلنَّسْخِ فَأَحْسَسْتُ بِوَطْءٍ فِي ٱلدِّهْلِيزِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ ٱلْخَلِيفَةُ

وَهُوَ يَسْتَدْعِينِي بِالْإِشَارَةِ وَيُخَفِّفُ وَطْأَهُ. فَقُمْتُ إِلَيْهِ مُتَزَعِجًا وَقَبَّلْتُ الْأَرْضَ فَقَالَ لِي: هٰذَا الْخُوَيْدِمُ الَّذِي قَدْ نَامَ حَتَّى تَلَفَّفَ فِي هٰذِهِ اللِّحْفَةِ وَصَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى الْمَسْنَدِ مَتَى هَجَمْتُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَيَعْلَمَ أَنِّي قَدْ شَاهَدْتُهُ عَلَى هٰذِهِ الْحَالِ تَنْفَطِرُ مَرَارَتُهُ مِنَ الْخَوْفِ. فَأَيْقِظْهُ أَنْتَ بِرِفْقٍ فَإِنِّي سَأَخْرُجُ إِلَى الْبُسْتَانِ ثُمَّ أَعُودُ. قَالَ وَخَرَجَ الْخَلِيفَةُ فَدَخَلْتُ إِلَى الْخُوَيْدِمِ وَأَيْقَظْتُهُ فَانْتَبَهَ ثُمَّ أَصْلَحْنَا الْمَرْتَبَةَ ثُمَّ دَخَلَ الْخَلِيفَةُ

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ بَغْدَادَ حُدِّثْتُ أَنَّ الشَّيْخَ صَدْرَ الدِّينِ بْنَ النَّيَّارِ شَيْخَ الْخَلِيفَةِ قَالَ: دَخَلْتُ مَرَّةً إِلَى خِزَانَةِ الْكُتُبِ عَلَى عَادَتِي وَفِي كُمِّي مِنْدِيلٌ فِيهِ رِقَاعٌ كَثِيرَةٌ لِجَمَاعَةٍ مِنْ أَرْبَابِ الْحَوَائِجِ فَطَرَحْتُ الْمِنْدِيلَ وَفِيهِ الرِّقَاعُ فِي مَوْضِعٍ ثُمَّ قُمْتُ لِبَعْضِ شَأْنِي. فَلَمَّا عُدْتُ إِلَى الْخِزَانَةِ بَعْدَ سَاعَةٍ حَلَلْتُ الرِّقَاعَ مِنَ الْمِنْدِيلِ حَتَّى أَتَأَمَّلَهَا وَأُقَدِّمَ مِنْهَا الْمُهِمَّ فَرَأَيْتُهَا جَمِيعَهَا وَعَلَيْهَا تَوْقِيعُ الْخَلِيفَةِ بِالْإِجَابَةِ إِلَى جَمِيعِ مَا فِيهَا. فَعَلِمْتُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْخِزَانَةِ عِنْدَ قِيَامِي فَرَأَى الْمِنْدِيلَ وَفِيهِ الرِّقَاعُ فَفَتَحَهَا وَوَقَّعَ عَلَى جَمِيعِهَا

وَالْمُسْتَعْصِمُ هُوَ آخِرُ خُلَفَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ وَلَمْ يَجْرِ فِي أَيَّامِ الْمُسْتَعْصِمِ شَيْءٌ يُؤْثَرُ سِوَى نَهْبِ الْكَرْخِ وَبِئْسَ الْأَثَرُ ذٰلِكَ. وَفِي آخِرِ أَيَّامِهِ قَوِيَتِ الْأَرَاجِيفُ بِوُصُولِ عَسْكَرِ الْمَغُولِ صُحْبَةَ السُّلْطَانِ هُولَاكُو فَلَمْ يُحَرِّكْ ذٰلِكَ مِنْهُ عَزْمًا وَلَا نَبَّهَ مِنْهُ هِمَّةً وَلَا أَحْدَثَ عِنْدَهُ هَمًّا. وَكَانَ كُلَّمَا سُمِعَ عَنِ السُّلْطَانِ مِنَ الِاحْتِيَاطِ وَالِاسْتِعْدَادِ شَيْءٌ ظَهَرَ مِنَ الْخَلِيفَةِ نَقِيضُهُ مِنَ التَّفْرِيطِ وَالْإِهْمَالِ. وَلَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ حَقِيقَةَ الْحَالِ فِي ذٰلِكَ

وَلَا يَعْرِفُ هٰذِهِ ٱلدَّوْلَةَ يَسَّرَ ٱللّٰهُ إِحْسَانَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا حَقَّ ٱلْمَعْرِفَةِ. وَكَانَ وَزِيرُهُ مُؤَيَّدُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْعَلْقَمِيِّ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ ٱلْحَالِ فِي ذٰلِكَ وَيُكَاتِبُهُ بِٱلتَّحْذِيرِ وَٱلتَّنْبِيهِ وَيُشِيرُ عَلَيْهِ بِٱلتَّيَقُّظِ وَٱلِٱسْتِعْدَادِ وَهُوَ لَا يَزْدَادُ إِلَّا غُفُولًا. وَكَانَ خَوَاصُّهُ يُوهِمُونَهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي هٰذَا كَبِيرُ خَطَرٍ وَلَا هُنَاكَ مَحْذُورٌ وَأَنَّ ٱلْوَزِيرَ إِنَّمَا يُعَظِّمُ هٰذَا لِيَنْفُقَ سُوقُهُ وَلِتَبْرُزَ إِلَيْهِ ٱلْأَمْوَالُ لِيُجَنِّدَ بِهَا ٱلْعَسَاكِرَ فَيَقْتَطِعَ مِنْهَا لِنَفْسِهِ. وَمَا زَالَتْ غَفْلَةُ ٱلْخَلِيفَةِ تَنْمِي وَيَقَظَةُ ٱلْجَانِبِ ٱلْآخَرِ تَتَضَاعَفُ حَتَّى وَصَلَ ٱلْعَسْكَرُ ٱلسُّلْطَانِيُّ إِلَى هَمَذَانَ وَأَقَامَ بِهَا مُدَّةً. ثُمَّ تَوَاتَرَتِ ٱلرُّسُلُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ إِلَى ٱلدِّيوَانِ ٱلْمُسْتَعْصِمِيِّ فَوَقَعَ ٱلتَّعْيِينُ مِنْ دِيوَانِ ٱلْخَلِيفَةِ عَلَى وَلَدِ أُسْتَاذِ ٱلدَّارِ وَهُوَ شَرَفُ ٱلدِّينِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْجَوْزِيِّ فَبُعِثَ رَسُولًا إِلَى خِدْمَةِ ٱلدَّرْكَاهِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ بِهَمَذَانَ. فَلَمَّا وَصَلَ وَسُمِعَ جَوَابُهُ عُلِمَ أَنَّهُ جَوَابُ مُغَالَطَةٍ وَمُدَافَعَةٍ

فَحِينَئِذٍ وَقَعَ ٱلشُّرُوعُ فِي قَصْدِ بَغْدَادَ وَبَثِّ ٱلْعَسَاكِرِ إِلَيْهَا. فَتَوَجَّهَ عَسْكَرٌ كَثِيفٌ مِنَ ٱلْمَغُولِ وَٱلْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ بَاجُو إِلَى تَكْرِيتَ لِيَعْبُرُوا مِنْ هُنَاكَ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ وَيَقْصِدُوا بَغْدَادَ مِنْ غَرْبِيِّهَا وَيَقْصِدَهَا ٱلْعَسْكَرُ ٱلسُّلْطَانِيُّ مِنْ شَرْقِيِّهَا. فَلَمَّا عَبَرَ عَسْكَرُ بَاجُو مِنْ تَكْرِيتَ وَٱنْحَدَرَ إِلَى أَعْمَالِ بَغْدَادَ أَجْفَلَ ٱلنَّاسُ مِنْ دُجَيْلٍ وَٱلْإِسْحَاقِيِّ وَنَهْرِ مَلِكٍ وَنَهْرِ عِيسَى وَدَخَلُوا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ حَتَّى كَانَ ٱلرَّجُلُ أَوِ ٱلْمَرْأَةُ يَقْذِفُ بِنَفْسِهِ فِي ٱلْمَاءِ وَكَانَ ٱلْمَلَّاحُ إِذَا عَبَّرَ أَحَدًا فِي سَفِينَةٍ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ يَأْخُذُ أُجْرَتَهُ سِوَارًا مِنْ ذَهَبٍ أَوْ طِرَازًا مِنْ زَرْكَشٍ أَوْ عِدَّةً مِنَ ٱلدَّنَانِيرِ. فَلَمَّا وَصَلَ ٱلْعَسْكَرُ ٱلسُّلْطَانِيُّ إِلَى دُجَيْلٍ وَهُوَ يَزِيدُ عَلَى

ثَلَاثِينَ أَلْفَ فَارِسٍ خَرَجَ إِلَيْهِ عَسْكَرُ ٱلْخَلِيفَةِ صُحْبَةَ مُقَدَّمِ ٱلْجُيُوشِ مُجَاهِدِ ٱلدِّينِ إِيْبَكَ ٱلدَّوِيدَارِ وَكَانَ عَسْكَرًا فِي غَايَةِ ٱلْقِلَّةِ فَٱلْتَقَوْا بِٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ مِنْ بَغْدَادَ قَرِيبًا مِنَ ٱلْبَلَدِ فَكَانَتِ ٱلْغَلَبَةُ فِي أَوَّلِ ٱلْأَمْرِ لِعَسْكَرِ ٱلْخَلِيفَةِ. ثُمَّ كَانَتِ ٱلْكَرَّةُ لِلْعَسْكَرِ ٱلسُّلْطَانِيِّ فَأَبَادُوهُمْ قَتْلًا وَأَسْرًا. وَأَعَانَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ نَهْرٌ فَتَحُوهُ فِي طُولِ ٱللَّيْلِ فَكَثُرَتِ ٱلْوُحُولُ فِي طَرِيقِ ٱلْمُنْهَزِمِينَ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَمَى نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ أَوْ مَنْ دَخَلَ ٱلْبَرِّيَّةَ وَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ إِلَى ٱلشَّامِ. وَنَجَا ٱلدَّوِيدَارُ فِي جُمَيْعَةٍ مِنْ عَسْكَرِهِ وَوَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ وَسَاقَ بَاجُو حَتَّى دَخَلَ ٱلْبَلَدَ مِنْ جَانِبِهِ ٱلْغَرْبِيِّ وَوَقَفَ بِعَسَاكِرِهِ مُحَاذِيَ ٱلتَّاجِ وَجَاءَتْ عَسَاكِرُهُ خِلَالَ ٱلدِّيَارِ وَأَقَامَ مُحَاذِيَ ٱلتَّاجِ أَيَّامًا

أَمَّا حَالُ ٱلْعَسْكَرِ ٱلسُّلْطَانِيِّ فَإِنَّهُ فِي يَوْمِ ٱلْخَمِيسِ رَابِعِ مُحَرَّمٍ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِئَةٍ ثَارَتْ غَبَرَةٌ عَظِيمَةٌ شَرْقِيَّ بَغْدَادَ عَلَى دَرْبِ يَعْقُوبَ بِحَيْثُ عَمَّتِ ٱلْبَلَدَ فَٱنْزَعَجَ ٱلنَّاسُ مِنْ ذٰلِكَ وَصَعِدُوا إِلَى أَعَالِي ٱلسُّطُوحِ وَٱلْمَنَابِرِ يَتَشَوَّفُونَ. فَٱنْكَشَفَتِ ٱلْغَبَرَةُ عَنْ عَسَاكِرِ ٱلسُّلْطَانِ وَخُيُولِهِ وَلَفِيفِهِ وَكُرَاعِهِ وَقَدْ طَبَّقَ وَجْهَ ٱلْأَرْضِ وَأَحَاطَ بِبَغْدَادَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا. ثُمَّ شَرَعُوا فِي ٱسْتِعْمَالِ أَسْبَابِ ٱلْحِصَارِ وَشَرَعَ ٱلْعَسْكَرُ ٱلْخَلِيفِيُّ فِي ٱلْمُدَافَعَةِ وَٱلْمُقَاوَمَةِ إِلَى يَوْمِ تَاسِعَ وَعِشْرِي مُحَرَّمٍ. فَلَمْ يَشْعُرِ ٱلنَّاسُ إِلَّا وَرَايَاتُ ٱلْمَغُولِ ظَاهِرَةٌ عَلَى سُورِ بَغْدَادَ مِنْ بُرْجٍ يُسَمَّى بُرْجَ ٱلْعَجَمِيِّ مِنْ نَاحِيَةِ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ بَغْدَادَ يُقَالُ لَهُ بَابُ كَلْوَاذَى. وَكَانَ هٰذَا ٱلْبُرْجُ أَقْصَرَ أَبْرَاجِ ٱلسُّورِ. وَتَقَحَّمَ ٱلْعَسْكَرُ ٱلسُّلْطَانِيُّ هُجُومًا وَدُخُولًا فَجَرَى مِنَ ٱلْقَتْلِ ٱلذَّرِيعِ وَٱلنَّهْبِ ٱلْعَظِيمِ وَٱلتَّنْكِيلِ ٱلْبَلِيغِ مَا يَعْظُمُ سَمَاعُهُ جُمْلَةً. فَمَا ٱلظَّنُّ

بِتَفاصِيلِهِ وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظُنَّ ظَنًّا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الخَبَرِ. وَأَمَرَ السُّلْطَانُ بِخُرُوجِ الخَلِيفَةِ وَوَلَدِهِ وَنِسَائِهِ إِلَيْهِ. فَخَرَجُوا فَحَضَرَ الخَلِيفَةُ بَيْنَ يَدَيِ الذَّرْكَاهِ. فَقَالَ إِنَّهُ عُوتِبَ وَوُبِّخَ بِمَا مَعْنَاهُ نِسْبَةُ العَجْزِ وَالتَّفْرِيطِ وَالغُفُولِ إِلَيْهِ. ثُمَّ أُوصِلَ إِلَى اليَاسَا[1] وَوَلَدَاهُ الأَكْبَرُ وَالأَوْسَطُ. وَأَمَّا بَنَاتُهُ فَأُسِرْنَ. ثُمَّ اسْتُشْهِدَ المُسْتَعْصِمُ فِي رَابِعِ صَفَرٍ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِئَةٍ

انْتَهَى ذِكْرُ خِلَافَةِ المُسْتَعْصِمِ بِاللَّهِ

---

[1] الياسا هي قانون الجبابات في دولة المغول

من كتاب

المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار

لتقي الدين المقريزي

ذكر خلافة الحاكم بأمر الله [1]

الحاكم بأمر الله أبو عليّ منصور بن العزيز نزار بن المعزّ لدين الله أبي تميم معدّ وُلد بالقصر من القاهرة المعزّية ليلة الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة في الساعة التاسعة والطالع من برج السرطان سبع وعشرون درجة. وسُلّم عليه بالخلافة في مدينة بلبيس بعد الظهر من يوم الثلاثاء ثامن وعشري شهر رمضان سنة ستّ وثمانين وثلثمائة. وسار إلى القاهرة في يوم الأربعاء بسائر أهل الدولة والعزيز في قبّة على ناقة بين يديه. وعلى الحاكم درّاعة مُصمت وعمامة فيها الجوهر وبيده رمح وقد تقلّد السيف ولم يُفقد من جميع ما كان مع العساكر شيء ودخل القصر قبل صلوة المغرب. وأخذ في جهاز أبيه العزيز بالله ودفنه. ثمّ بكّر سائر أهل الدولة إلى القصر يوم الخميس وقد نُصب للحاكم سرير من ذهب عليه مرتبة مذهّبة في الإيوان الكبير. وخرج من قصره راكبًا وعليه معمّمة الجوهر والناس

---

[1] الحاكم بامر الله هو احد الخلفاء الفاطميين بمصر ولي العهد بعد ابيه سنة ٩٩٦ وكان شرساً جائراً سفاك دماء واضطهد اليهود والنصارى وامر بقلع الكرم. وكانت وفاته سنة ١٠٢١ قتلاً بيد فتىً من المسلمين. وكان يدّعي انه من سلالة علي ابن ابي طالب ويدعو نفسه امير المؤمنين والقائم مقام الله وعدل عن دين محمد واقام ديناً جديداً وهو دين الدروز المقيمين الآن في سورية ومصر واصحابه يزعمون انه نُقل الى السماء (بولي)

وُقُوفٌ فِي صَحْنِ ٱلْإِيوَانِ. فَقَبَّلُوا لَهُ ٱلْأَرْضَ وَمَشَوْا بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى جَلَسَ عَلَى ٱلسَّرِيرِ. فَوَقَفَ مَنْ رَسْمُهُ ٱلْوُقُوفُ وَجَلَسَ مَنْ لَهُ عَادَةٌ أَنْ يَجْلِسَ وَسَلَّمَ ٱلْجَمِيعُ عَلَيْهِ بِٱلْإِمَامَةِ وَٱللَّقَبِ ٱلَّذِي ٱخْتِيرَ لَهُ وَهُوَ ٱلْحَاكِمُ بِأَمْرِ ٱللّٰهِ وَكَانَ سِنُّهُ يَوْمَئِذٍ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً وَخَمْسَةَ أَشْهُرٍ وَسِتَّةَ أَيَّامٍ

فَجَعَلَ أَبَا مُحَمَّدٍ ٱلْحَسَنَ بْنَ عَمَّارٍ ٱلْكِتَامِيَّ وَاسِطَةً وَلَقَّبَهُ بِأَمِينِ ٱلدَّوْلَةِ وَأَسْقَطَ مُكُوسًا كَانَتْ بِٱلسَّاحِلِ وَرَدَّ إِلَى ٱلْحُسَيْنِ بْنِ جَوْهَرٍ ٱلْقَائِدِ ٱلْبَرِيدَ وَٱلْإِنْشَاءَ. فَكَانَ يَخْلُفُهُ ٱبْنُ سُورِينَ وَأَقَرَّ عِيسَى بْنَ نَسْطُورُسَ عَلَى دِيوَانِ ٱلْخَاصِّ وَقَلَّدَ سُلَيْمَانَ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحٍ ٱلشَّامَ. فَخَرَجَ بَنْجُوتَكِينُ بِدِمَشْقَ وَسَارَ مِنْهَا لِمُدَافَعَةِ سُلَيْمَانَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحٍ. فَبَلَغَ ٱلرَّمْلَةَ وَٱنْضَمَّ إِلَيْهِ ٱبْنُ ٱلْجَرَّاحِ ٱلطَّائِيُّ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَوَاقَعَ ٱبْنَ فَلَاحٍ فَٱنْهَزَمَ وَفَرَّ ثُمَّ أُسِرَ وَحُمِلَ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ فَأُكْرِمَ. وَٱخْتَلَفَ أَهْلُ ٱلدَّوْلَةِ عَلَى ٱبْنِ عَمَّارٍ وَوَقَعَتْ حُرُوبٌ آلَتْ إِلَى صَرْفِهِ عَنِ ٱلْوَسَاطَةِ وَلَهُ فِي ٱلنَّظَرِ أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا غَيْرَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ. فَلَزِمَ دَارَهُ وَأُطْلِقَتْ لَهُ رُسُومٌ وَجِرَايَاتٌ. وَأُقِيمَ ٱلطَّوَاشِي بَرْجَوَانُ ٱلصَّقْلَبِيُّ مَكَانَهُ فِي ٱلْوَسَاطَةِ لِثَلَاثٍ بَقِينَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلْثِمِائَةٍ. فَجَعَلَ كَاتِبَهُ فَهْدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ يُوَقِّعُ عَنْهُ وَلَقَّبَهُ بِٱلرَّئِيسِ وَصَرَفَ سُلَيْمَانَ بْنَ فَلَاحٍ عَنِ ٱلشَّامِ بِجَيْشِ بْنِ ٱلصَّمْصَامَةِ وَقَلَّدَ فَحْلَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ ٱلْكِتَامِيَّ مَدِينَةَ صُورَ وَقَلَّدَ يَانِسَ ٱلْخَادِمَ بَرْقَةَ وَمَيْسُورًا ٱلْخَادِمَ طَرَابُلُسَ وَيُمْنًا ٱلْخَادِمَ غَزَّةَ وَعَسْقَلَانَ. فَوَاقَعَ جَيْشَ ٱلرُّومِ عَلَى فَامِيَةَ وَقَتَلَ مِنْهُمْ خَمْسَةَ آلَافِ رَجُلٍ وَغَزَا إِلَى أَنْ دَخَلَ مَرْعَشَ. وَقَلَّدَ وَظِيفَةَ قَضَاءِ ٱلْقُضَاةِ أَبَا عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ

عليّ بن النعمان في صفر سنة تسع وثمانين بعد موت قاضي القضاة محمد بن النعمان. وقتل الأستاذ برجوان لأربع بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وثلثمائة وله في النظر سنتان وثمانية أشهر غير يوم واحد ورد النظر في أمور الناس وتدبير المملكة والتوقيعات إلى الحسين بن جوهر ولقب بقائد القواد فخلفه الرئيس فهد. واتخذ الحاكم مجلساً في الليل يحضر فيه عدة من أعيان الدولة ثم أبطله ومات جيش بن الصمصامة في ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة. فوصل ابنه بتركته إلى القاهرة ومعه درج بخط أبيه فيه وصيته وثبت بما خلفه مفصلاً. وأن ذلك جميعه لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله لا يستحق أحد من أولاده منه درهماً. وكان مبلغ ذلك جميعه نحو المائتين ألف دينار ما بين عين ومتاع ودواب. قد أوقف جميع ذلك تحت القصر فأخذ الحاكم الدرج ونظره ثم أعاده إلى أولاد جيش وخلع عليهم وقال لهم بحضرة وجوه الدولة: قد وقفت على وصية أبيكم رحمه الله وما وصى به من عين ومتاع فخذوه هنيئاً مباركاً لكم فيه فانصرفوا بجميع التركة .....

ومنع الناس كافة من مخاطبته أحد ومكاتبته بسيدنا ومولانا إلا أمير المؤمنين وحده. وأبيح دم من خالف ذلك. وفي شوال قتل ابن عمار وفي سنة إحدى وتسعين واصل الحاكم الركوب في الليل كل ليلة. وكان يشق الشوارع والأزقة وبالغ الناس في الوقيد والزينة وأنفقوا الأموال الكثيرة على المآكل والمشارب والغناء واللهو وكثر تفرجهم على ذلك حتى خرجوا فيه عن الحد فمنع النساء من الخروج في الليل.

ثُمَّ مَنَعَ ٱلرِّجَالَ مِنَ ٱلْجُلُوسِ فِي ٱلْحَوَانِيتِ......

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ أَمَرَ ٱلنَّصَارَى وَٱلْيَهُودَ بِشَدِّ ٱلزَّنَانِيرِ وَلُبْسِ ٱلْغِيَارِ. وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنْ أَكْلِ ٱلْمُلُوخِيَا وَٱلْجِرْجِيرِ وَٱلْمُتَوَكِّلِيَّةِ وَٱلدَّلِينَسِ وَذَبْحِ ٱلْأَبْقَارِ ٱلسَّلِيمَةِ مِنَ ٱلْعَاهَةِ إِلَّا فِي أَيَّامِ ٱلْأَضْحِيَةِ. وَمَنَعَ مِنْ بَيْعِ ٱلْفُقَّاعِ وَعَمَلِهِ ٱلْبَتَّةَ وَأَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ ٱلْحَمَّامَ إِلَّا بِمِئْزَرٍ وَأَنْ لَا تَكْشِفَ ٱمْرَأَةٌ وَجْهَهَا فِي طَرِيقٍ وَلَا خَلْفَ جَنَازَةٍ وَلَا تَتَبَرَّجَ وَلَا يُبَاعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلسَّمَكِ بِغَيْرِ قِشْرٍ وَلَا يَصْطَادَهُ أَحَدٌ مِنَ ٱلصَّيَّادِينَ. وَتَتَبَّعَ ٱلنَّاسَ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ وَتَشَدَّدَ فِيهِ وَضُرِبَ جَمَاعَةٌ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ مَا أُمِرُوا بِهِ وَنُهُوا عَنْهُ مِمَّا ذُكِرَ. وَخَرَجَتِ ٱلْعَسَاكِرُ لِقِتَالِ بَنِي قُرَّةَ مِنْ أَهْلِ ٱلْبُحَيْرَةِ. وَكَتَبَ عَلَى أَبْوَابِ ٱلْمَسَاجِدِ وَعَلَى ٱلْجَامِعِ بِمِصْرَ وَعَلَى أَبْوَابِ ٱلْحَوَانِيتِ وَٱلْحُجَرِ وَٱلْمَقَابِرِ سَبَّ ٱلسَّلَفِ[1] وَلَعْنَهُمْ وَأَكْرَهَ ٱلنَّاسَ عَلَى نَقْشِ ذٰلِكَ وَكِتَابَتِهِ بِٱلْأَصْبَاغِ فِي سَائِرِ ٱلْمَوَاضِعِ. وَأَقْبَلَ ٱلنَّاسُ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّوَاحِي فَدَخَلُوا فِي ٱلدَّعْوَةِ وَجُعِلَ لَهُمْ يَوْمَانِ فِي ٱلْأُسْبُوعِ وَكَثُرَ ٱلِازْدِحَامُ عَلَى ذٰلِكَ وَمَاتَ فِيهِ جَمَاعَةٌ

وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْخُرُوجِ بَعْدَ ٱلْمَغْرِبِ فِي ٱلطُّرُقَاتِ وَأَنْ لَا يَظْهَرَ أَحَدٌ بِهَا لِبَيْعٍ وَلَا شِرَاءٍ. فَخَلَتِ ٱلطُّرُقُ مِنَ ٱلْمَارَّةِ وَكُسِرَتْ أَوَانِي ٱلْخُمُورِ وَأُرِيقَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلْأَمَاكِنِ. وَٱشْتَدَّ خَوْفُ ٱلنَّاسِ بِأَسْرِهِمْ وَقَوِيَتِ ٱلشَّنَاعَاتُ وَزَادَ ٱلِاضْطِرَابُ فَٱجْتَمَعَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْكُتَّابِ وَغَيْرِهِمْ تَحْتَ ٱلْقَصْرِ وَضَجُّوا يَسْأَلُونَ

---

[1] اسم السلف يُطلق على ما ذهب اليه الاثنية على عايشة زوجة محمد وابي بكر وعمر وعثمان وطلحة وابن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص

ٱلْعَفْوَ فَكُتِبَتْ عِدَّةُ أَمَانَاتٍ لِجَمِيعِ ٱلطَّوَائِفِ مِنْ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْبَاعَةِ وَٱلرَّعِيَّةِ. وَأَمَرَ بِقَتْلِ ٱلْكِلَابِ فَقُتِلَ مِنْهَا مَا لَا يُحْصَى حَتَّى فُقِدَتْ. وَفُتِحَتْ دَارُ ٱلْحِكْمَةِ بِٱلْقَاهِرَةِ وَحُمِلَ إِلَيْهَا ٱلْكُتُبُ وَدَخَلَ إِلَيْهَا ٱلنَّاسُ وَٱشْتَدَّ ٱلطَّلَبُ عَلَى ٱلرِّكَابِيَّةِ ٱلْمُسْتَخْدَمِينَ فِي ٱلرِّكَابِ وَقُتِلَ مِنْهُمْ كَثِيرًا. ثُمَّ عَفَا عَنْهُمْ وَكَتَبَ لَهُمْ أَمَانَاتٍ وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ كَافَّةً مِنَ ٱلدُّخُولِ مِنْ بَابِ ٱلْقَاهِرَةِ وَهُمْ رُكَّابٌ. وَمَنَعَ ٱلْمُكَارِينَ أَنْ يَدْخُلُوا بِحَمِيرِهِمْ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْمَشْيِ مُلَاصِقَ ٱلْقَصْرِ. وَقُتِلَ قَاضِي ٱلْقُضَاةِ حُسَيْنُ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ وَأُحْرِقَ بِٱلنَّارِ. وَقُتِلَ عَدَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ كَثِيرٌ ضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ

وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ خَرَجَ أَبُو رَكْوَةَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ وَٱدَّعَى أَنَّهُ مِنْ بَنِي أُمَيَّـةَ. فَقَامَ بِأَمْرِهِ بَنُو قُرَّةَ لِكَثْرَةِ مَا أَوْقَعَ بِهِمُ ٱلْحَاكِمُ وَبَايَعُوهُ وَٱسْتَجَابَ لَهُ لَوَاتَهُ وَمَزَاتَهُ وَزَنَاتَهُ وَأَخَذَ بَرْقَةَ وَهَزَمَ جُيُوشَ ٱلْحَاكِمِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَغَنِمَ مَا مَعَهُمْ. فَخَرَجَ لِقِتَالِهِ ٱلْقَائِدُ فَضْلُ بْنُ صَالِحٍ فِي رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ وَوَاقَعَهُ فَٱنْهَزَمَ مِنْهُ فَضْلٌ وَٱشْتَدَّ ٱلِٱضْطِرَابُ بِمِصْرَ وَتَزَايَدَتِ ٱلْأَسْعَارُ. وَٱشْتَدَّ ٱلِٱسْتِعْدَادُ لِمُحَارَبَةِ أَبِي رَكْوَةَ وَنَزَلَتِ ٱلْعَسَاكِرُ بِٱلْجِيزَةِ. وَسَارَ أَبُو رَكْوَةَ فَوَاقَعَهُ ٱلْقَائِدُ فَضْلٌ وَقُتِلَ عِدَّةٌ مِمَّنْ مَعَهُ. فَعَظُمَ ٱلْأَمْرُ وَٱشْتَدَّ ٱلْخَوْفُ وَخَرَجَ ٱلنَّاسُ فَبَاتُوا فِي ٱلشَّوَارِعِ خَوْفًا مِنْ هُجُومِ عَسَاكِرِ أَبِي رَكْوَةَ. وَٱسْتَمَرَّتِ ٱلْحُرُوبُ فَٱنْهَزَمَ أَبُو رَكْوَةَ فِي ثَالِثِ ذِي ٱلْحِجَّةِ عَلَى ٱلْفَيُّومِ. وَتَبِعَهُ ٱلْقَائِدُ فَضْلٌ بَعْدَ أَنْ بَعَثَ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ سِتَّةَ آلَافِ رَأْسٍ وَمِائَةِ أَسِيرٍ إِلَى أَنْ قُبِضَ عَلَيْهِ فِي بِلَادِ ٱلنُّوبَةِ. وَأُحْضِرَ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ فَقُتِلَ بِهَا وَخُلِعَ عَلَى ٱلْقَائِدِ فَضْلٍ وَسُيِّرَتِ ٱلْبَشَائِرُ بِقَتْلِهِ فِي ٱلْأَعْمَالِ

وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلْثِمِائَةٍ أَمَرَ بِمَحْوِ سَبِّ ٱلسَّلَفِ فَمُحِيَ سَائِرُ مَا كُتِبَ مِنْ ذَٰلِكَ وَغَلَتِ ٱلْأَسْعَارُ لِنَقْصِ ٱلنِّيلِ. فَإِنَّهُ بَلَغَ سِتَّةَ عَشَرَ أُصْبُعًا مِنْ سَبْعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ثُمَّ نَقَصَ وَمَاتَ بَجْوتَكِينُ فِي ذِي ٱلْحِجَّةِ وَٱشْتَدَّ ٱلْغَلَاءُ فِي ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَوَلَّى عَلِيَّ ٱبْنَ فَلَاحٍ دِمَشْقَ. وَقُبِضَ جَمِيعُ مَا هُوَ مُحَبَّسٌ عَلَى ٱلْكَنَائِسِ. وَجُعِلَ فِي ٱلدِّيوَانِ وَأُحْرِقَ عِدَّةُ صُلْبَانٍ عَلَى بَابِ ٱلْجَامِعِ بِمِصْرَ وَكُتِبَ إِلَى سَائِرِ ٱلْأَعْمَالِ بِذَٰلِكَ. وَفِي سَادِسَ عَشَرَ رَجَبٍ قُرِّرَ مَالِكُ بْنُ سَعِيدٍ ٱلْفَارِقِيُّ فِي وَظِيفَةِ قَضَاءِ ٱلْقُضَاةِ وَتَسَلَّمَ كُتُبَ ٱلدَّعْوَةِ ٱلَّتِي تُقْرَأُ بِٱلْقَصْرِ عَلَى ٱلْأَوْلِيَاءِ وَصُرِفَ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ عَنْ ذَٰلِكَ .....

وَتَوَقَّفَتْ زِيَادَةُ ٱلنِّيلِ وَٱسْتَسْقَى ٱلنَّاسُ مَرَّتَيْنِ وَأُمِرَ بِإِبْطَالِ عِدَّةِ مُكُوسٍ وَتَعَذَّرَ وُجُودُ ٱلْخُبْزِ لِغَلَائِهِ وَقِلَّتِهِ. وَفُتِحَ ٱلْخَلِيجُ فِي رَابِعِ تُوتٍ وَٱلْمَاءُ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَٱشْتَدَّ ٱلْغَلَاءُ. وَفِي تَاسِعِ مُحَرَّمٍ وَهُوَ نِصْفُ تُوتٍ نَقَصَ مَاءُ ٱلنِّيلِ وَلَمْ يُوفِ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا. فَمَنَعَ ٱلنَّاسَ كَافَّةً مِنَ ٱلتَّظَاهُرِ بِٱلْغِنَاءِ وَمِنْ رُكُوبِ ٱلْبَحْرِ لِلتَّفَرُّجِ. وَمَنَعَ مِنْ بَيْعِ ٱلْمُسْكِرَاتِ وَمَنَعَ كَافَّةً مِنَ ٱلْخُرُوجِ قَبْلَ ٱلْفَجْرِ وَبَعْدَ ٱلْعِشَاءِ إِلَى ٱلطُّرُقَاتِ. وَٱشْتَدَّ ٱلْأَمْرُ عَلَى ٱلْكَافَّةِ لِشِدَّةِ مَا دَاخَلَهُمْ مِنَ ٱلْخَوْفِ مَعَ شِدَّةِ ٱلْغَلَاءِ وَتَزَايُدِ ٱلْأَمْرَاضِ فِي ٱلنَّاسِ وَٱلْمَوْتِ .....

وَتَزَايَدَتِ ٱلْأَمْرَاضُ وَكَثُرَ ٱلْمَوْتُ وَعَزَّتِ ٱلْأَدْوِيَةُ وَأُعِيدَتِ ٱلْمُكُوسُ ٱلَّتِي رُفِعَتْ وَهُدِمَتْ كَنَائِسُ كَانَتْ بِطَرِيقِ ٱلْمَقْسِ. وَهُدِمَتْ كَنِيسَةُ بِحَارَةِ ٱلرُّومِ مِنَ ٱلْقَاهِرَةِ وَنُهِبَ مَا فِيهَا وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْخُدَّامِ وَٱلْكُتَّابِ

وَمِنَ ٱلصَّقَالِبَةِ بَعْدَ مَا قُطِعَتْ أَيْدِي بَعْضِهِمْ مِنَ ٱلْكُتَّابِ بِٱلسَّاطُورِ عَلَى خَشَبَةٍ مِنْ وَسَطِ ٱلذِّرَاعِ وَقُتِلَ ٱلقَائِدُ فَضْلُ بْنُ صَالِحٍ فِي ذِي ٱلقَعْدَةِ . وَفِي حَادِي عَشَرَ صَفَرٍ صُرِفَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلرُّوذْبَارِيُّ وَقُرِّرَ مَكَانَهُ ٱبْنُ عَبْدُونَ ٱلنَّصْرَانِيُّ ٱلْكَاتِبُ وَلُقِّبَ بِٱلْكَافِي. فَوَقَّعَ عَنِ ٱلحَاكِمِ وَنَظَرَ . وَكَتَبَ بِهَدْمِ كَنِيسَةِ ٱلقُمَامَةِ وَجَدَّدَ دِيوَانًا يُقَالُ لَهُ ٱلدِّيوَانُ ٱلْمُفْرَدُ بِرَسْمِ مَنْ يُقْبَضُ مَالُهُ مِنَ ٱلْمَقْتُولِينَ وَغَيْرِهِمْ . وَكَثُرَتِ ٱلْأَمْرَاضُ وَعَزَّتِ ٱلْأَدْوِيَةُ وَشُهِرَ جَمَاعَةٌ وُجِدَ عِنْدَهُمْ فُقَّاعٌ وَمُلُوخِيَا وَدَلِينَسٌ وَتُرْمُسٌ وَضُرِبُوا وَهُدِمَ دَيْرُ ٱلْقَصْرِ وَٱشْتَدَّ ٱلْأَمْرُ عَلَى ٱلنَّصَارَى وَٱلْيَهُودِ فِي إِلْزَامِهِمْ لُبْسَ ٱلْغِيَارِ . وَكَتَبَ بِإِبْطَالِ أَخْذِ ٱلْخُمْسِ وَٱلنَّجَاوَى وَٱلْفِطْرَةِ وَفَرَّ ٱلْحُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ وَأَوْلَادُهُ وَعَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ . وَفَرَّ أَبُو ٱلْقَسِمِ ٱلْحُسَيْنُ بْنُ ٱلْمَغْرِبِيِّ . وَكُتِبَتْ عِدَّةُ أَمَانَاتٍ لِعِدَّةِ طَوَائِفَ مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ وَقُطِعَتْ قِرَاءَةُ مَجَالِسِ ٱلْحِكْمَةِ بِٱلْقَصْرِ . وَوَقَعَ ٱلتَّشْدِيدُ فِي ٱلْمَنْعِ مِنَ ٱلْمُسْكِرَاتِ وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْكُتَّابِ وَٱلْخُدَّامِ وَٱلْفَرَّاشِينَ وَقُتِلَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ ٱلرُّوذْبَارِيُّ فِي شَوَّالٍ

وَفِي رَابِعِ ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِمِائَةٍ صُرِفَ ٱلْكَافِي بْنُ عَبْدُونَ عَنِ ٱلنَّظَرِ وَٱلتَّوْقِيعِ وَقُرِّرَ بَدَلَهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ٱلْقَشُورِيُّ ٱلْكَاتِبُ فِي ٱلْوَسَاطَةِ وَٱلسِّفَارَةِ . وَحَضَرَ حُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ وَعَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ فَأُكْرِمَ ثُمَّ صُرِفَ ٱبْنُ ٱلْقَشُورِيِّ بَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ مِنِ ٱسْتِقْرَارِهِ وَضُرِبَ عُنُقُهُ . وَقُرِّرَ بَدَلَهُ زُرْعَةُ بْنُ عِيسَى بْنِ نَسْطُورَسَ ٱلْكَاتِبُ ٱلنَّصْرَانِيُّ وَلُقِّبَ بِٱلشَّافِي . وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنْ رُكُوبِ ٱلْمَرَاكِبِ فِي ٱلْخَلِيجِ وَسُدَّتْ

أَبْوَابُ ٱلدُّورِ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْخَلِيجِ وَٱلطَّاقَاتُ. وَأُضِيفَ إِلَى قَاضِي ٱلْقُضَاةِ مَالِكِ بْنِ سَعِيدٍ ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْمَظَالِمِ. وَأُعِيدَتْ مَجَالِسُ ٱلْحِكْمَةِ وَأُخِذَ مَالُ ٱلنَّجْوَى وَقُتِلَ ٱبْنُ عَبْدُونَ وَقُبِضَ مَالُهُ. وَضُرِبَ جَمَاعَةٌ وَشُهِرُوا مِنْ أَجْلِ بَيْعِهِمِ ٱلْمُلُوخِيَا وَٱلسَّمَكَ ٱلَّذِي لَا قِشْرَ لَهُ وَبِسَبَبِ بَيْعِ ٱلنَّبِيذِ. وَقُتِلَ ٱلْحُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ وَعَبْدُ ٱلْعَزِيزِ بْنُ ٱلنُّعْمَانِ فِي جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَأُحِيطَ بِأَمْوَالِهَا وَأُبْطِلَتْ عِدَّةُ مُكُوسٍ. وَمُنِعَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلْغِنَاءِ وَٱللَّهْوِ وَمِنْ بَيْعِ ٱلْمُغَنِّيَاتِ وَمِنَ ٱلِٱجْتِمَاعِ بِٱلصَّحْرَاءِ. وَفِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ خَلَعَ حَسَّانُ بْنُ مُفَرِّجِ بْنِ دَغْفَلِ بْنِ ٱلْجَرَّاحِ طَاعَةَ ٱلْحَاكِمِ وَأَقَامَ أَبَا ٱلْفُتُوحِ حُسَيْنَ ٱبْنَ جَعْفَرٍ ٱلْحُسَنِيَّ أَمِيرَ مَكَّةَ خَلِيفَةً وَبَايَعُوهُ وَدَعَا ٱلنَّاسَ إِلَى مُبَايَعَتِهِ وَقَاتَلَ عَسَاكِرَ ٱلْحَاكِمِ

وَفِي سَنَةِ ٱثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِمِائَةٍ مُنِعَ مِنْ بَيْعِ ٱلزَّبِيبِ وَكُتِبَ بِٱلْمَنْعِ مِنْ حَمْلِهِ وَأُلْقِيَ فِي بَحْرِ ٱلنِّيلِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ وَأُحْرِقَ مِنْهُ كَثِيرٌ. وَمُنِعَ ٱلنِّسَاءُ مِنْ زِيَارَةِ ٱلْقُبُورِ فَلَمْ يُرَ فِي ٱلْأَعْيَادِ بِٱلْمَقَابِرِ ٱمْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ. وَمُنِعَ مِنَ ٱلِٱجْتِمَاعِ عَلَى شَاطِئِ ٱلنِّيلِ لِلتَّفَرُّجِ وَمُنِعَ مِنْ بَيْعِ ٱلْعِنَبِ إِلَّا أَرْبَعَةَ أَرْطَالٍ فَمَا دُونَهَا. وَمُنِعَ مِنْ عَصِيرِهِ وَطُرِحَ كَثِيرٌ مِنْهُ وَدِيسَ فِي ٱلطُّرُقَاتِ وَغُرِّقَ كَثِيرٌ مِنْهُ فِي ٱلنِّيلِ. وَمُنِعَ مِنْ حَمْلِهِ وَقُطِعَتْ كُرُومُ ٱلْجِيزَةِ كُلُّهَا وَسُيِّرَ إِلَى ٱلْجِهَاتِ بِذٰلِكَ

وَفِي سَنَةِ ثَلٰثٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ غَلَا ٱلسِّعْرُ وَٱزْدَحَمَ ٱلنَّاسُ عَلَى ٱلْخُبْزِ وَفِي ثَانِي رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ مِنْهَا هَلَكَ عِيسَى بْنُ نَسْطُورِسَ. فَأَمَرَ ٱلنَّصَارَى بِلُبْسِ ٱلسَّوَادِ وَتَعْلِيقِ ٱلصُّلْبَانِ ٱلْخَشَبِ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَنْ يَكُونَ ٱلصَّلِيبُ ذِرَاعًا فِي

مِثْلِهَا وَزِنَتُهُ خَمْسَةَ أَرْطَالٍ وَأَنْ يَكُونَ مَكْشُوفًا بِحَيْثُ يَرَاهُ ٱلنَّاسُ. وَمُنِعُوا مِنْ رُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَأَنْ يَكُونَ رُكُوبُهُمُ ٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ بِٱلسُّرُوجِ ٱلْخَشَبِ وَٱلسُّيُورِ ٱلسُّودِ بِغَيْرِ حِلْيَةٍ وَأَنْ يَشُدُّوا ٱلزَّنَانِيرَ وَلَا يَسْتَخْدِمُوا مُسْلِمًا وَلَا يَشْتَرُوا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَتُتُبِّعَتْ آثَارُهُمْ فِي ذٰلِكَ فَأَسْلَمَ مِنْهُمْ عِدَّةٌ. وَقُرِّرَ حُسَيْنُ بْنُ طَاهِرٍ ٱلْوَزَّانُ فِي ٱلْوَسَاطَةِ وَٱلتَّوْقِيعِ عَنِ ٱلْحَاكِمِ فِي تَاسِعِ وَعِشْرِي رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ مِنْهَا وَلُقِّبَ بِأَمِينِ ٱلْأُمَنَاءِ. وَنَقَشَ ٱلْحَاكِمُ عَلَى خَاتَمِهِ بِنَصْرِ ٱللهِ ٱلْعَظِيمِ ٱلْوَلِيِّ يَنْتَصِرُ ٱلْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ. وَضُرِبَ جَمَاعَةٌ بِسَبَبِ ٱللَّعِبِ بِٱلشِّطْرَنْجِ وَهُدِمَتِ ٱلْكَنَائِسُ وَأُخِذَ جَمِيعُ مَا فِيهَا وَمَا لَهَا مِنَ ٱلرِّبَاعِ. وَكُتِبَ بِذٰلِكَ إِلَى ٱلْأَعْمَالِ فَهُدِمَتْ بِهَا وَفِيهَا لَحِقَ أَبُو ٱلْفُتُوحِ بِمَكَّةَ وَدَعَا لِلْحَاكِمِ وَضَرَبَ ٱلسِّكَّةَ بِٱسْمِهِ. وَأَمَرَ ٱلْحَاكِمُ أَنْ لَا يُقَبِّلَ أَحَدٌ لَهُ ٱلْأَرْضَ وَلَا يُقَبِّلَ رِكَابَهُ وَلَا يَدَهُ عِنْدَ ٱلسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي ٱلْمَوَاكِبِ. فَإِنَّ ٱلِٱنْحِنَاءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ لِمَخْلُوقٍ مِنْ صَنِيعِ ٱلرُّومِ. وَأَنْ لَا يُزَادَ عَلَى قَوْلِهِمُ ٱلسَّلَامُ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ. وَلَا يُصَلِّيَ عَلَيْهِ أَحَدٌ فِي مُكَاتَبَتِهِ وَلَا مُخَاطَبَتِهِ وَيُقْتَصَرَ فِي مُكَاتَبَتِهِ عَلَى سَلَامُ ٱللهِ وَتَحِيَّاتُهُ وَنَوَامِي بَرَكَاتِهِ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَيُدْعَى لَهُ بِمَا يَتَّفِقُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ فَقَطْ لَا غَيْرُ. فَلَمْ يَقُلِ ٱلْخُطَبَاءُ يَوْمَ ٱلْجُمُعَةِ سِوَى ٱللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ٱلْمُصْطَفَى وَسَلِّمْ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ ٱلْمُرْتَضَى. ٱللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱبْنِ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ. ٱللَّهُمَّ ٱجْعَلْ أَفْضَلَ سَلَامِكَ عَلَى عَبْدِكَ وَخَلِيفَتِكَ. وَمَنَعَ مِنْ ضَرْبِ ٱلطُّبُولِ وَٱلْأَبْوَاقِ حَوْلَ ٱلْقَصْرِ. فَصَارُوا يَطُوفُونَ بِغَيْرِ طَبْلٍ وَلَا بُوقٍ وَكَثُرَتْ إِنْعَامَاتُ ٱلْحَاكِمِ. فَتَوَقَّفَ أَمِينُ ٱلْأُمَنَاءِ حُسَيْنُ بْنُ

طَاهِرٍ ٱلْوَزَّانُ فِي إِمْضَائِهَا فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلْحَاكِمُ بِخَطِّهِ بَعْدَ ٱلْبَسْمَلَةِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ

أَصْبَحْتُ لَا أَرْجُو وَلَا أَتَّقِي ... إِلَّا إِلٰهِي وَلَهُ ٱلْفَضْلُ

جَدِّي نَبِيِّي وَإِمَامِي أَبِي ... وَدِينِيَ ٱلْإِخْلَاصُ وَٱلْعَدْلُ

ٱلْمَالُ مَالُ ٱللّٰهِ وَٱلْخَلْقُ عِبَادُ ٱللّٰهِ وَنَحْنُ أُمَنَاؤُهُ فِي ٱلْأَرْضِ أَطْلِقْ أَرْزَاقَ ٱلنَّاسِ وَلَا تَقْطَعْهَا وَٱلسَّلَامُ . وَرَكِبَ ٱلْحَاكِمُ فِي يَوْمِ عِيدِ ٱلْفِطْرِ إِلَى ٱلْمُصَلَّى بِغَيْرِ زِينَةٍ وَلَا جَنَائِبَ وَلَا أُبَّهَةٍ سِوَى عَشَرَةِ أَفْرَاسٍ تُقَادُ بِسُرُوجٍ وَلُجُمٍ مُحَلَّاةٍ بِفِضَّةٍ خَفِيفَةٍ وَبُنُودٍ سَاذِجَةٍ وَمِظَلَّةٍ بَيْضَاءَ بِغَيْرِ ذَهَبٍ وَعَلَيْهِ بَيَاضٌ بِغَيْرِ طِرَازٍ وَلَا ذَهَبٍ وَلَا جَوْهَرٍ فِي عِمَامَتِهِ وَلَمْ يُفْرَشِ ٱلْمِنْبَرُ . وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنْ سَبِّ ٱلسَّلَفِ وَضَرَبَ فِي ذٰلِكَ وَشَهَّرَ وَصَلَّى صَلٰوةَ عِيدِ ٱلنَّحْرِ كَمَا صَلَّى صَلٰوةَ ٱلْفِطْرِ مِنْ غَيْرِ أُبَّهَةٍ وَنَحَرَ عَنْهُ عَبْدُ ٱلرَّحِيمِ بْنُ إِلْيَاسَ بْنِ أَحْمَدَ ٱلْمَهْدِيِّ وَأَكْثَرَ ٱلْحَاكِمُ مِنَ ٱلرُّكُوبِ إِلَى ٱلصَّحْرَاءِ بِحِذَاءٍ فِي رِجْلَيْهِ وَفُوطَةٍ عَلَى رَأْسِهِ

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ أَلْزَمَ ٱلْيَهُودَ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْنَاقِهِمْ جَرَسٌ إِذَا دَخَلُوا إِلَى ٱلْحَمَّامِ وَأَنْ يَكُونَ فِي عُنُقِ ٱلنَّصَارَى صُلْبَانٌ وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلنُّجُومِ وَأُنْفِيَ ٱلْمُنَجِّمُونَ مِنَ ٱلطُّرُقَاتِ وَطُلِبُوا فَتَغَيَّبُوا وَنُفُوا . وَكَثُرَتْ هِبَاتُ ٱلْحَاكِمِ وَصَدَقَاتُهُ وَعِتْقُهُ . وَأَمَرَ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَى بِٱلْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ ٱلرُّومِ وَغَيْرِهَا . وَأُقِيمَ عَبْدُ ٱلرَّحِيمِ بْنُ إِلْيَاسَ وَلِيَّ ٱلْعَهْدِ وَأُمِرَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلسَّلَامِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَلَى ٱبْنِ عَمِّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَوَلِيِّ عَهْدِ ٱلْمُسْلِمِينَ . وَصَارَ يَجْلِسُ بِمَكَانٍ فِي ٱلْقَصْرِ ، وَصَارَ

الحاكم يركب بدرّاعة صوف بيضاء ويتعمّم بفوطة وفي رجله حذاء عربيّ بقبالين وعبد الرحيم يتولّى النظر في أمور الدولة كلها. وأفرط الحاكم في العطاء وردّ ما كان أخذ من الضياع والأملاك لأربابها

وفي ربيع الأوّل أمر بقطع يدي أبي القسم الجرجرائيّ. وكان يكتب للقائد عين. ثمّ قطعت يد عين فصار مقطوع اليدين وبعث إليه الحاكم بعد قطع يديه بآلاف من الذهب والثياب. ثمّ بعد ذلك أمر بقطع لسانه فقطع وأبطل عدّة مكوس وقتل الكلاب كلّها وأكثر من الركوب في الليل ومنع النساء من المشي في الطرقات. فلم تر امرأة في طريق البتّة وأغلقت حمّاماتهنّ ومنع الأساكفة من عمل خفافهنّ وتعطّلت حوانيتهم واشتدّت الإشاعة بوقوع السيف في الناس فتهاربوا وغلّقت الأسواق فلم يبع شيء ودعي لعبد الرحيم بن إلياس على المنابر وضربت السكّة باسمه بولاية العهد

وفي سنة خمس وأربعمائة قتل مالك بن سعيد الفارقيّ في ربيع الآخر وكانت مدّة نظره في قضاء القضاة ستّ سنين وتسعة أشهر وعشرة أيّام وبلغ إقطاعه في السنة خمسة عشر ألف دينار. وتزايد ركوب الحاكم حتّى كان يركب في كلّ يوم عدّة مرار. واشترى الحمير وركبها بدل الخيل وفي جمادى الآخرة منها قتل الحسين بن طاهر الوزّان. فكانت مدّة نظره في الوساطة سنتين وشهرين وعشرين يومًا. فأمر أصحاب الدواوين بلزوم دواوينهم وصار الحاكم يركب حمارًا بشاشية مكشوفة بغير عمامة. ثمّ أقام عبد الرحيم بن أبي السيد الكاتب وأخاه

أَبَا عَبْدِ اللهِ الحُسَيْنَ فِي الوَسَاطَةِ وَالسِّفَارَةِ وَأَقَرَّ فِي وَظِيفَةِ قَضَاءِ القُضَاةِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي العَوَّامِ. وَخَرَجَ الحَاكِمُ عَنِ الحَدِّ فِي العَطَاءِ حَتَّى أَقْطَعَ نَوَاتِيَةَ المَرَاكِبِ وَالمَشَاعِلِيَّةَ وَبَنِي قُرَّةَ فِيمَا أَقْطَعَ الإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَالبُحَيْرَةَ وَنَوَاحِيَهَا. ثُمَّ قَتَلَ ابْنَيْ أَبِي السَّيِّدِ. وَكَانَتْ مُدَّةُ نَظَرِهِمَا اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا وَقَلَّدَ الوَسَاطَةَ فَضْلَ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ الفُرَاتِ. ثُمَّ قَتَلَهُ فِي اليَوْمِ الخَامِسِ مِنْ وِلَايَتِهِ وَغَلَبَ بَنُو قُرَّةَ عَلَى الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا. وَأَكْثَرَ الحَاكِمُ مِنَ الرُّكُوبِ فِي يَوْمٍ سِتَّ مَرَّاتٍ مَرَّةً عَلَى فَرَسٍ. وَمَرَّةً عَلَى حِمَارٍ وَمَرَّةً فِي مِحَفَّةٍ تُحْمَلُ عَلَى الأَعْنَاقِ وَمَرَّةً فِي عُشَارِيٍّ عَلَى النِّيلِ بِغَيْرِ عِمَامَةٍ. وَأَكْثَرَ مِنْ إِقْطَاعِ الجُنْدِ وَالعَبِيدِ الإِقْطَاعَاتِ. وَأَقَامَ ذَا الرِّئَاسَتَيْنِ قُطْبَ الدَّوْلَةِ أَبَا الحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحٍ فِي الوَسَاطَةِ وَالسِّفَارَةِ وَوَلَّى عَبْدَ الرَّحِيمِ بْنَ إِلْيَاسَ دِمَشْقَ. فَسَارَ إِلَيْهَا فِي جُمَادَى الآخِرَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فَأَقَامَ فِيهَا شَهْرَيْنِ. ثُمَّ هَجَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَقَتَلُوا جَمَاعَةً مِمَّنْ عِنْدَهُ وَأَخَذُوهُ فِي صُنْدُوقٍ وَحَمَلُوهُ إِلَى مِصْرَ ثُمَّ أُعِيدَ إِلَى دِمَشْقَ فَأَقَامَ بِهَا إِلَى لَيْلَةِ عِيدِ الفِطْرِ وَأُخْرِجَ مِنْهَا

وَلَمَّا كَانَ لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ شَوَّالٍ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فُقِدَ الحَاكِمُ وَقِيلَ أَنَّ أُخْتَهُ قَتَلَتْهُ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ. وَكَانَ عُمْرُهُ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَكَانَتْ مُدَّةُ خِلَافَتِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَشَهْرًا. وَكَانَ جَوَادًا سَفَّاكًا قَتَلَ عَدَدًا لَا يُحْصَوْنَ. وَكَانَتْ سِيرَتُهُ مِنْ أَعْجَبِ السِّيَرِ وَخُطِبَ لَهُ عَلَى مَنَابِرِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَإِفْرِيقِيَةَ وَالحِجَازِ. وَكَانَ يَشْتَغِلُ بِعُلُومِ الأَوَائِلِ وَيَنْظُرُ فِي النُّجُومِ وَعَمِلَ رَصَدًا وَاتَّخَذَ بَيْتًا فِي المُقَطَّمِ يَنْقَطِعُ

فِيهِ عَنِ ٱلنَّاسِ لِذَٰلِكَ وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَعْتَرِيهِ جَفَافٌ فِي دِمَاغِهِ فَلِذَٰلِكَ كَثُرَ تَنَاقُضُهُ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ كَانَتْ أَفْعَالُهُ لَا تُعَلَّلُ وَأَحْلَامُ وَسَاوِسِهِ لَا تُؤَوَّلُ

وَقَالَ ٱلْمُسَبِّحِيُّ فِي مُحَرَّمِ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ قُبِضَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي حُسَيْنٍ ثَارَ بِٱلصَّعِيدِ ٱلْأَعْلَى فَأَقَرَّ أَنَّهُ قَتَلَ ٱلْحَاكِمَ بِأَمْرِ ٱللّٰهِ فِي جُمْلَةِ أَرْبَعَةِ أَنْفُسٍ تَفَرَّقُوا فِي ٱلْبِلَادِ وَأَظْهَرَ قِطْعَةً مِنْ جِلْدَةِ رَأْسِ ٱلْحَاكِمِ وَقِطْعَةً مِنَ ٱلْفُوطَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ. فَقِيلَ لَهُ لِمَ قَتَلْتَهُ: فَقَالَ غَيْرَةً لِلّٰهِ وَلِلْإِسْلَامِ: فَقِيلَ كَيْفَ قَتَلْتَهُ. فَأَخْرَجَ سِكِّينًا ضَرَبَ بِهَا فُؤَادَهُ وَقَتَلَ نَفْسَهُ وَقَالَ هٰكَذَا قَتَلْتُهُ. وَقُطِعَ رَأْسُهُ وَأُنْفِذَ بِهِ إِلَى ٱلْحَضْرَةِ مَعَ مَا وُجِدَ مَعَهُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلصَّحِيحُ فِي خَبَرِ قَتْلِ ٱلْحَاكِمِ لَا مَا يَحْكِيهِ ٱلْمُشَارِقَةُ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ أَنَّ أُخْتَهُ قَتَلَتْهُ وَٱللّٰهُ أَعْلَمُ

مِنْ ذِكْرِ ٱلْحَارَاتِ

عِبَارَةٌ تَتَعَلَّقُ بِفُتُوحَاتِ هَفْتَكِينَ وَٱنْكِسَارَاتِهِ

حَارَةُ ٱلدَّيْلَمِ عُرِفَتْ بِذَٰلِكَ لِنُزُولِ ٱلدَّيْلَمِ ٱلْوَاصِلِينَ مَعَ هَفْتَكِينَ ٱلشَّرَابِيِّ حِينَ قَدِمَ وَمَعَهُ أَوْلَادُ مَوْلَاهُ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْبُوَيْهِيِّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلْأَتْرَاكِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ وَسَكَنُوا بِهَا فَعُرِفَتْ بِهِمْ هَفْتَكِينُ وَيُقَالُ لَهُ ٱلْفَتَكِينُ ٱلتُّرْكِيُّ ٱلشَّرَابِيُّ غُلَامُ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ أَحْمَدَ بْنِ بُوَيْهِ تَرَقَّى فِي ٱلْخِدَمِ حَتَّى غَلَبَ فِي بَغْدَادَ عَلَى عِزِّ ٱلدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ بْنِ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ. وَكَانَ فِيهِ شَجَاعَةٌ وَثَبَاتٌ فِي ٱلْحَرْبِ. فَلَمَّا سَارَتِ ٱلْأَتْرَاكُ مِنْ بَغْدَادَ لِحَرْبِ ٱلدَّيْلَمِ جَرَى بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَظِيمٌ ٱشْتَهَرَ فِيهِ هَفْتَكِينُ إِلَّا أَنَّ

أَصْحَابُهُ ٱنْهَزَمُوا عَنْهُ وَصَارَ فِي طَائِفَةٍ قَلِيلَةٍ فَوَلَّى بِمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلْأَتْرَاكِ وَهُمْ نَحْوُ ٱلْأَرْبَعِمِائَةِ. فَسَارَ عَلَى ٱلرَّحْبَةِ وَأَخَذَ مِنْهَا عَلَى ٱلْبَرِّ إِلَى أَنْ قَرُبَ مِنْ جُوسِيَةَ إِحْدَى قُرَى ٱلشَّامِ. وَقَدْ وَقَعَ فِي قُلُوبِ ٱلْعُرْبَانِ مِنْهُ مَهَابَةٌ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ ظَالِمُ بْنُ مَرْهُوبٍ ٱلْعُقَيْلِيُّ مِنْ بَعْلَبَكَّ وَبَعَثَ إِلَى أَبِي مَحْمُودٍ إِبْرٰهِيمَ بْنِ جَعْفَرٍ أَمِيرِ دِمَشْقَ مِنْ قِبَلِ ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُعِزِّ لِدِينِ ٱللّٰهِ يُعْلِمُهُ بِقُدُومِ هَفْتَكِينَ مِنْ بَغْدَادَ لِإِقَامَةِ ٱلْخُطْبَةِ ٱلْعَبَّاسِيَّةِ وَخَوَّفَهُ مِنْهُ. فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ عَسْكَرًا وَسَارَ إِلَى نَاحِيَةِ جُوسِيَةَ يُرِيدُ هَفْتَكِينَ. وَسَارَ بِشَارَةُ ٱلْخَادِمُ مِنْ قِبَلِ أَبِي ٱلْمَعَالِي بْنِ حَمْدَانَ عَوْنًا لِهَفْتَكِينَ فَرَدَّ ظَالِمٌ إِلَى بَعْلَبَكَّ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ

وَسَارَ بِشَارَةُ بِهَفْتَكِينَ إِلَى حِمْصَ فَحَمَلَ إِلَيْهِ أَبُو ٱلْمَعَالِي وَتَلَقَّاهُ وَأَكْرَمَهُ وَكَانَ قَدْ ثَارَ بِدِمَشْقَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلدَّعَارَةِ وَٱلْفَسَادِ وَحَارَبُوا عُمَّالَ ٱلسُّلْطَانِ وَٱشْتَدَّ أَمْرُهُمْ وَكَانَ كَبِيرُهُمْ يُعْرَفُ بِٱبْنِ ٱلْمَاوَرْدِ. فَلَمَّا بَلَغَهُمْ خَبَرُ هَفْتَكِينَ بَعَثُوا إِلَيْهِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى حِمْصَ يَسْتَدْعُونَهُ وَوَعَدُوهُ بِٱلْقِيَامِ مَعَهُ عَلَى عَسَاكِرِ ٱلْمُعِزِّ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْ دِمَشْقَ لِيَلِيَ عَلَيْهِمْ فَوَقَعَ ذٰلِكَ مِنْهُ بِٱلْمُوَافَقَةِ. وَسَارَ حَتَّى نَزَلَ ثَنِيَّةَ ٱلْعُقَابِ لِأَيَّامٍ بَقِيَتْ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ. فَبَلَغَ عَسْكَرَ ٱلْمُعِزِّ خَبَرُ ٱلْفِرَنْجِ وَأَنَّهُمْ قَدْ قَصَدُوا طَرَابُلُسَ فَسَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَى لِقَاءِ ٱلْعَدُوِّ. وَنَزَلَ هَفْتَكِينُ عَلَى دِمَشْقَ مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ فَأَقَامَ أَيَّامًا. ثُمَّ سَارَ يُرِيدُ مُحَارَبَةَ ظَالِمٍ فَفَرَّ مِنْهُ وَدَخَلَ هَفْتَكِينُ بَعْلَبَكَّ فَطَرَقَهُ ٱلْعَدُوُّ مِنَ ٱلرُّومِ وَٱلْفِرَنْجِ وَٱنْتَهَبُوا بَعْلَبَكَّ وَأَحْرَقُوا وَذٰلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ. وَٱنْتَشَرُوا فِي أَعْمَالِ بَعْلَبَكَّ وَٱلْبِقَاعِ

يقتلون ويأسرون ويحرقون وقصدوا دمشق وقد التحق بها هفتكين. فخرج إليهم أهل دمشق وسألوهم الكف عن البلد والتزموا بمال. فخرج إليهم هفتكين وأهدى إليهم وتكلم معهم في أنه لا يستطيع جباية المال لقوة ابن الماورد وأصحابه وأغرى ملك الروم فقبض عليه وقتله وعاد فجبى المال من دمشق بالعنف وحمل إلى ملك الروم ثلاثين ألف دينار ورحل إلى بيروت ثم إلى طرابلس

فتمكن هفتكين من دمشق وأقام بها الدعوة لأبي بكر عبد الكريم الطائع بن المطيع العباسي وسير إلى العرب السرايا فظفرت وعادت إليه بعدة ممن أسرته من رجال العرب وقتلهم صبرا. وكان تخوف من المعز. فكاتب القرامطة يستدعيهم من الأحساء للقدوم عليه لمحاربة عساكر المعز وما زال بهم حتى وافوا دمشق في سنة خمس وستين ونزلوا على ظاهرها ومعهم كثير من أصحاب هفتكين كانوا قد تشتتوا في البلاد فقوي بهم ولقي القرامطة وحمل إليهم وسر بهم. فأقاموا على دمشق أياما ثم رحلوا نحو الرملة وبها أبو محمود فلحق بيافا ونزل القرامطة الرملة ونصبوا القتال على يافا حتى كل الفريقان وسئموا جميعا من طول الحرب وسار هفتكين على الساحل ونزل صيدا وبها ظالم بن مرهوب العقيلي وابن الشيخ من قبل المعز. فقاتلهم قتالا شديدا انهزم منه ظالم إلى صور وقتل بين الفريقين نحو أربعة آلاف رجل. فقطع أيدي القتلى من عساكر المعز وسيرها إلى دمشق فطيف بها. ثم سار عن صيدا يريد عكا وبها عسكر المعز

وَكَانَ قَدُومُ المُعِزِّ فِي رَبِيعٍ الآخِرِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ العَزِيزُ بِاللهِ وَسَيَّرَ جَوْهَرًا القَائِدَ فِي عَسْكَرٍ عَظِيمٍ إِلَى قِتَالِ هَفْتَكِينَ وَالقَرَامِطَةِ. فَبَلَغَ ذٰلِكَ القَرَامِطَةَ وَهُمْ عَلَى الرَّمْلَةِ وَوَصَلَ الخَبَرُ بِمَسِيرِهِ إِلَى هَفْتَكِينَ وَهُوَ عَلَى عَكَّا فَخَافَ القَرَامِطَةُ وَفَرُّوا عَنْهَا فَنَزَلَهَا جَوْهَرٌ وَسَارَ مِنَ القَرَامِطَةِ إِلَى الأَحْسَاءِ الَّتِي هِيَ بِلَادُهُمْ جَمَاعَةٌ وَتَأَخَّرَ عِدَّةٌ. وَسَارَ هَفْتَكِينُ مِنْ عَكَّا إِلَى طَبَرِيَّةَ وَقَدْ عَلِمَ بِمَسِيرِ القَرَامِطَةِ وَتَأَخُّرِ بَعْضِهِمْ فَاجْتَمَعَ بِهِمْ فِي طَبَرِيَّةَ وَاسْتَعَدَّ لِلِقَاءِ جَوْهَرٍ وَجَمَعَ الأَقْوَاتَ مِنْ بِلَادِ حَوْرَانَ وَالبَثَنِيَّةِ وَأَدْخَلَهَا إِلَى دِمَشْقَ وَسَارَ إِلَيْهَا فَتَحَصَّنَ بِهَا. وَنَزَلَ جَوْهَرٌ عَلَى ظَاهِرِ دِمَشْقَ لِثَمَانٍ بَقِينَ مِنْ ذِي القَعْدَةِ وَبَنَى عَلَى مُعَسْكَرِهِ سُورًا وَحَفَرَ خَنْدَقًا عَظِيمًا وَجَعَلَ لَهُ أَبْوَابًا وَجَمَعَ هَفْتَكِينُ النَّاسَ لِلْقِتَالِ. وَكَانَ قَدْ تَعَيَّنَ بَعْدَ ابْنِ المَاوَرْدِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِقَسَّامٍ الشَّرَابِ وَصَارَ فِي عِدَّةٍ وَافِرَةٍ مِنَ الدُّعَّارِ فَأَعَانَهُ هَفْتَكِينُ وَقَوَّاهُ وَأَمَدَّهُ بِالسِّلَاحِ وَغَيْرِهِ. وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جَوْهَرٍ حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ طَوِيلَةٌ إِلَى يَوْمِ الحَادِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ

فَاخْتَلَّ أَمْرُ هَفْتَكِينَ وَهَمَّ بِالفِرَارِ. ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَظْهَرَ وَوَرَدَتِ الأَخْبَارُ بِقُدُومِ الحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ القَرْمَطِيِّ إِلَى دِمَشْقَ وَطَلَبَ جَوْهَرٌ الصُّلْحَ عَلَى أَنْ يَرْحَلَ عَنْ دِمَشْقَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْبَعَهُ أَحَدٌ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ رَأَى أَمْوَالَهُ قَدْ قَلَّتْ وَهَلَكَ كَثِيرٌ مِمَّا كَانَ فِي عَسْكَرِهِ حَتَّى صَارَ أَكْثَرُ عَسْكَرِهِ رَجَّالَةً وَأَعْوَزَهُمُ العَلَفُ وَخَشِيَ قُدُومَ القَرَامِطَةِ. فَأَجَابَهُ هَفْتَكِينُ وَقَدْ عَظُمَ فَرَحُهُ وَاشْتَدَّ سُرُورُهُ. فَرَحَلَ فِي ثَالِثِ جُمَادَى الأُولَى وَجَدَّ فِي السَّيْرِ وَقَدْ

قُرْبَ ٱلقَرْمَطِيُّ فَأَنَاخَ بِطَبَرِيَّةَ. فَبَلَغَ ذٰلِكَ ٱلقَرْمَطِيَّ فَقَصَدَهُ وَقَدْ سَارَ عَنْهَا
إِلَى ٱلرَّمْلَةِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِسَرِيَّةٍ كَانَتْ لَهَا مَعَ جَوْهَرٍ وَقْعَةٌ قُتِلَ فِيهَا جَمَاعَةٌ
مِنَ ٱلعَرَبِ وَأَدْرَكَهُ ٱلقَرْمَطِيُّ وَسَارَ فِي أَثَرِ هَفْتَكِينَ. فَمَاتَ ٱلحَسَنُ بْنُ
أَحْمَدَ ٱلقَرْمَطِيُّ بِٱلرَّمْلَةِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ ٱلقَرَامِطَةِ ٱبْنُ عَمِّهِ جَعْفَرٌ.
فَفَسَدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَفْتَكِينَ وَرَجَعَ عَنِ ٱلرَّمْلَةِ إِلَى ٱلأَحْسَاءِ وَنَاصَبَ هَفْتَكِينُ
ٱلقِتَالَ وَأَلَحَّ فِيهِ عَلَى جَوْهَرٍ حَتَّى ٱنْهَزَمَ مِنْهُ وَصَارَ إِلَى عَسْقَلَانَ. وَقَدْ غَنِمَ
هَفْتَكِينُ مِمَّا كَانَ مَعَهُ شَيْئًا يَجِلُّ عَنِ ٱلوَصْفِ وَنَزَلَ عَلَى ٱلبَلَدِ مُحَاصِرًا لَهُ.
وَبَلَغَ ذٰلِكَ ٱلعَزِيزَ فَٱسْتَعَدَّ لِلْمَسِيرِ إِلَى بِلَادِ ٱلشَّامِ.

فَلَمَّا طَالَ ٱلأَمْرُ عَلَى جَوْهَرٍ رَاسَلَ هَفْتَكِينَ حَتَّى تَقَرَّرَ ٱلصُّلْحُ عَلَى مَالٍ
يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ سَيْفِ هَفْتَكِينَ. فَعَلَّقَ سَيْفَهُ عَلَى بَابِ
عَسْقَلَانَ وَخَرَجَ جَوْهَرٌ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ تَحْتِهِ وَسَارُوا إِلَى ٱلقَاهِرَةِ فَوَجَدَ
ٱلعَزِيزَ قَدْ بَرَزَ يُرِيدُ ٱلسَّيْرَ فَسَارَ مَعَهُ. وَكَانَ مُدَّةُ قِتَالِ هَفْتَكِينَ لِجَوْهَرٍ
عَلَى ظَاهِرِ ٱلرَّمْلَةِ وَفِي عَسْقَلَانَ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا. وَسَارَ ٱلعَزِيزُ بِٱللهِ حَتَّى
نَزَلَ ٱلرَّمْلَةَ. وَكَانَ هَفْتَكِينُ بِطَبَرِيَّةَ فَسَارَ إِلَى لِقَاءِ ٱلعَزِيزِ وَمَعَهُ أَبُو
إِسْحٰقَ وَأَبُو طَاهِرٍ أَخُو عِزِّ ٱلدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ بُوَيْهِ وَأَبُو كَالِيجَارَ
مَرْزُبَانُ بْنُ عِزِّ ٱلدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ بْنِ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ وَحَارَبُوهُ. فَلَمْ
تَكُنْ غَيْرُ سَاعَةٍ حَتَّى هَزَمَتْ عَسَاكِرُ ٱلعَزِيزِ عَسَاكِرَ هَفْتَكِينَ وَمَلَكُوهُ فِي
يَوْمِ ٱلخَمِيسِ لِسَبْعٍ بَقِينَ مِنَ ٱلمُحَرَّمِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلْثِمِائَةٍ. وَٱسْتَأْمَنَ
أَبُو إِسْحٰقَ وَمَرْزُبَانُ بْنُ بَخْتِيَارَ وَقُتِلَ أَبُو طَاهِرٍ أَخُو عِزِّ ٱلدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ
وَأُخِذَ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ أَسْرَى وَطُلِبَ هَفْتَكِينُ فِي ٱلقَتْلَى فَلَمْ يُوجَدْ وَكَانَ

قد فر وقت الهزيمة على فرس بمفرده فأخذه بعض العرب أسيرا وقدم به على مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي وعمامته في عنقه. فبعث به إلى العزيز فأمر به فشهر في العسكر وطيف به فأخذ الناس يلطمونه ويهزؤن لحيته حتى رأى في نفسه العبر

ثم سار العزيز بهفتكين والأسرى إلى القاهرة فاصطنعه ومن معه وأحسن إليه غاية الإحسان وأنزله في دار وواصله بالعطاء والخلع حتى قال: لقد احتشمت من ركوبي مع مولانا العزيز بالله ونظري إليه بما غمرني به من فضله وإحسانه: فلما بلغ ذلك العزيز قال لعمه حيدرة: يا عم والله إني أحب أن أرى النعم على الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندي: وبلغ العزيز أن الناس من العامة يقولون ما هذا التركي فأمر به وشهر في أجمل حال. ولما رجع من تطوافه وهب له مالا جزيلا وخلع عليه وأمر سائر الأولياء أن يدعوه إلى دورهم فما منهم إلا من عمل له دعوة وقدم إليه وقاد بين يديه الخيول. ثم إن العزيز قال له بعد ذلك: كيف رأيت دعوة أصحابنا. فقال: يا مولانا حسنة في الغاية وما فيهم إلا من أنعم وأكرم: فصار يركب للصيد والتفرج وجمع إليه العزيز بالله أصحابه من الأتراك والديلم والحجبة واختص به. وما زال على ذلك إلى أن توفي سنة اثنتين وسبعين وثلثمائة فاتهم العزيز وزيره يعقوب بن كلس أنه سمه لأن هفتكين كان يترفع عليه فاعتقله مدة ثم أخرجه

حارةُ ٱلأتراكِ . هذِهِ ٱلحارةُ تُجاهَ ٱلجامِعِ ٱلأزهرِ وتُعرفُ ٱليومَ بِدَربِ ٱلأتراكِ ، وكانَ نافِذاً إلى حارةِ ٱلدَّيلمِ وٱلورّاقونَ ٱلقُدماءُ تارةً يُفرِدونَها مِنَ ٱلدَّيلمِ وتارةً يُضيفونَها إليها ويَجعلونَها مِن حُقوقِها فيَقولونَ حارةُ ٱلدَّيلمِ وٱلأتراكِ . وتارةً يَقولونَ حارتَيِ ٱلدَّيلمِ وٱلأتراكِ . وقيلَ لَها حارةُ ٱلأتراكِ لِأنَّ هفتكينَ لمّا غلبَ بِبغدادَ سارَ معَهُ مِن جِنسِهِ أربعمائةٍ مِنَ ٱلأتراكِ وتَلاحقَ بِهِ عِندَ وُرودِ ٱلقرامِطةِ عليهِ بِدِمشقَ عِدّةٌ مِن أصحابِهِ . فلمّا جمعَ لِحربِ ٱلعزيزِ بِٱللهِ كانَ أصحابُهُ ما بينَ تُركٍ ودَيلمٍ . فلمّا قبضَ عليهِ ٱلعزيزُ ودخلَ إلى ٱلقاهرةِ بِهِ في ٱلثاني وٱلعِشرينَ مِن شهرِ ربيعٍ ٱلأوّلِ سنةَ ثمانٍ وستّينَ وثلثمائةٍ كما تقدَّمَ نزلَ ٱلدَّيلمُ معَ أصحابِهِم في موضعِ حارةِ ٱلدَّيلمِ ونزلَ هفتكينُ بِأتراكِهِ في هذا ٱلمكانِ . فصارَ يُعرفُ بِحارةِ ٱلأتراكِ وكانتْ مُختلِطةً بِحارةِ ٱلدَّيلمِ لِأنَّهما أهلُ دعوةٍ واحِدةٍ إلّا أنَّ كُلَّ جِنسٍ على حِدةٍ لِتخالُفِهِما في ٱلجِنسيّةِ ثُمَّ قيلَ بعدَ ذلِكَ دربُ ٱلأتراكِ

نُخْبَةٌ
مِنْ سِيرَةِ ٱلسُّلْطَانِ ٱلْمَالِكِ ٱلنَّاصِرِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ [1]
لِبَهَاءِ ٱلدِّينِ ٱلشَّدَّادِيِّ

ذِكْرُ مَسِيرِ ٱلْإِفْرِنْجِ ٱلصَّلِيبِيِّينَ مِنْ عَكَّا إِلَى عَسْقَلَانَ وَٱنْتِقَالِهِمْ إِلَى طَرَفِ ٱلْبَحْرِ مِنْ جَانِبِ ٱلْغَرْبِ

وَلَمَّا كَانَ ٱلتَّاسِعُ وَٱلْعِشْرُونَ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ. رَكِبَ ٱلْإِفْرِنْجُ بِأَسْرِهِمْ. وَقَلَعُوا خِيَامَهُمْ. وَحَمَلُوهَا عَلَى دَوَابِّهِمْ. وَسَارُوا حَتَّى قَطَعُوا ٱلنَّهْرَ إِلَى ٱلْجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ. وَضَرَبُوا ٱلْخِيَامَ عَلَى طَرِيقِ عَسْقَلَانَ. وَأَظْهَرُوا ٱلْعَزْمَ عَلَى ٱلْمَسِيرِ عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ. وَأَمَرَ ٱلْأَنْكِتَارُ (يُرِيدُ بِهِ ريكَرْدُوسَ مَلِكَ ٱلْأَنْكِلِيزِ) بَاقِيَ ٱلنَّاسِ أَنْ يَدْخُلُوا إِلَى ٱلْبَلَدِ. وَكَانُوا قَدْ سَدُّوا ثُغَرَهُ وَثُلَمَهُ. وَأَصْلَحُوا مَا ٱسْتَهْدَمَ مِنْهُ. وَكَانَ مُقَدَّمُ

---

[1] اما صلاح الدين فهو اول ملوك الايوبيين في مصر ولد في تكريت ما بين النهرين وكان ولدًا لايوب الكردي. فاشتهر منذ شبيبته بمحاربة المسيحيين فذهب الى مصر حيث تقيد بخدمة نور الدين في سنة ١١٦٤ فاصبح وزيرًا لاخر الفاطميين. وبعد وفاة نور الدين انتهز فرصةً حداثة ولده صلاح اسماعيل. فاقام نفسه وصيًّا عليه واستولى على سورية في سنة ١١٧٥. ثم استقل في مصر والحق بملكه جانبًا عظيمًا من بين النهرين. فحاربه المسيحيون فاستظهروا عليه في رملة (١١٧٨) لكنه استظهر في بانياس وطبرية على قوي دي لوزينيان ملك القدس واستأسره (١١٧٨) وفيها استولى على القدس وقبض على زمام مملكتها فكان سقوط مملكة القدس سببًا لحرب الصليبيين الثالثة. فاضطر صلاح الدين ان يقاسي مشقات عظيمة اولًا فاخذت منه عكا وقيصرية ويافا. لكنه قهرًا عن بسالة المسيحيين لاسيما ريكَرْدوس قلب الاسد ظفر وساد. وتوفي سنة ١١٩٣ وله اخ يدعى مالك عادل و١٧ ولدًا تقاسموا ملكه. فحاز صلاح الدين الاعتبار حتى لدى المسيحيين ايضًا لحسن سياسته ونشاطه وكرمه وشجاعته (بويلي)

ٱلْعَسْكَرِ ٱلْخَارِجِ ٱلسَّائِرِ ٱلْأَنْكِتَارُ . وَجَمْعٌ عَظِيمٌ مِنَ ٱلرَّجَّالَةِ وَٱلْخَيَّالَةِ .
وَلَمَّا كَانَ مُسْتَهَلُّ شَعْبَانَ ٱشْتَعَلَتْ نِيرَانُ ٱلْعَدُوِّ فِي سَحَرِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ
وَعَادَتُهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا ٱلرَّحِيلَ أَشْعَلُوا نِيرَانَهُمْ . وَأَخْبَرَ ٱلْيَزَكُ بِحَرَكَتِهِمْ
فَأَمَرَ ٱلسُّلْطَانُ بِٱلثِّقْلِ أَنْ يُرْفَعَ حَتَّى يَبْقَى ٱلنَّاسُ عَلَى ظَهْرٍ . فَفَعَلَ ٱلنَّاسُ
ذٰلِكَ . وَهَلَكَ مِنَ ٱلنَّاسِ قُمَاشٌ كَثِيرٌ . وَحَوَائِجُ كَثِيرَةٌ مِنَ ٱلسُّوقَةِ لَمْ
يَكُنْ مَعَهُمْ خَيْلٌ وَلَا ظَهْرٌ يَحْمِلُ جَمِيعَ مَا عِنْدَهُمْ . لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ كَانَ
يُحَصِّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَشْهُرٍ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلسُّوقَةِ عِنْدَهُ مَا يَنْفُذُ مِنْ
مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ فِي مِرَارٍ مُتَعَدِّدَةٍ . لٰكِنَّ هٰذَا ٱلْمَنْزِلَ لَمْ يُمْكِنْ أَنْ يَتَخَلَّفَ
فِيهِ أَحَدٌ لِقُرْبِهِ مِنَ ٱلْإِفْرِنْجِ ٱلَّذِينَ بِعَكَّا وَٱلْخَوْفِ مِنْهُمْ

وَلَمَّا أَنْ عَلَا ٱلنَّهَارُ . شَرَعَ ٱلْعَدُوُّ فِي ٱلسَّيْرِ عَلَى جَانِبِ ٱلْبَحْرِ . وَتَفَرَّقُوا
قِطَعًا كَثِيرَةً . كُلُّ قِطْعَةٍ تَحْمِي عَنْ نَفْسِهَا . وَقَوَّى ٱلسُّلْطَانُ (أَيْ صَلَاحُ
ٱلدِّينِ) ٱلْيَزَكَ . وَأَنْفَذَ مُعْظَمَ ٱلْعَسَاكِرِ قُبَالَتَهُمْ . فَمَضَوْا وَقَاتَلُوهُمْ قِتَالًا
شَدِيدًا . وَأَنْفَذَ وَلَدُهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْأَفْضَلُ يُخْبِرُ أَنَّهُ قَطَعَ طَائِفَةً مِنْهُمْ عَنِ
ٱلْمُوَافَقَةِ . وَلَقَدْ لَزَّبْنَاهُمْ بِٱلْقِتَالِ . وَلَوْ قَوِينَا لَأَخَذْنَاهُمْ . فَسَيَّرَ ٱلسُّلْطَانُ
خَلْقًا عَظِيمًا مِنَ ٱلْعَسْكَرِ . وَسَارَ هُوَ بِنَفْسِهِ وَأَنَا بِخِدْمَتِهِ . حَتَّى أَتَى أَوَائِلَ
ٱلرَّمْلِ . فَلَقِيَنَا ٱلْمَلِكُ ٱلْعَادِلُ أَخُوهُ : إِنَّ تِلْكَ ٱلطَّائِفَةَ قَدِ ٱلْتَحَقَتْ بِٱلطَّائِفَةِ
ٱلْأُولَى . وَمُعْظَمُ ٱلْقَوْمِ قَدْ عَبَرُوا نَهْرَ حَيْفَا وَقَدْ نَزَلُوا . وَٱلْبَاقُونَ قَدْ لَحِقُوا
بِهِمْ . وَلَيْسَ لِلْمَسِيرِ وَرَاءَهُمْ حَاصِلٌ إِلَّا إِتْعَابُ ٱلْعَسْكَرِ وَضَيَاعُ ٱلنُّشَّابِ
لَا غَيْرُ

فَتَرَاجَعَ ٱلسُّلْطَانُ عَنِ ٱلْقَوْمِ لَمَّا تَحَقَّقَ ذٰلِكَ وَأَمَرَ طَائِفَةً مِنَ ٱلْعَسْكَرِ

أَنْ تَسِيرَ وَرَاءَ ٱلثِّقْلِ يَلْحَقُ ضَعِيفَهُمْ بِقَوِيِّهِمْ. وَيَكُفُّ عَنْهُمْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِنَ ٱلْعَدُوِّ وَٱلطَّمَّاعَةِ. وَسَارَ هُوَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى ٱلْقَيْمُونِ عَصْرَ ذَٰلِكَ ٱلنَّهَارِ فَنَزَلَ وَضُرِبَ لَهُ ٱلدِّهْلِيزُ وَشُقَّةٌ دَائِرَةٌ حَوْلَهُ لَا غَيْرُ. وَٱسْتَحْضَرَ ٱلْجَمَاعَةَ وَأَكَلُوا شَيْئًا وَٱسْتَشَارَهُمْ فِي مَا يَفْعَلُ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلثَّانِي: ٱتَّفَقَ رَأْيُ جَمَاعَةٍ عَلَى أَنَّهُمْ يَرْحَلُونَ بُكْرَةَ غَدٍ. هٰذَا وَقَدْ رَتَّبَ حَوْلَ ٱلْإِفْرِنْجِ يَزَكًا يَبَاتُونَ حَوْلَهُ وَيَرْقُبُونَ أَمْرَهُ. وَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ ثَانِي شَعْبَانَ رَحَّلَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلثِّقْلَ وَأَقَامَ هُوَ يَتَرَصَّدُ أَخْبَارَ ٱلْعَدُوِّ فَلَمْ يَصِلْ مِنْهُمْ شَيْءٌ إِلَى أَنْ عَلَا ٱلنَّهَارُ. فَسَارَ فِي أَثَرِ ٱلثِّقْلِ حَتَّى أَتَى قَرْيَةً يُقَالُ لَهَا قَرْيَةُ ٱلصَّبَّاغِينَ. فَجَلَسَ يَتَرَقَّبُ أَخْبَارَ ٱلْعَدُوِّ وَكَانَ قَدْ خَلَّفَ جُرْدِيكَ قَرِيبَ ٱلْعَدُوِّ فَلَمْ يَصِلْهُ خَبَرٌ أَصْلًا. فَسَارَ حَتَّى أَتَى ٱلثِّقْلَ فِي مَنْزِلَةٍ يُقَالُ لَهَا عُيُونُ ٱلْأَسَاوِدِ وَلَمَّا بَلَغْنَا ٱلْمَنْزِلَةَ رَأَى خِيَامًا فَسَأَلَ عَنْهَا فَقِيلَ إِنَّهَا خِيَمُ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ. فَعَدَلَ لِيَنْزِلَ عِنْدَهُ فَأَقَامَ عِنْدَهُ سَاعَةً. ثُمَّ أَتَى خَيْمَتَهُ. وَفُقِدَ ٱلْخُبْزُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَغَلَا ٱلشَّعِيرُ حَتَّى بَلَغَ دِرْهَمًا وَبَلَغَ ٱلْبَقْسِمَاطُ ٱلرَّطْلُ دِرْهَمَيْنِ. ثُمَّ أَقَامَ ٱلسُّلْطَانُ حَتَّى عَبَرَ وَقْتُ ٱلظُّهْرِ. وَرَكِبَ وَسَارَ إِلَى مَوْضِعٍ يُسَمَّى ٱلْمَلَّاحَةَ تَكُونُ مَنْزِلًا لِلْعَدُوِّ إِذَا رَحَلَ مِنْ حَيْفَا. وَكَانَ قَدْ سَبَقَ لِيَتَفَقَّدَ ٱلْمَكَانَ هَلْ يَصْلُحُ لِلْمَصَافِّ أَمْ لَا. وَيَتَفَقَّدَ أَرَاضِيَ قَيْسَارِيَةَ بِأَسْرِهَا إِلَى ٱلشَّعْرَاءِ. وَعَادَ إِلَى ٱلْمَنْزِلِ بَعْدَ دُخُولِ وَقْتِ ٱلْعِشَاءِ ٱلْآخِرِ. وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ ٱلتَّعَبُ. وَسَأَلْتُهُ عَمَّا بَلَغَهُ مِنْ خَبَرِ ٱلْعَدُوِّ فَقَالَ: وَصَلَ إِلَيْنَا مَنْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ مَا رَحَلَ مِنْ حَيْفَا إِلَى عَصْرِ يَوْمِنَا هٰذَا يَعْنِي ثَانِيَ شَعْبَانَ وَهَا نَحْنُ مُقِيمُونَ مُرْتَقِبُونَ أَخْبَارَهُمْ

وَيَكُونُ ٱلْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهَا . وَبَاتَ فِي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا بِتَلِّ ٱلزَّلْزَلَةِ يَنْتَظِرُ ٱلْعَدُوَّ وَنَادَى ٱلْجَاوِيشُ بِٱلْعَسْكَرِ لِلْعَرْضِ . فَرَكِبَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَرْتِيبِ ٱلْمَصَافِّ وَأُهْبَتِهِ . وَلَمَّا عَلَا ٱلنَّهَارُ نَزَلَ ٱلسُّلْطَانُ فِي خَيْمَتِهِ وَأَخَذَ نَصِيبًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ ٱلْغَدَاءِ وَمُثُولِ جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلْأُمَرَاءِ إِلَى خِدْمَتِهِ وَأَخْذِ رَأْيِهِمْ فِي مَا يَصْنَعُونَ . ثُمَّ صَلَّى ٱلظُّهْرَ وَجَلَسَ يُطْلِقُ أَثْمَانَ ٱلْخُيُولِ ٱلْمَجْرُوحَةِ وَغَيْرِهَا إِلَى ٱلْعِشَاءِ ٱلْآخِرَةِ مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ إِلَى مِئَةٍ وَخَمْسِينَ دِينَارًا زَائِدًا وَنَاقِصًا . فَمَا رَأَيْتُ أَفْسَحَ صَدْرًا مِنْهُ وَلَا أَبْسَطَ وَجْهًا فِي ٱلْعَطَاءِ وَٱتَّفَقَ ٱلرَّأْيُ عَلَى رَحِيلِ ٱلثَّقَلِ فِي عَصْرِ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ إِلَى مَجْدَلِ يَابَا

ٱلْمَنْزِلُ ٱلثَّالِثُ : وَأَقَامَ هُوَ جَرِيدَةً بِٱلْمَنْزِلِ إِلَى ٱلصَّبَاحِ رَابِعَ ٱلشَّهْرِ . وَرَكِبَ وَسَارَ فِي رَأْسِ ٱلنَّهْرِ ٱلْجَارِي إِلَى قَيْسَارِيَةَ وَنَزَلَ هُنَاكَ . وَبَلَغَ ٱلْبِقْصِمَاطُ ٱلرِّطْلُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ . وَٱلشَّعِيرُ ٱلرُّبْعُ دِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ . وَٱلْخُبْزُ لَمْ يُوجَدْ أَصْلًا . وَنَزَلَ فِي خَيْمَةٍ وَأَكَلَ خُبْزًا وَصَلَّى ٱلظُّهْرَ . وَرَكِبَ إِلَى طَرِيقِ ٱلْعَدُوِّ لِتَجْدِيدِ إِرْشَادِهِ فِي ضَرْبِ ٱلْمَصَافِّ . وَلَمْ يَعُدْ إِلَى أَنْ دَخَلَ وَقْتُ ٱلْعَصْرِ فَجَلَسَ سَاعَةً وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ . ثُمَّ عَادَ وَرَكِبَ وَأَمَرَ ٱلنَّاسَ بِٱلرَّحِيلِ وَرَمَى خَيْمَتَهُ وَرَمَى ٱلنَّاسُ خِيَامَهُمْ فِي أَوَاخِرِ ٱلنَّهَارِ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلرَّابِعُ : وَكَانَ ٱلرَّحِيلُ إِلَى رَابِيَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ تِلْكَ ٱلرَّابِيَةِ . وَفِي ذَٰلِكَ ٱلْمَنْزِلِ أُتِيَ بِٱثْنَيْنِ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ قَدْ تَخَطَّفَهُمُ ٱلْيَزَكُ . فَأَمَرَ بِضَرْبِ رِقَابِهِمَا فَقُتِلَا . وَتَكَاثَرَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِمَا بِٱلسُّيُوفِ تَشَفِّيًا . ثُمَّ بَاتَ هُنَاكَ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا بِٱلْمَنْزِلَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ عَنِ ٱلْعَدُوِّ رَحِيلٌ وَأَنْفَذَ إِلَى ٱلثَّقَلِ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ مِمَّا طَرَأَ عَلَى ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلضِّيقِ فِي ٱلْمَآكِلِ وَٱلْقَضْمِ . وَرَكِبَ

فِي وَقْتِ عَادَتِهِ إِلَى جِهَةِ ٱلْعَدُوِّ . وَأَشْرَفَ عَلَى قَيْسَارِيَّةَ . وَعَادَ إِلَى ٱلثِّقَلِ قَرِيبَ ٱلظُّهْرِ وَقَدْ وَصَلَ ٱلْخَبَرُ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ لَمْ يَرْحَلْ بَعْدُ مِنَ ٱلْمَلَّاحَةِ. وَأُحْضِرَ عِنْدَهُ ٱثْنَانِ أَيْضًا قَدْ أُخِذَا مِنْ أَطْرَافِ ٱلْعَدُوِّ وَقُتِلَا شَرَّ قِتْلَةٍ. وَكَانَ فِي حِدَّةِ ٱلضِّيقَةِ لِمَا جَرَى عَلَى أَسْرَى عَكَّا . ثُمَّ أَخَذَ جُزْءًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ وَجَلَسَ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ . وَحَضَرْتُ عِنْدَهُ وَقَدْ أُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْعَدُوِّ فَارِسٌ مَذْكُورٌ هَيْئَتُهُ تُخْبِرُ عَنْ أَنَّهُ مُتَقَدِّمٌ فِيهِمْ. فَأُحْضِرَ تُرْجُمَانٌ وَبَحَثَ عَنْ أَحْوَالِ ٱلْقَوْمِ وَسَأَلَهُ كَيْفَ يُسَوَّى ٱلطَّعَامُ عِنْدَكُمْ فَقَالَ: أَوَّلَ يَوْمٍ رَحَلْنَا مِنْ عَكَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ يَشْبَعُ بِسِتَّةِ قَرَاطِيسَ فَلَمْ يَزَلِ ٱلسِّعْرُ يَغْلُو حَتَّى صَارَ يَشْبَعُ بِثَمَانِيَةِ قَرَاطِيسَ . وَسَأَلَ عَنْ سَبَبِ تَأَخُّرِهِمْ فِي ٱلْمَنَازِلِ فَقَالَ: لِاَنْتِظَارِ وُصُولِ ٱلْمَرَاكِبِ بِٱلرِّجَالِ وَٱلْمِيرَةِ. فَسَأَلَ عَنِ ٱلْقَتْلَى وَٱلْجَرْحَى فِي يَوْمِ رَحِيلِهِمْ فَقَالَ: كَثِيرٌ. فَسَأَلَ عَنِ ٱلْخَيْلِ ٱلَّتِي هَلَكَتْ فِي ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ فَقَالَ: مِقْدَارُ أَرْبَعِ مِئَةِ فَرَسٍ. فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ. وَنَهَى عَنِ ٱلتَّمْثِيلِ بِهِ. فَسَأَلَ ٱلتُّرْجُمَانَ عَمَّا قَالَ ٱلسُّلْطَانُ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ. فَتَغَيَّرَ تَغَيُّرًا عَظِيمًا وَقَالَ: أَنَا أُخَلِّصُ لَكُمْ أَسِيرًا مِنْ عَكَّا. فَقَالَ رَحِمَهُ ٱللهُ بَلْ أَمِيرًا . فَقَالَ: لَا أَقْدِرُ عَلَى خَلَاصِ أَمِيرٍ. فَشَفَعَ ٱلطَّمَعُ فِيهِ وَحُسْنُ خِلْقَتِهِ. فَإِنِّي مَا رَأَيْتُ أَتَمَّ خِلْقَةً مِنْهُ مَعَ تَرَفٍ فِي ٱلْأَطْرَافِ وَرَفَاهِيَةٍ. فَأَمَرَ أَنْ يُتْرَكَ ٱلْآنَ وَيُؤَخَّرَ أَمْرُهُ. فَصَدَفَهُ وَعَاتَبَهُ عَلَى مَا بَدَا مِنْهُمْ مِنَ ٱلْغَدْرِ وَقَتْلِ ٱلْأَسْرَى. فَٱعْتَرَفَ بِأَنَّهُ قَبِيحٌ وَأَنَّهُ لَمْ يَجْرِ إِلَّا بِرِضَى ٱلْمَلِكِ وَحْدَهُ . وَرَكِبَ ٱلسُّلْطَانُ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلْعَصْرِ عَلَى عَادَتِهِ . وَبَعْدَ أَنْ نَزَلَ أَمَرَ بِقَتْلِ ٱلْفَارِسِ ٱلْمَذْكُورِ . وَأُتِيَ بَعْدَهُ بِٱثْنَيْنِ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا . وَبَاتَ

فِي ذَٰلِكَ ٱلْمَنْزِلِ وَذُكِرَ لَهُ فِي ٱلسَّحَرِ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ قَدْ تَحَرَّكَ نَحْوَ قِيسَارِيَةَ. وَقَارَبَ أَوَائِلُهُمُ ٱلْبَلَدَ. فَرَأَى أَنْ يَتَأَخَّرَ مِنْ طَرِيقِ ٱلْعَدُوِّ مَنْزِلًا آخَرَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلْخَامِسُ: فَرَحَلَ وَرَحَلَ ٱلنَّاسُ إِلَى قَرِيبِ ٱلتَّلِّ ٱلَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ فَنَزَلَ ٱلنَّاسُ وَضُرِبَتِ ٱلْخِيَامُ. وَمَضَى هُوَ يَرْتَادُ ٱلْأَرَاضِيَ ٱلْكَائِنَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْعَدُوِّ لِيَنْظُرَ أَيَّهَا أَصْلَحُ لِلْمَصَافِّ وَنَزَلَ قَرِيبَ ٱلظُّهْرِ. وَٱسْتَدْعَى أَخَاهُ ٱلْمَلِكَ ٱلْعَادِلَ. وَعَلَمَ ٱلدِّينِ سُلَيْمَانَ. وَأَخَذَ رَأْيَهُمَا فِي مَا يَصْنَعُ. وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ وَأُذِّنَ ٱلظُّهْرَ. فَصَلَّى وَرَكِبَ لِيُشْرِفَ وَلِيَكْشِفَ عَنِ ٱلْعَدُوِّ وَيَتَنَسَّمَ أَخْبَارَهُ. وَأَتَاهُ ٱثْنَانِ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ قَدْ نُهِبَا وَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا فَقُتِلَا. ثُمَّ أُتِيَ بِٱثْنَيْنِ آخَرَيْنِ فَقُتِلَا أَيْضًا. وَجِيءَ أَوَاخِرَ ٱلنَّهَارِ بِٱثْنَيْنِ فَقُتِلَا أَيْضًا. وَعَادَ مِنَ ٱلرُّكُوبِ وَصَلَّى صَلَاةَ ٱلْمَغْرِبِ. وَجَلَسَ عَلَى عَادَتِهِ وَٱسْتَدْعَى أَخَاهُ وَصَرَفَ ٱلنَّاسَ. وَخَلَا بِهِ إِلَى هَوِيٍّ مِنَ ٱللَّيْلِ. ثُمَّ بَاتَ وَأَصْبَحَ وَنَادَى ٱلْجَاوِيشَ لِعَرْضِ ٱلْحَلْقَةِ لَا غَيْرُ. وَرَكِبَ إِلَى جِهَةِ ٱلْعَدُوِّ وَوَقَفَ عَلَى تُلُولٍ مُشْرِفَةٍ عَلَى قِيسَارِيَةَ. وَكَانَ ٱلْعَدُوُّ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهَا نَهَارَ ٱلْجُمُعَةِ سَادِسَ شَعْبَانَ. وَلَمْ يَزَلْ يَعْرِضُ هُنَاكَ إِلَى أَنْ عَلَا ٱلنَّهَارُ. ثُمَّ نَزَلَ وَأَكَلَ ٱلطَّعَامَ. وَرَكِبَ إِلَى أَخِيهِ وَعَادَ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ. وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ. وَأُتِيَ بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ وَٱمْرَأَةٍ إِفْرَنْجِيَّةٍ بَيْنَهُمْ أَسِيرَةٍ. وَهِيَ بِنْتُ ٱلْفَارِسِ ٱلْمَذْكُورِ. وَمَعَهَا أَسِيرَةٌ مُسْلِمَةٌ قَدْ أَخَذَتْهَا. فَأُطْلِقَتِ ٱلْمُسْلِمَةُ. وَرُفِعَ ٱلْبَاقُونَ إِلَى ٱلزَّرَدْخَانَةِ وَهٰؤُلَاءِ أُتِيَ بِهِمْ مِنْ بَيْرُوتَ أُخِذُوا فِي مَرْكَبٍ مِنْ جُمْلَةِ عِدَّةٍ كَثِيرَةٍ قُتِلُوا. كُلُّ ذَٰلِكَ فِي نَهَارِ ٱلسَّبْتِ سَابِعِ ٱلشَّهْرِ. وَهُوَ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ يَنْتَظِرُ رَحِيلَ ٱلْعَدُوِّ. مُجْمِعًا عَلَى

لِقَائِهِ إِذَا رَحَلَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلسَّادِسُ : وَلَمَّا كَانَ صَبِيحَةُ ٱلثَّامِنِ رَكِبَ ٱلسُّلْطَانُ عَلَى عَادَتِهِ ثُمَّ نَزَلَ . وَوَصَلَ مِنْ أَخِيهِ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ عَلَى حَرَكَةٍ . وَكَانَتِ ٱلْأَطْلَابُ قَدْ بَاتَتْ حَوْلَ قِيسَارِيَّةَ فِي مَوَاضِعِهَا . فَأَمَرَ بِمَدِّ الطَّعَامِ وَأَطْعَمَ ٱلنَّاسَ فَوَصَلَ ثَانٍ وَأَخْبَرَ : أَنَّ ٱلْقَوْمَ قَدْ سَارُوا . فَأَمَرَ بِٱلْكُوسِ فَدُقَّ وَرَكِبَ وَرَكِبَ ٱلنَّاسُ وَسَارَ وَسِرْتُ فِي خِدْمَتِهِ حَتَّى أَتَى عَسْكَرَ ٱلْعَدُوِّ وَصَفَّ ٱلْأَطْلَابَ حَوْلَهُ وَأَمَرَهُمْ بِقِتَالِهِمْ وَأَخْرَجَ ٱلْجَالِيشَ . فَكَانَ ٱلنُّشَّابُ بَيْنَهُمْ كَٱلْمَطَرِ وَكَانَ عَسْكَرُ ٱلْعَدُوِّ قَدْ وَثَبَ . فَكَانَتِ ٱلرَّجَّالَةُ حَوْلَهُ كَٱلسُّورِ وَعَلَيْهِمُ ٱللُّبُودُ ٱلثَّخِينَةُ وَٱلزَّرَدِيَّاتُ ٱلسَّابِغَةُ ٱلْمُحْكَمَةُ بِحَيْثُ يَقَعُ فِيهِمُ ٱلنُّشَّابُ وَلَا يَتَأَثَّرُونَ وَهُمْ يَرْمُونَ بِٱلزَّنْبُورَكِ فَيَجْرَحُ خَيْلَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَخَيَّالَتَهُمْ . وَلَقَدْ شَاهَدْتُهُمْ وَيَتَغَرَّزُ فِي ظَهْرِ ٱلْوَاحِدِ مِنْهُمُ ٱلْوَاحِدُ وَٱلْعَشَرَةُ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى هِينَةٍ مِنْ غَيْرِ ٱنْزِعَاجٍ . وَثَمَّ قِسْمٌ آخَرُ مِنَ ٱلرَّجَّالَةِ مُسْتَرِيحٌ يَمْشُونَ عَلَى جَانِبِ ٱلْبَحْرِ وَلَا قِتَالَ عَلَيْهِمْ . فَإِذَا تَعِبَ هٰؤُلَاءِ ٱلْمُقَاتِلُونَ أَوْ أَثْخَنَهُمُ ٱلْجِرَاحُ قَامَ مَقَامَهُمُ ٱلْمُسْتَرِيحُ وَٱسْتَرَاحَ ٱلْقِسْمُ ٱلْعَمَّالُ . هٰذَا وَٱلْخَيَّالَةُ فِي وَسْطِهِمْ لَا يَخْرُجُونَ عَنِ ٱلرَّجَّالَةِ إِلَّا فِي وَقْتِ ٱلْحَمْلَةِ لَا غَيْرُ . وَقَدِ ٱنْقَسَمُوا أَيْضًا ثَلَٰثَةَ أَقْسَامٍ ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْمَلِكُ ٱلْعَتِيقُ جِفْرِي وَجَمَاعَةُ ٱلسَّاحِلِيَّةِ مَعَهُ فِي ٱلْمُقَدَّمَةِ وَٱلْأَنْكِتَارُ وَٱلْفَرَنْسِيسُ مَعَهُ فِي ٱلْوَسْطِ وَأَوْلَادُ إِلِيسَت أَصْحَابُ طَبَرِيَّةَ وَطَائِفَةٌ أُخْرَى فِي ٱلسَّاقَةِ . وَفِي وَسْطِ ٱلْقَوْمِ بُرْجٌ عَلَى عَجَلَةٍ وَعَلَيْهِ كَٱلْمَنَارَةِ ٱلْعَظِيمَةِ . هٰذَا تَرْتِيبُ ٱلْقَوْمِ عَلَى مَا شَاهَدْتُهُ . وَأَخْبَرَ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ مِنَ ٱلْأَسْرَى وَٱلْمُسْتَأْمَنِينَ .

وَسَارُوا عَلَى ٱلشِّمَالِ وَسُوقُ ٱلْحَرْبِ قَائِمَةٌ وَٱلْمُسْلِمُونَ يَرْمُونَهُمْ بِٱلنُّشَّابِ
مِنْ جَوَانِبِهِمْ وَيُحَرِّكُونَ عَزَائِمَهُمْ حَتَّى يَخْرُجُوا . وَهُمْ يَحْفَظُونَ نُفُوسَهُمْ
حِفْظًا عَظِيمًا وَيَقْطَعُونَ ٱلطَّرِيقَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَضْعِ وَيَسِيرُونَ سَيْرًا
رَفِيقًا وَمَرَاكِبُهُمْ تَسِيرُ فِي مُقَابَلَتِهِمْ فِي ٱلْبَحْرِ إِلَى أَنْ أَتَوُا ٱلْمَنْزِلَ. وَكَانَتْ
مَنَازِلُهُمْ قَرِيبَةً لِأَجْلِ ٱلرَّجَّالَةِ. فَإِنَّ ٱلْمُسْتَرِيحِينَ مِنْهُمْ كَانُوا يَحْمِلُونَ
أَثْقَالَهُمْ وَخِيَمَهُمْ لِقِلَّةِ ٱلظَّهْرِ عَلَيْهِمْ . فَٱنْظُرْ إِلَى صَبْرِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ عَلَى
ٱلْأَعْمَالِ ٱلشَّاقَّةِ . وَكَانَ مَنْزِلَتُهُمْ قَاطِعَ نَهْرٍ قِيسَارِيَّةَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلسَّابِعُ: وَلَمَّا كَانَتْ صَبِيحَةُ ٱلتَّاسِعِ وَصَلَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ
قَدْ رَكِبَ سَائِرًا فَرَكِبَ ٱلسُّلْطَانُ أَوَّلَ ٱلصُّبْحِ وَطَلَبَ ٱلْأَطْلَابَ وَأَخْرَجَ
مِنْ كُلِّ جَانِبٍ جَالِيشًا. فَسَارَ بِطُلْبِ ٱلْقَوْمِ وَطَافَ ٱلْجَالِيشُ حَوْلَهُمْ مِنْ
كُلِّ جَانِبٍ وَنَزَوْهُمْ بِٱلنُّشَّابِ. وَهُمْ سَائِرُونَ ثَلٰثَةَ أَقْسَامٍ عَلَى ٱلشِّمَالِ
ٱلَّذِي حَكَيْتُهُ. وَكُلَّمَا ضَعُفَ قِسْمٌ عَاوَنَهُ ٱلَّذِي يَلِيهِ . وَهُمْ يَحْفَظُونَ بَعْضَهُمْ
بَعْضًا . وَٱلْمُسْلِمُونَ مُحْدِقُونَ بِهِمْ مِنْ ثَلٰثَةِ جَوَانِبَ وَٱلْقِتَالُ عَلَيْهِمْ شَدِيدٌ
وَٱلسُّلْطَانُ يُقَرِّبُ ٱلْأَطْلَابَ . وَرَأَيْتُهُ هُوَ يَسِيرُ نَفْسَهُ بَيْنَ ٱلْجَالِيشِينَ .
وَنُشَّابُ ٱلْقَوْمِ يُجَاوِزُهُ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا صِبْيَانٌ بِجَنِيبَيْنِ لَا غَيْرُ. وَهُوَ يَسِيرُ
مِنْ طُلْبٍ إِلَى طُلْبٍ يَحُثُّهُمْ عَلَى ٱلتَّقَدُّمِ وَيَأْمُرُهُمْ بِمُضَايَقَةِ ٱلْقَوْمِ وَمُقَاتَلَتِهِمْ
وَٱلْكُوسَاتُ تَخْفُقُ وَٱلْبُوقَاتُ تَنْعَرُ وَٱلصِّيَاحُ بِٱلتَّهْلِيلِ وَٱلتَّكْبِيرِ يَرْتَفِعُ. هٰذَا
وَٱلْقَوْمُ عَلَى أَتَمِّ ثَبَاتٍ عَلَى تَرْتِيبِهِمْ لَا يَتَغَيَّرُونَ وَلَا يَتَزَعْجُونَ. وَجَرَتْ
حَالَاتٌ كَثِيرَةٌ وَرَجَّالَتُهُمْ تَجْرَحُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَخُيُولَهُمْ بِٱلزَّرَنْبُوكِ وَٱلنُّشَّابِ.
وَلَمْ تَزَلْ حَوَالَيْهِمْ تُقَاتِلُهُمْ وَتَخِيلُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَكُرُّونَ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْمُسْلِمِينَ

ثُمَّ يَعتَكِرُونَ عَلَيهِم إِلَى أَنْ أَتَوا نَهرًا يُقَالُ لَهُ نَهرُ القَصَبِ نَزَلُوا عَلَيهِ. وَقَدْ قَامَتِ الظَّهِيرَةُ وَضَرَبُوا خِيَامَهُم. وَتَرَاجَعَ النَّاسُ عَنهُم فَإِنَّهُم إِذَا كَانُوا نَزَلُوا أَيِسَ النَّاسُ مِنْ أَنْ يَتِمَّ مَعَهُم وَرَجَعُوا عَنْ قِتَالِهِم. وَفِي ذٰلِكَ اليَومِ قُتِلَ مِنْ فُرسَانِ الإِسلَامِ شُجَاعٌ كُنيَتُهُ إِيَازُ الطَّوِيلُ بَعضُ مَمَالِيكِ السُّلطَانِ. وَكَانَ قَدْ فَتَكَ فِيهِم وَقَتَلَ خَلقًا مِنْ خَيَّالَتِهِم وَشُجعَانِهِم وَكَانَتْ قَدِ استَفَاضَتْ شَجَاعَتُهُ بَينَ العَسكَرَينِ بِحَيثُ أَنَّهُ جَرَتْ لَهُ وَقَعَاتٌ كَثِيرَةٌ وَصَدَقَتْ أَخبَارَ الأَوَائِلِ. وَصَارَ بِحَيثُ إِذَا عَرَفَهُ الإِفرَنجُ فِي مَوضِعٍ يَخَافُونَهُ وَتَقَنطَرَ بِهِ فَرَسُهُ وَاستَشهَدَ وَحَزِنَ المُسلِمُونَ عَلَيهِ حُزنًا عَظِيمًا وَدُفِنَ عَلَى تَلٍّ مُشرِفٍ عَلَى البِركَةِ. وَنَزَلَ السُّلطَانُ بِالثِّقلِ عَلَى البِركَةِ وَهِيَ مَوضِعٌ يَجتَمِعُ فِيهِ مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ وَأَقَامَ فِي ذٰلِكَ المَنزِلِ إِلَى بَعدِ صَلَاةِ العَصرِ وَأَطعَمَ النَّاسَ خُبزًا وَاستَرَاحُوا سَاعَةً. ثُمَّ رَحَلَ وَأَتَى نَهرَ القَصَبِ وَنَزَلَ عَلَيهِ أَيضًا فَشَرِبَ مِنهُ قَلِيلًا مِنْ أَعلَاهُ وَالعَدُوُّ يَشرَبُ مِنْ أَسفَلِهِ. لَيسَ بَينَنَا إِلَّا مَسَافَةٌ يَسِيرَةٌ وَبَلَغَ الشَّعِيرُ الرُّبعُ بِأَربَعَةِ دَرَاهِمَ وَالخُبزُ مَوجُودٌ كَثِيرٌ وَسِعرُهُ رَطلٌ بِنِصفِ دِرهَمٍ. وَأَقَامَ يَنتَظِرُ رَحِيلَ الإِفرَنجِ حَتَّى يَرحَلَ فِي مُقَابَلَتِهِم. وَبَاتُوا تِلكَ اللَّيلَةَ هُنَاكَ وَبِتنَا أَيضًا

ذِكرُ وَقعَةٍ جَرَتْ

وَذٰلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ العَسكَرِ الإِسلَامِيِّ كَانُوا مُشرِفِينَ عَلَى العَدُوِّ فَصَادَفُوا جَمَاعَةً مِنهُم يَتَشَوَّفُونَ أَيضًا عَلَى العَسكَرِ الإِسلَامِيِّ فَظَفِرُوا بِهِم وَهَجَمُوا عَلَيهِم وَجَرَى بَينَهُم قِتَالٌ عَظِيمٌ فَقُتِلَ مِنَ العَدُوِّ جَمَاعَةٌ وَأَحَسَّ بِهِم عَسكَرُ العَدُوِّ. فَثَارَ إِلَيهِم مِنهُم جَمَاعَةٌ وَاتَّصَلَ الحَربُ وَقُتِلَ أَيضًا

مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ نَفَرَانِ وَأُسِرَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ ثَلَاثَةٌ وَمَثَلُوا بِخِدْمَةِ ٱلسُّلْطَانِ فَسَأَلَهُمْ عَنِ ٱلْأَحْوَالِ. فَأَخْبَرُوا أَنَّ ٱلْمَلِكَ أَنْكِتَارَ كَانَ قَدْ حَضَرَ عِنْدَهُ بِعَكَّا ٱثْنَانِ بَدَوِيَّانِ وَأَنَّهُمَا أَخْبَرَا لَهُ بِقِلَّةِ ٱلْعَسْكَرِ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَذَٰلِكَ ٱلَّذِي أَطْمَعَهُ حَتَّى خَرَجَ. وَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ بِٱلْأَمْسِ يَعْنِي ٱلِاثْنَيْنِ رَأَى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ قِتَالًا عَظِيمًا وَٱسْتَكْثَرَ ٱلْأَطْلَابَ وَأَنَّهُ جُرِحَ زُهَاءَ أَلْفِ نَفَرٍ وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ وَأَنَّ ذَاكَ ٱلَّذِي أَوْجَبَ إِقَامَتَهُ ٱلْيَوْمَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ عَسْكَرُهُ. وَأَنَّهُ لَمَّا رَأَى مَا أَصَابَهُ مِنَ ٱلْقِتَالِ ٱلْعَظِيمِ وَكَثْرَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ أَحْضَرَ ٱلْبَدَوِيَّيْنِ عِنْدَهُ وَأَوْقَفَهُمَا وَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمَا. وَأَقَمْنَا فِي ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ فِي تِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ لِإِقَامَةِ ٱلْعَدُوِّ وَهُوَ ٱلثُّلَاثَاءُ ٱلْعَاشِرُ مِنْ شَعْبَانَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلثَّامِنُ: وَلَمَّا كَانَ ظَهِيرَةُ ٱلْيَوْمِ ٱلْمَذْكُورِ رَأَى ٱلسُّلْطَانُ عَلَى ٱلرَّحِيلِ وَٱلتَّقَدُّمِ إِلَى قُدَّامِ ٱلْعَدُوِّ فَدُقَّ ٱلْكُوسُ وَرَحَلَ ٱلنَّاسُ وَدَخَلَ فِي شَعْرَاءِ أَرْسُوفَ حَتَّى تَوَسَّطَهَا إِلَى تَلٍّ عِنْدَ قَرْيَةٍ تُسَمَّى دَيْرَ ٱلرَّاهِبِ فَنَزَلَ هُنَاكَ وَدَهَمَ ٱلنَّاسَ ٱللَّيْلُ وَهُمْ يَقْطَعُونَ فِي ٱلشَّعْرَاءِ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا يَنْتَظِرُ بَقِيَّةَ ٱلْعَسَاكِرِ إِلَى صَبَاحِ ٱلْأَرْبِعَاءِ ٱلْحَادِي عَشَرَ. وَتَلَاحَقَتِ ٱلْعَسَاكِرُ وَرَكِبَ يَرْتَادُ مَوْضِعًا يَصْلُحُ لِلْقِتَالِ وَلِقَاءِ ٱلْعَدُوِّ. وَأَقَامَ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ أَجْمَعَ هُنَاكَ. وَمِنْ أَخْبَارِ ٱلْعَدُوِّ فِي تِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ أَنَّهُ أَقَامَ عَلَى نَهْرِ ٱلْقَصَبِ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ أَيْضًا. وَأَنَّهُ لَحِقَهُ نَجْدَةٌ مِنْ عَكَّا فِي ثَمَانِ بَطَسٍ كِبَارٍ وَيَزَكُ ٱلْإِسْلَامِ حَوْلَهُ يُوَاصِلُونَ بِٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُتَجَدِّدَةِ عَنْهُمْ

ذِكْرُ مُرَاسَلَةٍ جَرَتْ فِي ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ

وَذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ طَلَبَ مِنَ ٱلْيَزَكِ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ. وَكَانَ مُقَدَّمُ

ٱلْبَرَكِ عَلَمَ ٱلدِّينِ سُلَيْمَانَ فَإِنَّهَا كَانَتْ نَوْبَتَهُ . فَلَمَّا مَضَى إِلَيْهِمْ مَنْ سَمِعَ كَلَامَهُمْ كَانَ كَلَامُهُمْ طَلَبَ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ حَتَّى يَتَحَدَّثُوا مَعَهُ . فَٱسْتَأْذَنَ وَمَضَى وَبَاتَ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ فِي ٱلْبَرَكِ وَيَتَحَدَّثُونَ مَعَهُ. وَكَانَ حَاصِلُ حَدِيثِهِمْ أَنَّا قَدْ طَالَ بَيْنَنَا ٱلْقِتَالُ وَأَنَّهُ قَدْ قُتِلَ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ ٱلرِّجَالُ ٱلْأَبْطَالُ وَأَنَّا نَحْنُ جِئْنَا فِي نُصْرَةِ إِفْرِنْجِ ٱلسَّاحِلِ. فَٱصْطَلِحُوا أَنْتُمْ وَهُمْ وَكُلٌّ مِنَّا يَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ. وَكَتَبَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى أَخِيهِ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِ ٱلْخَمِيسِ ٱلثَّانِي وَٱلْعِشْرِينَ رُقْعَةً يَقُولُ لَهُ فِيهَا: إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُطَاوِلَ ٱلْإِفْرِنْجَ فَلَعَلَّهُمْ يُقِيمُونَ ٱلْيَوْمَ حَتَّى يَلْحَقَنَا ٱلتُّرْكُمَانُ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَرُبُوا مِنَّا

ذِكْرُ ٱجْتِمَاعِ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ وَٱلْأَنْكِتَارِ

وَلَمَّا عَرَفَ ٱلْأَنْكِتَارُ وُصُولَ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ إِلَى ٱلْبَرَكِ طَلَبَ ٱلِٱجْتِمَاعَ بِهِ فَأَجَابَهُ إِلَى ذٰلِكَ. فَٱجْتَمَعَا بِنَخْوَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِمَا وَكَانَ يُتَرْجِمُ بَيْنَهُمَا ٱبْنُ ٱلْهُنْفِرِي وَهُوَ مِنْ إِفْرِنْجِ ٱلسَّاحِلِ مِنْ كِبَارِهِمْ وَرَأَيْتُهُ يَوْمَ ٱلصُّلْحِ وَهُوَ شَابٌّ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّهُ مَحْلُوقُ ٱللِّحْيَةِ عَلَى مَا هُوَ شِعَارُهُمْ. وَكَانَ ٱلْحَدِيثُ بَيْنَهُمَا أَنَّ ٱلْأَنْكِتَارَ شَرَعَ فِي ذِكْرِ ٱلصُّلْحِ وَأَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْعَادِلَ قَالَ لَهُ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَ ٱلصُّلْحَ وَلَا تَذْكُرُونَ مَطْلُوبَكُمْ فِيهِ حَتَّى أَتَوَسَّطَ أَنَا ٱلْحَالَ مَعَ ٱلسُّلْطَانِ. فَقَالَ ٱلْأَنْكِتَارُ: ٱلْقَاعِدَةُ أَنْ تَعُودَ ٱلْبِلَادُ كُلُّهَا إِلَيْنَا وَتَنْصَرِفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ فَأَخْشَنَ لَهُ ٱلْجَوَابَ وَجَرَتْ مُنَافَرَةٌ ٱقْتَضَتْ أَنَّهُمْ رَحَلُوا بَعْدَ ٱنْفِصَالِهِمْ. وَلَمَّا أَحَسَّ ٱلسُّلْطَانُ بِرَحِيلِهِمْ أَمَرَ ٱلثِّقَلَ بِٱلرَّحِيلِ وَوَقَفَ هُوَ وَعَبَّى ٱلنَّاسَ تَعْبِيَةَ ٱلْقِتَالِ. وَسَارَ ٱلثِّقَلُ ٱلصَّغِيرُ أَيْضًا حَتَّى قَارَبَ ٱلثِّقَلَ ٱلْكَبِيرَ. ثُمَّ وَدَّدَ أَمَرَاهُ ٱلسُّلْطَانِ بِعَوْدِهِمْ إِلَيْهِ. فَعَادُوا وَوَصَلُوا وَقَدْ دَخَلَ

اللَّيْلُ وَتَخَبَّطَ النَّاسُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ تَخَبُّطًا عَظِيمًا وَاسْتَدْعَى أَخَاهُ لِيُعَرِّفَهُ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلِكِ. وَخَلَا بِهِ لِذَلِكَ وَذَلِكَ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ ثَالِثَ عَشَرَ. وَأَمَّا الْعَدُوُّ فَإِنَّهُ سَارَ وَنَزَلَ عَلَى مَوْضِعٍ يُسَمَّى الْبِرْكَةَ أَيْضًا يُشْرِفُ عَلَى الْبَحْرِ وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ مُتَطَلِّعًا إِلَى أَخْبَارِ الْعَدُوِّ. فَأُحْضِرَ عِنْدَهُ اثْنَانِ مِنَ الْإِفْرِنْجِ قَدْ تَخَطَّفَهُمَا الْيَزَكُ. فَأَمَرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمَا وَوَصَلَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ الْعَدُوَّ لَمْ يَرْحَلِ الْيَوْمَ مِنْ مَنْزِلَتِهِ تِلْكَ. فَنَزَلَ السُّلْطَانُ وَاجْتَمَعَ بِأَخِيهِ يَتَحَدَّثَانِ بِهَذَا الْأَمْرِ وَمَا يَصْنَعُ مَعَ الْعَدُوِّ. وَبَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ

ذِكْرُ وَقْعَةِ أَرْسُوفَ وَهِيَ أَنْكَتُ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ السَّبْتِ رَابِعَ عَشَرَ بَلَغَ السُّلْطَانَ أَنَّ الْعَدُوَّ حَرَّكَ الرَّحِيلَ نَحْوَ أَرْسُوفَ. فَرَكِبَ وَرَتَّبَ الْأَطْلَابَ لِلْقِتَالِ وَعَزَمَ عَلَى مُضَايَقَتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَمُصَادَمَتِهِمْ. وَأَخْرَجَ الْجَالِيشَ مِنْ كُلِّ طُلْبٍ. وَسَارَ الْعَدُوُّ حَتَّى قَارَبَ شَعْرَاءَ أَرْسُوفَ وَبَسَاتِينَهَا وَأَطْلَقَ عَلَيْهِمِ الْجَالِيشُ النُّشَّابَ وَلَزَّتْهُمُ الْأَطْلَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَالسُّلْطَانُ يُقَرِّبُ بَعْضَهَا وَيُوَقِّفُ بَعْضَهَا وَيُضَايِقُ الْعَدُوَّ مُضَايَقَةً عَظِيمَةً وَالْتَحَمَ الْقِتَالُ وَاضْطَرَمَتْ نَارُهُ مِنَ الْجَالِيشِ وَقُتِلَ مِنْهُمْ وَجُرِحَ. فَاشْتَدُّوا فِي السَّيْرِ عَسَاهُمْ يَبْلُغُونَ الْمَنْزِلَةَ فَيَنْزِلُونَ وَاشْتَدَّ بِهِمِ الْأَمْرُ وَضَاقَ بِهِمِ الْخِنَاقُ وَالسُّلْطَانُ يَطُوفُ مِنَ الْمَيْمَنَةِ إِلَى الْمَيْسَرَةِ يَحُثُّ النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ وَلَقِيتُهُ مِرَارًا لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا صَبِيَّانِ بِجَنِيبَيْنِ لَا غَيْرُ وَلَقِيتُ أَخَاهُ وَهُوَ عَلَى مِثْلِ الْحَالِ وَالنُّشَّابُ يُجَاوِزُهُمَا وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ يَشْتَدُّ بِالطَّمَعِ لِلْعَدُوِّ وَطَمِعَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ طَمَعًا عَظِيمًا

حَتَّى وَصَلَ أَوَائِلُ رَاجِلِهِمْ إِلَى بَسَاتِينِ أَرْسُوفَ . ثُمَّ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْخَيَّالَةُ وَتَوَاصَوْا عَلَى ٱلْحَمْلَةِ خَشْيَةً عَلَى ٱلْقَوْمِ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يُنْجِيهِمْ إِلَّا ٱلْحَمْلَـةُ . وَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ وَقَدِ ٱجْتَمَعُوا فِي وَسْطِ ٱلرَّجَّالَةِ وَأَخَذُوا رِمَاحَهُمْ وَصَاحُوا صَيْحَةَ ٱلرَّجُلِ ٱلْوَاحِدِ وَفَرَجَ لَهُمْ رَجَّالَتُهُمْ وَحَمَلُوا حَمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ ٱلْجَوَانِبِ كُلِّهَا فَحَمَلَتْ طَائِفَةٌ عَلَى ٱلْمَيْمَنَةِ وَطَائِفَةٌ عَلَى ٱلْمَيْسَرَةِ وَطَائِفَةٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ. فَٱنْدَفَعَ ٱلنَّاسُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . وَٱتَّفَقَ أَنِّي كُنْتُ فِي ٱلْقَلْبِ فَفَرَّ ٱلْقَلْبُ فِرَارًا عَظِيمًا فَنَوَيْتُ ٱلتَّحَيُّزَ إِلَى ٱلْمَيْسَرَةِ وَكَانَتْ أَقْرَبَ إِلَيَّ وَوَصَلْتُهَا وَقَدِ ٱنْكَسَرَتْ كَسْرَةً عَظِيمَةً وَفَرَّتْ أَشَدَّ فِرَارًا مِنَ ٱلْكُلِّ . فَنَوَيْتُ ٱلتَّحَيُّزَ إِلَى طَلَبِ ٱلسُّلْطَانِ وَكَانَ رِدْءَ ٱلْأَطْلَابِ كُلِّهَا كَمَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ وَلَمْ يَبْقَ لِلسُّلْطَانِ فِيهِ إِلَّا سَبْعَةَ عَشَرَ مُقَاتِلًا لَا غَيْرُ وَأَخَذَ ٱلْبَاقِينَ إِلَى ٱلْقِتَالِ . لَكِنَّ ٱلْأَعْلَامَ كُلَّهَا بَاقِيَةٌ ثَابِتَةٌ وَٱلْكُوسُ يَدُقُّ لَا يَفْتُرُ . وَأَمَّا ٱلسُّلْطَانُ فَإِنَّهُ لَمَّا رَأَى مَا نَزَلَ بِٱلْمُسْلِمِينَ مِنْ هٰذِهِ ٱلنَّازِلَةِ . سَارَ حَتَّى أَتَى طَلَبَهُ فَوَجَدَ فِيهِ هٰذَا ٱلنَّفَرَ ٱلْقَلِيلَ . فَوَقَفَ فِيهِ وَٱلنَّاسُ يَفِرُّونَ مِنَ ٱلْجَوَانِبِ وَهُوَ يَأْمُرُ أَصْحَابَ ٱلْكُوسِ بِٱلدَّقِّ بِحَيْثُ لَا يَفْتُرُونَ وَكُلَّمَا رَأَى فَارًّا يَأْمُرُ مَنْ يُحْضِرُهُ عِنْدَهُ وَفِي ٱلْجُمْلَةِ مَا أَقْصَرَ ٱلنَّاسُ فِي فِرَارِهِمْ . فَإِنَّ ٱلْعَدُوَّ حَمَلَ حَمْلَةً فَفَرُّوا . ثُمَّ وَقَفَ خَوْفًا مِنَ ٱلْكَمِينِ فَوَقَفُوا وَقَاتَلُوا . ثُمَّ حَمَلَ حَمْلَةً ثَانِيَةً . فَفَرُّوا وَهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي فِرَارِهِمْ ثُمَّ وَقَفَ فَوَقَفُوا . ثُمَّ حَمَلَ حَمْلَةً ثَالِثَةً حَتَّى بَلَغَ إِلَى رُؤُوسِ رَوَابٍ هُنَاكَ وَأَعَالِي تُلُولٍ . فَفَرُّوا إِلَى أَنْ وَقَفَ ٱلْعَدُوُّ وَوَقَفُوا . وَكَانَ كُلُّ مَنْ رَأَى طَلَبَ ٱلسُّلْطَانِ وَاقِفًا وَٱلْكُوسُ يَدُقُّ يَسْتَحِي أَنْ يُجَاوِزَهُ وَيَخَافُ غَائِلَةَ ذٰلِكَ فَيَعُودُ إِلَى ٱلطَّلَبِ . فَٱجْتَمَعَ فِي ٱلْقَلْبِ خَلْقٌ عَظِيمٌ

وَوَقَفَ ٱلْعَدُوُّ فُبَالَتَهُمْ عَلَى رُؤُسِ ٱلتُّلُولِ وَٱلرَّوَابِي وَٱلسُّلْطَانُ وَاقِفٌ فِي طِلْبِهِ وَٱلنَّاسُ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَتِ ٱلْعَسَاكِرُ بِأَسْرِهَا وَخَافَ ٱلْعَدُوُّ أَنْ يَكُونَ فِي ٱلشَّعْرَاءِ ٱلْكَمِينُ. فَتَرَاجَعُوا يَطْلُبُونَ ٱلْمَنْزِلَةَ وَعَادَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى تَلٍّ فِي أَوَائِلِ ٱلشَّعْرَاءِ وَنَزَلَ عَلَيْهِ فِي خَيْمَتِهِ. وَلَقَدْ كُنْتُ فِي خِدْمَتِهِ أُسَلِّيهِ وَهُوَ لَا يَقْبَلُ ٱلسُّلُوَّ وَظُلِّلَ عَلَيْهِ بِمِنْدِيلٍ وَسَأَلْنَاهُ أَنْ يَطْعَمَ شَيْئًا فَأُحْضِرَ لَهُ شَيْءٌ لَطِيفٌ فَتَنَاوَلَ مِنْهُ شَيْئًا يَسِيرًا وَبَعَثَ ٱلنَّاسُ خَيْلَهُمْ لِلسَّقْيِ فَإِنَّ ٱلْمَكَانَ كَانَ بَعِيدًا وَجَلَسَ يَنْتَظِرُ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْعَوْدِ مِنَ ٱلسَّقْيِ وَٱلْجَرْحَى يُحْضَرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ بِمُدَاوَاتِهِمْ وَحَمْلِهِمْ وَقُتِلَ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ رَجَّالَةٌ كَثِيرَةٌ وَجُرِحَ مِنَ ٱلطَّائِفَتَيْنِ. وَكَانَ مِمَّنْ ثَبَتَ ٱلْمَلِكُ ٱلْعَادِلُ وَٱلطَّوَاشِي قَايْمَازُ ٱلنَّجْمِيُّ وَٱلْمَلِكُ ٱلْأَفْضَلُ وَلَدُهُ وَصُدِمَ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَٱنْفَقَعَ دُمَّلٌ كَانَ فِي وَجْهِهِ وَسَالَ مِنْهُ دَمٌ كَثِيرٌ عَلَى وَجْهِهِ وَهُوَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ. وَثَبَتَ أَيْضًا طِلْبُ ٱلْمَوْصِلِيِّ وَمُقَدَّمُهُ عَلَاءُ ٱلدِّينِ وَشَكَرَهُ ٱلسُّلْطَانُ عَلَى ذٰلِكَ وَتَفَقَّدَ ٱلنَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَوَجَدُوا قَدِ ٱسْتُشْهِدَ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْعَسْكَرِ عُرِفَ مِنْهُمْ أَمِيرٌ كَبِيرٌ مُوسِكٌ. وَكَانَ شُجَاعًا مَعْرُوفًا وَقَايْمَازُ ٱلْعَادِلِيُّ وَكَانَ مَذْكُورًا وَلَبْغُوشُ وَكَانَ شُجَاعًا. وَجُرِحَ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَخُيُولٌ كَثِيرَةٌ. وَقُتِلَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ جَمَاعَةٌ وَأُسِرَ وَاحِدٌ فَأُحْضِرَ فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ وَأُخِذَتْ مِنْهُمْ خُيُولٌ أَرْبَعَةٌ. وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ رَحِمَهُ ٱللهُ إِلَى ٱلثِّقْلِ أَنْ يَسِيرَ إِلَى ٱلْعَوْجَاءِ فَٱسْتَأْذَنْتُهُ وَتَقَدَّمْتُهُ إِلَى ٱلْمَنْزِلِ وَجَلَسَ هُوَ يَنْتَظِرُ ٱجْتِمَاعَ ٱلْعَسَاكِرِ وَمَا يَرِدُ مِنْ أَخْبَارِ ٱلْعَدُوِّ. وَكَانَ ٱلْعَدُوُّ قَدْ نَزَلَ عَلَى أَرْسُوفَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلتَّاسِعُ: وَسِرْتُ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ حَتَّى أَتَيْتُ ٱلثَّقَلَ وَقَدْ نَزَلَ قَاطِعَ ٱلنَّهْرِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلْعَوْجَاءِ فِي مَنْزِلَةٍ خَضْرَاءَ طَيِّبَةٍ عَلَى جَانِبِ ٱلنَّهْرِ وَوَصَلَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ٱلْمَنْزِلَةِ آخِرَ ٱلنَّهَارِ. وَٱزْدَحَمَ ٱلنَّاسُ عَلَى ٱلْقَنْطَرَةِ. فَنَزَلَ عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى ٱلنَّهْرِ وَلَمْ يَعُدْ إِلَى ٱلْخَيْمَةِ وَأَمَرَ ٱلْجَاوِيشَ أَنْ يُنَادِيَ فِي ٱلْعَسْكَرِ بِٱلْعُبُورِ إِلَيْهِ. وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْوَقْعَةِ أَمْرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا ٱللهُ وَٱلنَّاسُ بَيْنَ جَرِيحِ ٱلْجَسَدِ وَجَرِيحِ ٱلْقَلْبِ. وَأَقَامَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى سَحَرِ ٱلْخَامِسَ عَشَرَ وَدُقَّ ٱلْكُوسُ وَرَكِبَ ٱلنَّاسُ وَسَارَ رَاجِعًا إِلَى جِهَةِ ٱلْعَدُوِّ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَرِيبِ أَرْسُوفَ وَصَفَّ ٱلْأَطْلَابَ لِلْقِتَالِ رَجَاءَ خُرُوجِ ٱلْعَدُوِّ وَمَسِيرِهِ حَتَّى يُصَادِفَهُ. فَلَمْ يَرْحَلِ ٱلْعَدُوُّ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ لِمَا نَالَهُمْ مِنَ ٱلتَّعَبِ وَأَقَامَ قُبَالَتَهُمْ إِلَى آخِرِ ٱلنَّهَارِ وَعَادَ إِلَى مَنْزِلَتِهِ ٱلَّتِي بَاتَ بِهَا. وَلَمَّا كَانَ صَبِيحَةُ ٱلسَّادِسَ عَشَرَ دُقَّ ٱلْكُوسُ وَرَكِبَ وَرَكِبَ ٱلنَّاسُ وَسَارَ نَحْوَهُمْ وَوَصَلَ خَبَرُ ٱلْعَدُوِّ أَنَّهُ قَدْ رَحَلَ طَالِبًا جِهَةَ يَافَا فَقَارَبَهُمْ مُقَارَبَةً عَظِيمَةً وَرَتَّبَ ٱلْأَطْلَابَ تَرْتِيبَ ٱلْقِتَالِ وَأَخْرَجَ ٱلْجَالِيشَ وَأَحْدَقَ ٱلْعَسْكَرُ ٱلْإِسْلَامِيُّ بِٱلْقَوْمِ وَأَلْقَوْا عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنُّشَّابِ مَا كَادَ يَسُدُّ ٱلْأُفُقَ وَقَاتَلَهُمْ قُلُوبُهُمْ قِتَالَ ٱلْحَنَقِ وَقَصَدَ رَحِمَهُ ٱللهُ تَحْرِيكَ عَزَائِمِهِمْ عَلَى ٱلْحَمْلَةِ حَتَّى إِذَا حَمَلُوا أَلْقَى ٱلنَّاسَ عَلَيْهِمْ وَيُعْطِي ٱللهُ ٱلنَّصْرَ لِمَنْ يَشَاءُ. فَلَمْ يَحْمِلُوا وَحَفِظُوا نُفُوسَهُمْ وَسَارُوا مُصْطَفِّينَ عَلَى عَادَتِهِمْ حَتَّى أَتَوْا نَهْرَ ٱلْعَوْجَاءِ وَهُوَ ٱلنَّهْرُ ٱلَّذِي مَنْزِلَتُنَا أَعْلَاهُ. فَنَزَلَ فِي أَسْفَلِهِ وَعَبَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى غَرْبِيِّ ٱلنَّهْرِ وَأَقَامَ ٱلْبَاقُونَ مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ. فَلَمَّا عَلِمَ ٱلنَّاسُ بِنُزُولِهِمْ تَرَاجَعَ ٱلنَّاسُ عَنْهُمْ وَعَادَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ٱلثَّقَلِ وَنَزَلَ فِي خَيْمَتِهِ وَأُطْعِمَ ٱلطَّعَامَ وَأُتِيَ

بِأَرْبَعَةٍ مِنَ ٱلإِفْرِنْجِ قَدْ أَخَذَتْهُمُ ٱلْعَرَبُ وَمَعَهُمُ ٱمْرَأَةٌ فَرَفَعُوا إِلَى ٱلزَّرْدَخَانَةِ وَأَقَامَ بَقِيَّةَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ يَكْتُبُ ٱلْكُتُبَ إِلَى ٱلْأَطْرَافِ بِٱسْتِحْضَارِ بَقِيَّةِ ٱلْعَسَاكِرِ وَحَضَرَ مَنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قُتِلَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ يَوْمَ أَرْسُوفَ خَيْلٌ كَثِيرَةٌ وَأَنَّهُ تَتَبَّعَهَا ٱلْعَرَبُ وَعَدُّوهَا وَزَادَتْ عَلَى مِئَةٍ وَأَمَرَ ٱلسُّلْطَانُ أَنْ تَرْحَلَ ٱلْجِمَالُ وَتَتَقَدَّمَ إِلَى ٱلرَّمْلَةِ وَبَاتَ هُوَ بِتِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلْعَاشِرُ: وَلَمَّا كَانَ سَابِعَ عَشَرَ صَلَّى ٱلصُّبْحَ وَرَحَلَ وَرَحَلَ مَعَهُ ٱلثِّقَلُ ٱلصَّغِيرُ وَسَارَ يُرِيدُ ٱلرَّمْلَةَ وَأُتِيَ بِٱثْنَيْنِ مِنَ ٱلإِفْرِنْجِ فَأَمَرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمَا. وَوَصَلَ مِنَ ٱلْيَزَكِ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ رَحَلَ مِنْ يَافَا. وَسَارَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى أَنْ أَتَى ٱلرَّمْلَةَ وَأُتِيَ بِٱثْنَيْنِ مِنَ ٱلإِفْرِنْجِ أَيْضًا. فَسَأَلَهُمَا عَنْ أَحْوَالِهِمْ. فَذَكَرَا أَنَّهُمْ رُبَّمَا أَقَامُوا بِيَافَا أَيَّامًا وَفِي أَنْفُسِهِمْ عِمَارَتُهَا وَإِشْحَانُهَا بِٱلرِّجَالِ وَٱلْعُدَدِ. وَأَحْضَرَ ٱلسُّلْطَانُ أَرْبَابَ مَشُورَتِهِ وَشَاوَرَهُمْ فِي أَمْرِ عَسْقَلَانَ وَهَلْ إِنَّهَا تَخْرَبُ أَوْ تَبْقَى. وَٱتَّفَقَ ٱلرَّأْيُ عَلَى أَنْ يَتَخَلَّفَ ٱلْمَلِكُ ٱلْعَادِلُ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْعَسْكَرِ مُقَارِبَ ٱلْعَدُوِّ لِيَعْرِفَ أَحْوَالَهُمْ وَٱتِّصَالَهَا وَأَنْ يَسِيرَ هُوَ وَيُخْرِبَ عَسْقَلَانَ خَشْيَةَ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا ٱلإِفْرِنْجُ وَهِيَ عَامِرَةٌ فَيَقْتُلُوا مَنْ بِهَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ وَيَأْخُذُوا بِهَا ٱلْقُدْسَ ٱلشَّرِيفَ وَيَقْطَعُونَ بِهَا طَرِيقَ مِصْرَ وَخَشِيَ ٱلسُّلْطَانُ مِنْ ذٰلِكَ وَعَلِمَ عَجْزَ ٱلْمُسْلِمِينَ عَنْ حِفْظِهَا لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ مِنْ عَكَّا وَمَا جَرَى عَلَى مَنْ كَانَ مُقِيمًا بِهَا. فَتَعَيَّنَ لِذٰلِكَ خَرَابُ عَسْقَلَانَ. فَسَارَ ٱلثِّقَلُ مِنْ أَوَّلِ ٱللَّيْلِ. وَتَقَدَّمَ إِلَى وَلَدِهِ ٱلْمَلِكِ ٱلْأَفْضَلِ أَنْ سَارَ عَقِيبَ ٱلثِّقَلِ نِصْفَ ٱللَّيْلِ وَسَارَ هُوَ وَأَنَا فِي خِدْمَتِهِ سَحَرَ ٱلْأَرْبِعَاءِ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلْحَادِي عَشَرَ وَهُوَ عَلَى عَسْقَلَانَ: وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ ٱلْأَرْبَعَاءِ ثَامِنَ عَشَرَ ٱلشَّهْرِ وَصَلَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى يُبْنَا فَنَزَلَ بِهَا وَضُحًى وَأَخَذَ ٱلنَّاسُ رَاحَةً. ثُمَّ رَحَلَ وَسَارَ حَتَّى أَتَى أَرْضَ عَسْقَلَانَ وَقَدْ ضُرِبَتْ خَيْمَتُهُ بَعِيدًا مِنْهَا. فَبَاتَ هُنَاكَ مَهْمُومًا بِسَبَبِ ٱلْخَرَابِ وَمَا نَامَ إِلَّا قَلِيلًا. وَلَقَدْ دَعَانِي فِي خِدْمَتِهِ سَحَرًا وَكُنْتُ فَارَقْتُ خِدْمَتَهُ بَعْدَ مُضِيِّ نِصْفِ ٱللَّيْلِ. فَحَضَرْتُ وَبَدَأَ بِٱلْحَدِيثِ فِي مَعْنَى خَرَابِهَا وَأَحْضَرَ وَلَدَهُ ٱلْمَلِكَ ٱلْأَفْضَلَ وَشَاوَرَهُ فِي ذٰلِكَ وَطَالَ ٱلْحَدِيثُ فِي ٱلْمَعْنَى وَلَقَدْ قَالَ لِي: وَٱللّٰهِ لَأَنْ أَفْقِدَ أَوْلَادِي بِأَسْرِهِمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَهْدِمَ مِنْهَا حَجَرًا وَاحِدًا وَلٰكِنْ إِذَا قَضَى ٱللّٰهُ ذٰلِكَ وَفِيهِ دَعْوَتُهُ لِحِفْظِ مَصْلَحَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ. ثُمَّ ٱسْتَخَارَ ٱللّٰهَ تَعَالَى فَأَوْقَعَ ٱللّٰهُ فِي نَفْسِهِ أَنَّ ٱلْمَصْلَحَةَ فِي خَرَابِهَا لِعَجْزِ ٱلْمُسْلِمِينَ عَنْ حِفْظِهَا. فَٱسْتَحْضَرَ ٱلْوَالِيَ قَيْصَرَ بِهَا وَهُوَ مِنْ كِبَارِ مَمَالِيكِهِ وَذَوِي ٱلْآرَاءِ مِنْهُمْ فَأَمَرَ بِجَمْعِ ٱلْفَعَلَةِ فِيهَا. وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَقَدِ ٱجْتَازَ بِٱلسُّوقِ وَٱلْوِطَاقِ بِنَفْسِهِ مُسْتَنْفِرٌ ٱلنَّاسِ لِلْخَرَابِ. وَقَسَمَ ٱلسُّورَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَجَعَلَ لِكُلِّ أَمِيرٍ وَطَائِفَةٍ مِنَ ٱلْعَسْكَرِ بُرْجًا مَعْلُومًا يُخَرِّبُونَهُ. وَدَخَلَ ٱلنَّاسُ ٱلْبَلَدَ وَوَقَعَ فِيهِ ٱلضَّجِيجُ وَٱلْبُكَاءُ وَكَانَ بَلَدًا خَفِيفًا عَلَى ٱلْقَلْبِ مُحْكَمَ ٱلْأَسْوَارِ عَظِيمَ ٱلْبِنَاءِ مَرْغُوبًا فِي سُكْنَتِهِ فَلَحِقَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهِ حُزْنٌ عَظِيمٌ وَعَظُمَ عَوِيلُ أَهْلِهِ عَلَى مُفَارَقَةِ أَوْطَانِهِمْ وَشَرَعُوا فِي بَيْعِ مَا لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ وَبِيعَ مَا يُسَوَّى عَشَرَةَ دَرَاهِمَ بِدِرْهَمٍ وَاحِدٍ وَٱخْتَبَطَ ٱلْبَلَدُ وَخَرَجَ أَهْلُهُ إِلَى ٱلْعَسْكَرِ بِذَرَارِيهِمْ وَنِسَائِهِمْ خَشْيَةَ أَنْ يَهْجُمَ ٱلْإِفْرِنْجُ وَبَذَلُوا فِي ٱلْكِرَاءِ أَضْعَافَ مَا يُسَوَّى. فَقَوْمٌ إِلَى مِصْرَ وَقَوْمٌ إِلَى ٱلشَّامِ وَقَوْمٌ يَمْشُونَ. وَجَرَتْ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ وَفِتْنَةٌ هَائِلَةٌ

لَعَلَّهَا لَمْ تَخْتَصَّ بِالَّذِينَ ظَلَمُوا . وَكَانَ هُوَ بِنَفْسِهِ وَوَلَدُهُ الْمَلِكُ الأَفْضَلُ يَسْتَعْمِلَانِ النَّاسَ فِي الْخَرَابِ وَالْحَثُّ عَلَيْهِ خَشْيَةَ أَنْ يَسْمَعَ الْعَدُوُّ فَيَحْضُرَ وَلَا يُمْكِنَ مِنْ خَرَابِهَا . وَبَاتَ النَّاسُ فِي الْخِيَمِ عَلَى أَتَمِّ حَالٍ مِنَ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ . وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَصَلَ مِنْ جَانِبِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ الإِفْرَنْجَ تَحَدَّثُوا مَعَهُ فِي الصُّلْحِ وَأَنَّهُ خَرَجَ إِلَيْهِ ابْنُ الْهَنْفَرِي وَتَحَدَّثَ مَعَهُ وَأَنَّهُ طَلَبَ جَمِيعَ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ . فَرَأَى السُّلْطَانُ أَنَّ ذٰلِكَ مَصْلَحَةٌ لِمَا رَأَى فِي أَنْفُسِ النَّاسِ مِنَ الضَّجَرِ وَالسَّآمَةِ مِنَ الْقِتَالِ وَالْمُصَابَرَةِ وَكَثْرَةِ مَا عَلَاهُمْ مِنَ الدُّيُونِ . وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْمَحُ فِي الْحَدِيثِ فِي ذٰلِكَ . وَفَوَّضَ أَمْرَ ذٰلِكَ إِلَى رَأْيِهِ وَأَصْبَحَ الْعِشْرِينَ عَلَى الإِصْرَارِ عَلَى الْخَرَابِ وَاسْتِعْمَالِ النَّاسِ فِيهِ وَحَثِّهِمْ عَلَيْهِ وَأَبَاحَهُمُ الْهُرْيَ الَّذِي كَانَ ذَخِيرَةً فِي الْبَلَدِ لِلْعَجْزِ عَنْ نَقْلِهِ وَضَعْفِ الْوَقْتِ وَالْخَوْفِ مِنْ هُجُومِ الإِفْرَنْجِ . وَأَمَرَ بِحَرِيقِ الْبَلَدِ فَأُضْرِمَتِ النَّارُ فِي بُيُوتِهِ وَأَدُورِهِ وَرَفَضَ أَهْلُهُ بَوَاقِيَ أَقْمِشَتِهِ لِلْعَجْزِ عَنْ نَقْلِهَا وَالأَخْبَارُ تَتَوَاتَرُ مِنْ جَانِبِ الْعَدُوِّ بِعِمَارَةِ يَافَا . وَكَتَبَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ يُخْبِرُ أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَعْلَمُوا بِخَرَابِ الْبَلَدِ فَأَجَابَهُ أَنْ سَوِّفِ الْقَوْمَ وَطَوِّلِ الْحَدِيثَ لَعَلَّنَا نَتَمَكَّنُ مِنَ الْخَرَابِ وَأَمَرَ بِحَشْوِ أَبْرَاجِ الْبَلَدِ بِالأَحْطَابِ وَأَنْ تُحْرَقَ وَأَصْبَحَ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ رَكِبَ يَحُثُّ النَّاسَ . وَدَامَ يَسْتَعْمِلُهُمْ عَلَى التَّخْرِيبِ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ حَتَّى الْتَاثَ مِزَاجُهُ الْتِيَاثًا قَرِيبًا امْتَنَعَ بِسَبَبِهِ مِنَ الرُّكُوبِ وَالْغِذَاءِ يَوْمَيْنِ . وَأَخْبَارُ الْعَدُوِّ تَتَوَاصَلُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَتَجْرِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْيَزَكِ وَالْعَسْكَرِ وَقَعَاتٌ وَقَلَبَاتٌ وَهُوَ يُوَاظِبُ عَلَى الْحَثِّ عَلَى الْخَرَابِ وَنَقَلَ الثِّقْلَ إِلَى قَرِيبِ الْبَلَدِ لِيُعَاوِنَ الْغِلْمَانُ وَالْحَمَّالُونَ

وَغَيْرِهِمْ فِي ذَٰلِكَ . فَخَرِبَ مِنَ ٱلسُّورِ مُعْظَمُهُ وَكَانَ عَظِيمَ ٱلْبِنَاءِ بِحَيْثُ أَنَّهُ كَانَ عَرْضُهُ فِي مَوَاضِعَ تِسْعَةَ أَذْرُعٍ وَفِي مَوَاضِعَ عَشَرَةَ أَذْرُعٍ . ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْحَجَّارِينَ لِلسُّلْطَانِ وَأَنَا حَاضِرٌ أَنَّ عَرْضَ ٱلسُّورِ ٱلَّذِي يَنْقُبُونَهُ فِيهِ مِقْدَارُ رُمْحٍ . وَلَمْ يَزَلِ ٱلْخَرَابُ وَٱلْحَرِيقُ يَعْمَلُ فِي ٱلْبَلَدِ وَأَسْوَارِهِ إِلَى سَلْخِ شَعْبَانَ . وَعِنْدَ ذَٰلِكَ وَصَلَ مِنْ جَرْدِيكَ كِتَابٌ يَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ ٱلْقَوْمَ يَنْفَسِخُونَ وَصَارُوا يَخْرُجُونَ مِنْ يَافَا يُغَارُونَ عَلَى ٱلْبِلَادِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنْهَا . وَتَحَرَّكَ ٱلسُّلْطَانُ لَعَلَّهُ يَبْلُغُ مِنْهُمْ غَرَضًا فِي غِرَّتِهِمْ . فَعَزَمَ عَلَى ٱلرَّحِيلِ وَعَلَى أَنْ يُخَلِّفَ فِي عَسْقَلَانَ حَجَّارِينَ وَمَعَهُمْ خَيْلٌ يَحْمِيهِمْ وَيَسْتَقْصُونَهُمْ فِي ٱلْخَرَابِ . فَرَأَى أَنْ يَتَأَخَّرَ بِحَيْثُ أَنْ يُحْرَقَ ٱلْبُرْجُ ٱلْمَعْرُوفُ بِٱلْأَسْبِتَارِ . وَكَانَ بُرْجًا عَظِيمًا مُشْرِفًا عَلَى ٱلْبَحْرِ كَٱلْقَلْعَةِ ٱلْمَنِيعَةِ . وَلَقَدْ دَخَلْتُهُ وَعَلَفْتُهُ فَرَأَيْتُ بِنَاءَهُ أَحْكَمَ بِنَاءٍ بِعَرْضٍ أَنْ يَكُونَ لَا يَعْمَلُ فِيهِ ٱلْمَعَاوِلُ . وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَحْرِقُوهُ حَتَّى يَبْقَى بِٱلْحَرِيقِ قَابِلًا لِلْخَرَابِ . وَأَصْبَحَ مُسْتَهَلَّ رَمَضَانَ أَمَرَ وَلَدَهُ ٱلْمَلِكَ ٱلْأَفْضَلَ أَنْ يُبَاشِرَ ذَٰلِكَ بِنَفْسِهِ وَخَوَاصِّهِ . وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَحْمِلُ ٱلْخَشَبَ هُوَ وَخَوَاصُّهُ لِحَرِيقِ ٱلْبُرْجِ . وَلَمْ يَزَلِ ٱلنَّاسُ يَنْقُلُونَ ٱلْخَشَبَ وَيَحْشُونَهُ فِي ٱلْبُرْجِ حَتَّى ٱمْتَلَأَ ثُمَّ أُطْلِقَتْ فِيهِ ٱلنَّارُ فَٱشْتَعَلَ ٱلْخَشَبُ وَبَقِيَ ٱلنَّارُ تَشْعَلُ فِيهِ يَوْمَيْنِ بِلَيْلَتَيْهِمَا . ثُمَّ رَحَلَ ٱلسُّلْطَانُ ثَانِيَ رَمَضَانَ نِصْفَ ٱللَّيْلِ خَشْيَةً عَلَى مِزَاجِهِ مِنَ ٱلْحَرِّ وَوَصَلَ يُبْنَا ضَاحِيَ ٱلنَّهَارِ وَبَاتَ فِي تِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ وَأَصْبَحَ ثَالِثَ ٱلشَّهْرِ رَاحِلًا إِلَى جِهَةِ ٱلرَّمْلَةِ .....

نُخْبَةٌ
مِنْ كِتَابِ التَّارِيخِ لِأَبِي الْفِدَاءِ
الْمَعْرُوفِ بِصَاحِبِ حَمَاةَ

ذِكْرُ وَفَاةِ نُورِ الدِّينِ وَمَا كَانَ لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ

فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ تُوُفِّيَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ نُورُ الدِّينِ بْنُ مَحْمُودِ بْنِ عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِيِّ بْنِ أَقْسُنْقُرَ صَاحِبُ الشَّامِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ حَادِي عَشَرَ شَوَّالٍ بِعِلَّةِ الْخَوَانِيقِ بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ. وَكَانَ نُورُ الدِّينِ قَدْ شَرَعَ يَتَجَهَّزُ لِلدُّخُولِ إِلَى مِصْرَ لِأَخْذِهَا مِنْ صَلَاحِ الدِّينِ وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخَلِّيَ ٱبْنَ أَخِيهِ سَيْفَ الدِّينِ غَازِيَ بْنَ مَوْدُودٍ فِي الشَّامِ قُبَالَةَ الْفِرَنْجِ وَيَسِيرَ هُوَ بِنَفْسِهِ إِلَى مِصْرَ. فَأَتَاهُ أَمْرُ اللّٰهِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ. وَكَانَ نُورُ الدِّينِ أَسْمَرَ طَوِيلَ الْقَامَةِ لَيْسَ لَهُ لِحْيَةٌ إِلَّا فِي حَنَكِهِ حَسَنَ الصُّورَةِ. وَكَانَ قَدِ ٱتَّسَعَ مُلْكُهُ جِدًّا وَخُطِبَ لَهُ بِالْحَرَمَيْنِ وَالْيَمَنِ لَمَّا مَلَكَهَا تُورَانُ شَاهُ بْنُ أَيُّوبَ وَكَذٰلِكَ كَانَ يُخْطَبُ لَهُ بِمِصْرَ. وَكَانَ مَوْلِدُ نُورِ الدِّينِ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَطَبَّقَ ذِكْرُهُ الْأَرْضَ لِحُسْنِ سِيرَتِهِ وَعَدْلِهِ وَكَانَ مِنَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ عَلَى قَدَمٍ عَظِيمٍ وَكَانَ يُصَلِّي كَثِيرًا مِنَ اللَّيْلِ وَكَانَ كَمَا قِيلَ

جَمَعَ الشَّجَاعَةَ وَالْخُشُوعَ لِرَبِّهِ ... مَا أَحْسَنَ الْمِحْرَابَ فِي الْمِحْرَابِ

وَكَانَ عَارِفًا بِالْفِقْهِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ وَلَيْسَ عِنْدَهُ تَعَصُّبٌ وَهُوَ الَّذِي بَنَى أَسْوَارَ مُدُنِ الشَّامِ مِنْهَا دِمَشْقُ وَحِمْصُ وَحَمَاةُ وَحَلَبُ وَشَيْزَرُ وَبَعْلَبَكُّ وَغَيْرُهَا لَمَّا تَهَدَّمَتْ بِالزَّلَازِلِ وَبَنَى الْمَدَارِسَ

ٱلْكَثِيرَةَ ٱلْحَنَفِيَّةَ وَٱلشَّافِعِيَّةَ وَلَا يَحْتَمِلُ هٰذَا ٱلْمُخْتَصَرُ ذِكْرَ فَضَائِلِهِ

وَلَمَّا تُوُفِّيَ نُورُ ٱلدِّينِ قَامَ ٱبْنُهُ ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ إِسْمٰعِيلُ بْنُ نُورِ ٱلدِّينِ مَحْمُودٍ بِٱلْمُلْكِ بَعْدَهُ وَعُمْرُهُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً وَحَلَفَ لَهُ ٱلْعَسْكَرُ بِدِمَشْقَ وَأَقَامَ بِهَا وَأَطَاعَهُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ بِمِصْرَ وَخُطِبَ لَهُ بِهَا وَضُرِبَتِ ٱلسِّكَّةُ بِٱسْمِهِ. وَكَانَ ٱلْمُتَوَلِّي لِتَدْبِيرِ ٱلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ وَتَدْبِيرِ دَوْلَتِهِ ٱلْأَمِيرَ شَمْسَ ٱلدِّينِ مُحَمَّدًا ٱلْمَعْرُوفَ بِٱبْنِ ٱلْمُقَدَّمِ. وَلَمَّا مَاتَ نُورُ ٱلدِّينِ وَمَلَكَ ٱبْنُهُ ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ سَارَ مِنَ ٱلْمَوْصِلِ سَيْفُ ٱلدِّينِ غَازِي بْنُ قُطْبِ ٱلدِّينِ مَوْدُودِ بْنِ عِمَادِ ٱلدِّينِ زَنْكِي وَمَلَكَ جَمِيعَ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَزِيرَةِ (الجزرية)

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ سَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ. وَفِي أَوَّلِ هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ ٱجْتَمَعَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلصَّعِيدِ يُقَالُ لَهُ ٱلْكَنْزُ جَمْعٌ كَثِيرٌ وَأَظْهَرَ ٱلْخِلَافَ عَلَى صَلَاحِ ٱلدِّينِ فَأَرْسَلَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ إِلَيْهِ عَسْكَرًا فَٱقْتَتَلُوا وَقُتِلَ ٱلْكَنْزُ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ وَٱنْهَزَمَ ٱلْبَاقُونَ

ذِكْرُ مُلْكِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ دِمَشْقَ وَغَيْرَهَا

فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ سَلْخَ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ مَلَكَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ دِمَشْقَ وَحِمْصَ وَحَمَاةَ. وَسَبَبُهُ أَنَّ شَمْسَ ٱلدِّينِ ٱبْنَ ٱلدَّايَةِ ٱلْمُقِيمَ بِحَلَبَ أَرْسَلَ سَعْدَ ٱلدِّينِ كَمُشْتَكِينَ يَسْتَدْعِي ٱلْمَلِكَ ٱلصَّالِحَ ٱبْنَ نُورِ ٱلدِّينِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى حَلَبَ لِيَكُونَ مُقَامُهُ بِهَا. فَسَارَ ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ إِلَى حَلَبَ مَعَ سَعْدِ ٱلدِّينِ كَمُشْتَكِينَ. وَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ بِحَلَبَ وَتَمَكَّنَ كَمُشْتَكِينُ قَبَضَ عَلَى شَمْسِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلدَّايَةِ وَإِخْوَتِهِ وَقَبَضَ عَلَى ٱلرَّئِيسِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ وَإِخْوَتِهِ وَهُوَ رَئِيسُ حَلَبَ وَٱسْتَبَدَّ سَعْدُ ٱلدِّينِ بِتَدْبِيرِ ٱلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ

فخافه ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق. فكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملكوه عليهم. فسار جريدة في سبع مائة فارس ولم يلبث ووصل إلى دمشق فخرج كل من كان بها من العسكر والتقوه وخدموه ونزل بدار والده أيوب المعروفة بدار العقيقي وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان. فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة إليه. فصعد إليهم صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال. ولما ثبت قدمه وقرر أمر دمشق استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وسار إلى حمص مستهل جمادى الأولى

وكانت حمص وحماة وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها من بلد الجزيرة في أقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني. فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين مسعود المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها. فإن قلاعها فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم إلا بارين فإن قلعتها كانت له أيضا. ونزل صلاح الدين على حمص في حادي عشر جمادى الأولى وملك المدينة وعصت عليه القلعة. فترك عليها من يضيق عليها ورحل إلى حماة فملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة. وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك أحد المماليك النورية. فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض إلا حفظ بلاد الملك الصالح عليه وأنما هو نائبه وقصده من جرديك المسير إلى حلب في رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك. وسار جرديك إلى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في

قَلْعَةِ حَمَاةَ أَخَاهُ. فَلَمَّا وَصَلَ جُرْدِيكُ إِلَى حَلَبَ قَبَضَ عَلَيْهِ كُمُشْتِكِينُ وَسَجَنَهُ. فَلَمَّا عَلِمَ أَخُوهُ بِذَلِكَ سَلَّمَ الْقَلْعَةَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ فَمَلَكَهَا

ثُمَّ سَارَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى حَلَبَ وَحَصَرَهَا وَبِهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ. فَجَمَعَ أَهْلَ حَلَبَ وَقَاتَلُوا صَلَاحَ الدِّينِ وَصَدُّوهُ عَنْ حَلَبَ وَأَرْسَلَ سَعْدُ الدِّينِ كُمُشْتِكِينُ إِلَى سِنَانٍ مُقَدَّمِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ أَمْوَالًا عَظِيمَةً لِيَقْتُلُوا صَلَاحَ الدِّينِ. فَأَرْسَلَ سِنَانٌ جَمَاعَةً وَوَثَبُوا عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ فَقُتِلُوا دُونَهُ. وَاسْتَمَرَّ صَلَاحُ الدِّينِ مُحَاصِرًا لِحَلَبَ إِلَى مُسْتَهَلِّ رَجَبٍ وَرَحَلَ عَنْهَا بِسَبَبِ نُزُولِ الْفِرَنْجِ عَلَى حِمْصَ وَسَارُوا إِلَى حِمْصَ فَرَحَلَ الْفِرَنْجُ عَنْهَا وَوَصَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى حِمْصَ وَحَصَرَ قَلْعَتَهَا وَمَلَكَهَا فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ. ثُمَّ سَارَ إِلَى بَعْلَبَكَّ فَمَلَكَهَا

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ مُلْكُ صَلَاحِ الدِّينِ لِهَذِهِ الْبِلَادِ. أَرْسَلَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي صَاحِبِ الْمَوْصِلِ يَسْتَنْجِدُهُ عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ. فَجَهَّزَ جَيْشَهُ صُحْبَةَ أَخِيهِ عِزِّ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ مَوْدُودِ زَنْكِي وَجَعَلَ مُقَدَّمَ الْجَيْشِ أَكْبَرَ أُمَرَائِهِ وَهُوَ عِزُّ الدِّينِ مَحْمُودٌ وَلَقَبُهُ سَلْغَنْدَارَ وَطَلَبَ أَخَاهُ الْأَكْبَرَ عِمَادَ الدِّينِ زَنْكِي بْنَ مَوْدُودٍ صَاحِبَ سِنْجَارَ يَسِيرُ فِي النَّجْدَةِ أَيْضًا. فَامْتَنَعَ مُضَايَعَةً لِصَلَاحِ الدِّينِ. فَسَارَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي وَحَصَرَ بِسِنْجَارَ وَوَصَلَ عَسْكَرُ الْمَوْصِلِ صُحْبَةَ مَسْعُودِ بْنِ مَوْدُودٍ وَسَلْغَنْدَارَ إِلَى حَلَبَ وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ عَسْكَرُ حَلَبَ وَسَارَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ. فَأَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ يَبْذُلُ حِمْصَ وَحَمَاةَ وَأَنْ يُقِرَّ بِيَدِهِ دِمَشْقَ وَيَكُونَ فِيهَا نَائِبًا لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ. فَلَمْ يُجِيبُوا إِلَى ذَلِكَ وَسَارُوا إِلَى قِتَالِهِ وَاقْتَتَلُوا

عِنْدَ قُرُونِ حَمَاةَ فَٱنْهَزَمَ عَسْكَرُ ٱلْمَوْصِلِ وَحَلَبَ وَغَنِمَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ وَعَسْكَرُهُ أَمْوَالَهُمْ وَتَبِعَهُمْ صَلَاحُ ٱلدِّينِ حَتَّى حَصَرَهُمْ فِي حَلَبَ وَقَطَعَ حِينَئِذٍ خُطْبَةَ ٱلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ بْنِ نُورِ ٱلدِّينِ وَأَزَالَ ٱسْمَهُ عَنِ ٱلسِّكَّةِ وَٱسْتَبَدَّ بِٱلسَّلْطَنَةِ . فَرَاسَلُوا صَلَاحَ ٱلدِّينِ فِي ٱلصُّلْحِ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا بِيَدِهِ مِنَ ٱلشَّامِ وَلِلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْهُ فَصَالَحَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَرَحَلَ عَنْ حَلَبَ فِي ٱلْعَشْرِ ٱلْأَوَّلِ مِنْ شَوَّالٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ . وَفِي ٱلْعَشْرِ ٱلْأَخِيرِ مِنْ شَوَّالٍ مَلَكَ ٱلسُّلْطَانُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ قَلْعَةَ بَارِينَ وَأَخَذَهَا مِنْ صَاحِبِهَا فَخْرِ ٱلدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ ٱلزَّعْفَرَانِيِّ . وَكَانَ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلْمَذْكُورُ مِنْ أَكَابِرِ ٱلْأُمَرَاءِ ٱلنُّورِيَّةِ

ذِكْرُ ٱنْهِزَامِ سَيْفِ ٱلدِّينِ غَازِي صَاحِبِ ٱلْمَوْصِلِ مِنَ ٱلسُّلْطَانِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَفِيهَا عَاشِرَ شَوَّالٍ كَانَ ٱلْمَصَافُّ بَيْنَ ٱلسُّلْطَانِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ وَبَيْنَ سَيْفِ ٱلدِّينِ غَازِي بْنِ مَوْدُودِ بْنِ زَنْكِي بِتَلِّ ٱلسُّلْطَانِ . فَهَرَبَ سَيْفُ ٱلدِّينِ غَازِي وَٱلْعَسَاكِرُ ٱلَّتِي كَانَتْ مَعَهُ . فَإِنَّهُ كَانَ قَدِ ٱسْتَنْجَدَ بِصَاحِبِ حِصْنِ كِيفَا وَصَاحِبِ مَارِدِينَ وَغَيْرِهِمَا وَتَمَّتْ عَلَى سَيْفِ ٱلدِّينِ غَازِي ٱلْهَزِيمَةُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى ٱلْمَوْصِلِ مَرْعُوبًا وَقَصَدَ ٱلْهُرُوبَ مِنْهَا إِلَى بَعْضِ ٱلْقِلَاعِ فَثَبَّتَهُ وَزِيرُهُ وَأَقَامَ بِٱلْمَوْصِلِ وَٱسْتَوْلَى ٱلسُّلْطَانُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ عَلَى أَثْقَالِ عَسْكَرِ ٱلْمَوْصِلِ وَغَيْرِهِمْ وَغَنِمَ مَا فِيهَا . ثُمَّ سَارَ إِلَى بَزَاعَةَ وَحَصَرَهَا وَتَسَلَّمَهَا . ثُمَّ سَارَ إِلَى مَنْبِجَ فَحَصَرَهَا فِي آخِرِ شَوَّالٍ . وَكَانَ صَاحِبُهَا قُطْبُ ٱلدِّينِ يَنَالُ بْنُ حَسَّانَ

ٱلْنَّجْمِيُّ شَدِيدَ ٱلْبُغْضِ لِصَلَاحِ ٱلدِّينِ وَفَتَحَهَا عَنْوَةً وَأَسَرَ يَنَالَ وَأَخَذَ جَمِيعَ مَوْجُودِهِ. ثُمَّ أَطْلَقَهُ فَسَارَ يَنَالُ إِلَى ٱلْمَوْصِلِ فَأَقْطَعَهُ سَيْفُ ٱلدِّينِ غَازِي مَدِينَةَ ٱلرَّقَّةِ

ثُمَّ سَارَ ٱلسُّلْطَانُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ إِلَى عَزَازَ وَنَازَلَهَا ثَالِثَ ذِي ٱلْقَعْدَةِ وَتَسَلَّمَهَا حَادِيَ عَشَرَ ذِي ٱلْحِجَّةِ. فَوَثَبَ إِسْمَاعِيلِيٌّ عَلَى صَلَاحِ ٱلدِّينِ فِي حِصَارِهِ عَزَازَ فَضَرَبَهُ بِسِكِّينٍ فِي رَأْسِهِ فَجَرَحَهُ فَأَمْسَكَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّ وَبَقِيَ يَضْرِبُ بِٱلسِّكِّينِ فَلَا يُؤَثِّرُ حَتَّى قُتِلَ ٱلْإِسْمَاعِيلِيُّ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ وَوَثَبَ آخَرُ عَلَيْهِ فَقُتِلَ وَثَالِثٌ فَقُتِلَ أَيْضًا وَنَجَا ٱلسُّلْطَانُ إِلَى خَيْمَتِهِ مَذْعُورًا وَأَعْرَضَ جُنْدَهُ وَأَبْعَدَ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْهُمْ. وَلَمَّا مَلَكَ ٱلسُّلْطَانُ عَزَازَ رَحَلَ عَنْهَا وَنَازَلَ حَلَبَ فِي مُنْتَصَفِ ذِي ٱلْحِجَّةِ وَحَصَرَهَا وَبِهَا ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ وَٱنْقَضَتْ هٰذِهِ ٱلسَّنَةُ وَهُوَ مُحَاصِرٌ لِحَلَبَ. فَسَأَلُوهُ فِي ٱلصُّلْحِ فَأَجَابَهُمْ إِلَيْهِ وَأَخْرَجُوا إِلَيْهِ بِنْتًا صَغِيرَةً لِنُورِ ٱلدِّينِ فَأَكْرَمَهَا وَأَعْطَاهَا شَيْئًا كَثِيرًا وَقَالَ لَهَا: مَا تُرِيدِينَ. فَقَالَتْ أُرِيدُ قَلْعَةَ عَزَازَ وَكَانُوا قَدْ عَلَّمُوهَا ذٰلِكَ. فَسَلَّمَهَا ٱلسُّلْطَانُ إِلَيْهِمْ وَٱسْتَقَرَّ ٱلصُّلْحُ وَرَحَلَ ٱلسُّلْطَانُ مِنْ حَلَبَ فِي ٱلْعِشْرِينَ مِنَ ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ

سيلتي القسم الثالث من نخب الملح

من كتاب العبر لابن خلدون

ومن كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس للمقري

ومن كتاب الافادة لابي اللطيف

ومن كتاب تحفة النظار في غرائب الامصار لابن بطوطة

ومن كتاب عجائب المخلوقات لابن محمد القزويني